٢ — عدد ٨

مايو ١٩٤٦



مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس



تصدرها دار الكاتب المصرى

شركة مساهمة مصرية

القاهرة

الكاتب المصرى



جمادى الثانية ١٣٦٥ مايو ١٩٤٦

مجلد ٢ — عدد ٨

ثورتان

كانت إحداها فى إيطاليا أثناء القرن الأول قبل المسيح ، وكانت ثانيتهما فى العراق أثناء القرن الثالث للهجرة . وقد عرّضت أولاهما الجمهورية الرومانية كلها لخطر عظيم ، وعرّضت ثانيتهما الخلافة الإسلامية كلها لخطر عظيم ، وقد كانت لكل واحدة منهما أعقاب كثيرة خطيرة ظهرت آثارها فيما بعد ، كما كانت لكل واحدة منهما خصائص أظهرت أبطالا من المختصمين يستحقون الدرس والبحث ، ويستوجبون العناية ، ويدعون إلى كثير من التفكير .

فأما أولاهما فهى ثورة الرقيق فى إيطاليا ، تلك التى قادها سبرتاكوس ، وأما ثانيتهما فهى ثورة الزنج فى البصرة ، تلك التى قادها عبد الله بن محمد المعروف بصاحب الزنج .

وقد يسأل القارئ فيم تعرضى لهذا الموضوع وقد ذهب الرق وانتهت أيام الأرقاء ، وليس فى حياة الناس الآن ما يدعو إلى التفكير فى مثل هذا الموضوع والعناية به . وأحب أن ألاحظ قبل كل شىء أن من الجائز أن يكون الرق الفردى قد ذهب وانقضى عصره ، وإن كنت لا أثق بذلك ولا أطمئن إليه ، ولكن الرق الاجتماعى لم يذهب بعد ولم ينقض عصره . ولست أدرى متى يذهب ومتى تنقضى أيامه . فهناك شعوب تسترق شعوباً ، وهناك طبقات من الناس تسترق طبقات من الناس . ومع ذلك ، فأنا لم أختر هذا الموضوع لأتحدث عن استرقاق الشعوب للشعوب واستغلال طبقات الناس لطبقات الناس ؛ وإنما اخترت هذا الموضوع لسبب آخر سيعرفه القارئ بعد حين . وأحب أن ألاحظ

بعـد ذلك أن ثورة الزنج فى البصرة لم تـكن فى حقيقة الأمر بدعاً من حياة المسـلمين ؛ فقد عرف المسلمون قبل أن ينتصف القرن الأول للهجرة سخط الساخطين على النظام السـياسى والاجتماعى ، وثورة الثائرين بالنظام السياسى والاجتماعى ، ولقيت دولة بنى أمية كما لقيت دولة بنى العباس من طلاب العدل السـياسى والاجتماعى ألواناً من العناء يعرفها الذين يدرسون تاريخ الخوارج ويتتبعون تطور مذاهبهم منـذ كانت نظرية التحكيم . فليست ثورة الزنج فى حقيقة الأمر إلا مظهراً من مظاهر المطالبة بالعدل الاجتماعى قد اعتمد على مذهب الخوارج أكثر مما اعتمد على أى شىء آخر . ويكفى أن نلاحظ أن صاحب الزنج قد كتب على رايته بالخضرة والحمرة الآية الـكريمة : « إنَّ اللهَ اشترى مِنَ المؤمنينَ أنفُسَهُم وأموالَـهُـمْ بأنَّ لهمُ الجنَّـةَ يُقاتلونَ فى سـبيلِ اللهِ فيقتُـلونَ ويُقتَـلون» إلى آخر الآية . فالثورة فى مظهرها خارجية ، قد باع الثائرون فيها أنفسهم لله يقاتلون فى سبيله فيقتلون ويقتلون ، كما كان الخوارج يصنعون من قبل ، وكما كانوا يصنعون من بعد ، وكما كان خارجى آخر يصنع فى الوقت نفسه ، فيكلف الدولة عناء ثقيلا ، يقاتل ومعه أصحابه كما كان يزعم فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وهو مساور الذى خرج على الدولة فى أعماق إيران .

وأحب أن ألاحظ آخر الأمر أن ثورة الرقيق على الجمهورية الرومانية فى إيطاليا قد أثارت كثيراً من القول ، فكتب فيها المؤرخون القدماء وكتب فيها المحدثون ، بل تأثر بها بعض المحدثين فى آرائهم الاجتماعية والسياسية ، وما زالت تلهم الـكتّـاب الأوروبيين إلى الآن ، وهذا هو الذى دفعنى إلى أن أعرض لهذا الموضوع فى هذا الحديث .

فقد قرأت فى هذه الأيام الأخيرة قصة رائعة للكاتب المجرى أرتور كوسلر ، موضوعها « سـبارتاكوس وثورة الرقيق على روما » فسألت نفسى ما بال ثورة الزنج لم تحدث فى حياتنا الأدبية مثل ما أحدثته هذه الثورة الإيطاليـة القديمة ؟ لقد سجل المؤرخون أحداثها كما سجل المؤرخون الرومانيون أحـداث الثورة الإيطالية ، وقال الشعراء المعاصرون فى الثورة كثيراً من الشعر ، كما تحدث الأدباء الرومانيون من قبل فى اللاتينية واليونانية عن ثورة سبارتاكوس . ولـكن الأوروبيين لم ينسوا تاريخ روما وأحداثه ، ولم ينظروا إليـه على أنه تاريخ ليس غير ، وإنما جعلوه جزءاً من حياتهم ومن حياتهم

الواقعة التي يحيونها بالفعل ؛ فهم يستلهمونه كما يستلهمون التاريخ اليوناني وكما يستلهمون أساطير اليونان والرومان، وكما يستلهمون التوراة فيما يكتبون من نثر وما يقرضون من شعر . فأما نحن فنعرض عن التاريخ العربي إعراضاً يوشك أن يكون تاماً ، لا نكاد نحفل منه إلا بعصر البطولة الذي نجتمع كلنا على حبه والإعجاب به . فنحن نتحدث عن عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين ، ونحن نذكر دمشق عاصمة أمية ، ونذكر بغداد عاصمة بني العباس ، ونذكر القاهرة عاصمة الفاطميين ، نذكر هذا كله نلتمس فيه الفخر بالقديم ونلتمس فيه العبرة والعظة أيضاً ، وقد نلتمس فيه ما يدفعنا الى الجد ويثير فينا النشاط ، ويعزينا عن بعض ما نلقى مما لا يلائم كرامتنا ولا يوافق مجدنا القديم . وكل هذا حسن من غير شك ، ولكن من الخير أيضاً أن ننظر إلى تاريخنا على أنه مصدر من مصادر الالهام الأدبي ، وعلى أنه جزء من حياتنا الواقعة لم تنقطع بيننا وبينه الأسباب ، فنحن ما نزال نشارك القدماء فيما شعروا وفيما أحسوا ، لا يفرق بيننا وبينهم إلا هذا التطور الذي لابد منه للأحياء .

وربما كان من الطريف أن نلاحظ أن كثيراً منا يفكرون في العدل الاجتماعي ، ويحسون حاجة الجماعات إليه ، ولكنهم ينظرون إلى ما وراء البحر الأبيض المتوسط ، ليلتمسوا في أوروبا مصادر هذا الشعور بالحاجة إلى العدل الاجتماعي ، ومظاهر المطالبة به والسعي إليه ، ينظرون إلى الديمقراطية المعتدلة وينظرون إلى الاشتراكية الدولية وإلى الاشتراكية الوطنية وقد ينظرون إلى الشيوعية في كثير من التردد والاستحياء . ولكنهم لا ينظرون أو لا يكادون ينظرون إلى فكرة المطالبة بالعدل الاجتماعي كما وجدها المسلمون قبل أن ينتصف القرن الأول للهجرة ، وقليل منهم بل أقل من القليل أولئك الذين يحاولون أن يتابعوا نشأة هذه الفكرة وتطورها في البيئات الاسلامية الثائرة ، وما أنتجت من ألوان الأدب ، قبل أن تتأثر بالثقافات الأجنبية وبعد أن تأثرت بهذه الثقافات ، وما كان لها من أثر في حياتنا العقلية المعقدة في الفلسفة والكلام وفي الفقه والأصول ، فضلا عن أن يفكروا في استلهام هذا اللون من ألوان الحياة الاسلامية حين يكتبون النثر أو ينظمون الشعر . ومع ذلك فقد كان للمطالبة بتحقيق العدل الاجتماعي أبطال من حقهم أن يدرسوا ومن حقهم أن يلهموا الكتاب والشعراء ، كما جرت المطالبة بالعدل الاجتماعي على المسلمين في

جميع أقطار الأرض الاسلاميـة خطوبا هائلة من حقها أن تدرس وتجلى ، ومن حقها أن تلهم الـكتاب والشعراء حين يكتبون وينظمون .

وأنا بالطبع لا أريد فى هذا الحديث أن أدعو إلى إحياء حركات الخوارج والزنج والقرامطة ، كما أنى لا أريد أن أدعو إلى أن نستعير من أوروبا هذا المذهب أو ذاك من مذاهب المطالبين بتحقيق العدل الاجتماعى ، وإنما أحب أن ألفت أدباءنا إلى أن لنا فى المطالبة بالعدل الاجتماعى تاريخا حافلا عظيم الغناء يستحق أن نرجع إليه بين حين وحين ، فلعلنا إن فعلنا عرفنا أن المتطرفين من قدمائنا قد سبقوا إلى طائفة من الأصول فى تنظيم الحياة الاجتماعية لم تستكشف فى أوروبا إلا أثناء القرن التاسع عشر أو فى عصر الثورة الفرنسية الـكبرى .

فنحن إذن لسنا عيالا ولا يمكن أن نكون عيالا على المطالبين بتحقيق العدل والثائرين على الظلم الاجتماعى من الأوروبيين ، وإنما نحن أبعد منهم عهداً وأشد منهم ممارسة لهذا النحو من محاولة الاصلاح . من قدمائنا من طلب الاصلاح الاجتماعى فى رفق ولين ، ومنهم من طلبه فى ثورة وعنف ، ومنهم من أثارها حرباً شعواء على النظم القائمة فعرضها للخطر ، وكاد يمحو سلطانها محوا .

والثورتان اللتان أريد أن ألم بهما فى هذا الحديث تصوران لونا من ألوان السخط يستحق أن يطيل الأدباء التفكير فيه . فقد نشأت ثورة الرقيق على روما من عادة بشعة كان الرومانيون قد ألفوها ، ولـكنها لم تلبث أن تجاوزت مصدرها الضيق وأصبحت ثورة شاملة على النظام الاجتماعى كله فى إيطاليا . هذه العادة البشعة التى أنشأت هذه الثورة هى عادة الاستمتاع بمنظر الرقيق المصطرعين . فقد ألف الرومان أن يشتروا الرقيق ويثقفوهم فى فنون الصراع الذى ينتهى إلى الموت ، حتى إذا برعوا فى هذه الفنون عرضوهم على النظارة فى الملاعب وأغروا بعضهم ببعض ، وجعل النظارة يستمتعون بما يكون بينهم من كرٍّ وفر ومن إقدام وإحجام ، وبما يسفك بينهم من دماء ، وبما يزهق بينهم من نفوس . وكان الرومانيون يؤثرون هذه اللذة الآثمة على كل شىء ، ينعمون حين يصرع الانسان الانسان ، وينعمون حين يصرع الحيوان الحيوان ، وينعمون حين يكون الصراع بين الانسان والحيوان . وكانوا فى أعقاب الجمهورية وفى أيام الامبراطورية يطلبون إلى سادتهم وقادتهم ، كما هو معروف ، شيئين اثنين : الخبز واللعب .

ففى مدينة من المدن الإيطالية كان رجل من أصحاب الملاعب قد جمع طائفة من الرقيق يثقفهم هذه الثقافة البغيضة ، ويعرض صراعهم على النظارة بين حين وحين ، فهربت جماعة الرقيق من مدرسة هذا الرجل فى مدينة كابو ، وكان عددها ينيف على السبعين ، وانطلقت أمامها لا تلوى على شىء ، واستعان صاحبها بالشرطة فلم تقدر على ردهم ، ولكنهم لم يكادوا يتقدمون فى هربهم حتى انضمت إليهم أعداد أخرى من الرقيق ، لم تكن تتخذ للصراع وإنما كانت تتخذ للخدمة على اختلاف ألوانها . وما هى إلا أن ينتشر النبأ ويتسامع به الناس حتى ينتشر معه هرب الرقيق وانضمامهم إلى هؤلاء الآبقين . ثم لا يقف الأمر عند الرقيق وإنما يتجاوزهم إلى أشباه الرقيق من الفقراء والبائسين الذين يعملون فى الأرض والذين لا يعملون ، والذين يحتملون من ألوان البؤس ما يطاق وما لا يطاق ، وإذا الجماعة تضخم شيئاً فشيئاً حتى تصبح خطرا تحسب له الجمهورية حسابا . ثم يتجاوز الأمر هؤلاء جميعاً إلى ألوان من الناس لم يكونوا رقيقاً ولم يكونوا أحراراً فقراء وإنما كانوا ساخطين على النظام الاجتماعى ، يرون فيه ظلماً يجب أن يرفع ويطمحون إلى مُثُلٍ عليا يجب أن تتحقق . من هؤلاء من كان معنيًّا بالأدب والبيان ومنهم من كان معنيًّا بالقضاء والمحاماة ، وكل هؤلاء قد نسوا مدرسة الصراع وهرب المصارعين ، وأصبحوا لا يفكرون إلا فى النظام الاجتماعى السيئ الذى كانوا يحاولون تغييره . ولست فى حاجة إلى أن أصور سوء النظام الذى كان هؤلاء الناس يثورون به ويسخطون عليه ، وإنما يكفى أن ألاحظ أن الثروة الرومانية الضخمة كانت قد انحصرت فى أيدى طائفة قليلة من الناس يمكن احصاؤهم ؛ فهم الذين يملكون الأرض ويسخِّرون فيها الرقيق ويقصون عنها الأحرار ، وهم الذين يحتكرون التجارة داخل إيطاليا من وراء البحار ، وهم الذين يحتكرون الحكم فى جميع أرجاء الإمبراطورية ويستغلونه لأنفسهم لا للشعب . وهم بحكم هذه الثروة الضخمة التى صارت إليهم يستطيعون أن ينشئوا الجيوش على نفقاتهم الخاصة ، ينشئونها فى الأرض الايطالية ، وينشئونها فى أقاليم الإمبراطورية ويستعينون بها على تحقيق ما يريدون من المآرب والآمال .

فى ذلك الوقت كانت كثرة الأحرار من أهل إيطاليا متعطلة قد فقدت ما كانت تملك من الأرض وأصبحت عالة على الأغنياء ، تعيش لهم وبهم ، تتلقى منهم رزقها وتمنحهم أصواتها فى الانتخاب كما تمنحهم سواعدها حين يجد الجد

وتثار الحرب . وفى هذا الوقت كانت الثـورات فى الأقاليم منتشرة عنيفة : فثورة فى أسبانيا ، وأمر مضطرب فى آسيا . وفى هذا الوقت كان البحر ثائراً على روما ، قد استبد به جماعة من القرصان فتحكموا فى المواصلات كما تحكموا فى التجارة ، وقضوا على سلطان أساطيل الدولة قضاء يوشك أن يكون تاما . فلا غرابة أن يضطرب مجلس الشيوخ الرومانى أشد الاضطراب حين يثور الرقيق وتعظم جماعة الثائرين منهم ، وينضم إليهم عدد ضخم من الأحرار ، ويتعرض النظام كله لهذا الخطر العظيم . وقد أرسل مجلس الشيوخ جيشاً لقهر هؤلاء الثائرين وردهم إلى مواليهم ، فمضى الجيش حتى ألجأ الثائرين إلى قمة جبل لاذوا بها وحاصرهم الجيش هناك وقطع عنهم الميرة ، وأقام واثقاً بأنهم سينزلون على حكمه فى يوم من الأيام . ولـكن الثائرين احتالوا حتى انحدروا من الجبل إلى مكان أمين وداروا حول الجبل حتى أخذوا الجيش على غرة ، فهزموه هزيمة منكرة وقتلوا منه مقتلة عظيمة ، وغنموا ما كان فى المعسكر من سلاح ومؤنة وأداة ، فاشتد بذلك بأسهم وعظمت قوتهم ، واشتد خوف مجلس الشيوخ فى روما فأرسل إليهم جيشاً آخر لم يكن حظه خيراً من حظ الجيش الأول . ثم أرسل جيشاً آخر يقوده القنصلان ، فلم يصنع هذا الجيش شيئاً ، وإنما انهزم كما انهزم الجيشان اللذان سبقاه . وكان انتصار الثائرين فى كل مرة ينشر لهم الدعوة فى إيطاليا نشراً هائلا ، ويحرض الرقيق أن يأبقوا ليلحقوا بهم ، ويحرض البؤساء على أن ينضموا إليهم ، حتى كثف جمعهم ، وحتى فقـدت المدن الإيطالية الأمن أمام الخطر الدائم الذى يأتيها من خارج من هذا الجيش الضخم ، والذى يأتيها من داخل من هؤلاء الرقيق الذين يعملون فى الدور والقصور والأرض ودور التجارة . ولذلك اهتمت روما لهـذا الأمر اهتماما خاصا ، فاختارت لقتـال هؤلاء الثائرين رجلا ممتازاً من رجالها ، ممتازاً بشيئين ، بالثروة الضخمة التى لم تكن ثروة أخرى تعدلها فى روما ، والتى أتاحت له أن يتحكم فى الأغنياء والفقراء جميعاً ، وبالطموح الهائل الذى لم يكن يعدله إلا عجز الرجل وقصوره عن النهوض بجلائل الأعمال . وهو مع ذلك قد كان يرى أصحابه وأترابه يشغلون المناصب العليا ويدبرون شؤون الدولة ويحكمون الأقاليم ، وكلهم كان مدينا له بالمال القليل أو الـكثير .

هذا هو ماركوس كراسوس الذى اختارته روما لقتال الثائرين ، وأرسلت معه جيشاً ضخما حسن العدة . فما زال يتتبع الثائرين يقهرهم حيناً ويقهرونه حيناً

حتى ألجأهم إلى شبه جزيرة ، يأخذهم البحر من أكثر أقطاره ويأخذه هو من قطره الأخير . وهناك حصر الثائرين ، فاحتفر بينه وبينهم خندقا وأقام على هذا الخندق سوراً منيعاً وانتظر أن يُلقوا إليه بأيديهم . وقد تعرض الثائرون لجهد هائل ، فقد انقطعت عنهم الميرة حتى ألح عليهم الجوع والظمأ والمرض ، وهمّ زعيمهم سبارتاكوس أن يستعين بالقرصان على تموينهم ، فعبثوا به وأخذوا منه ماله ولم يمنحوه إلا المواعيد . وهمّ أن يصالح القائد الرومانى على أن يترك للناس حريتهم يصنعون بها ما يشاءون ، ويأخذ القادة ليصنع بهم ما يشاء ، ولكن كراسوس أبى إلا التسليم بلا قيد ولا شرط ، كما يقول الناس فى هذه الأيام . وقد استيأس سبارتاكوس واستيأس أصحابه وأبوا أن يلقوا بأيديهم ، فاحتالوا حتى عبروا الخندق وتقدموا للموقعة اليائسة . هنالك تقدم سبارتاكوس بين الصفين فنحر فرسه وقال لأصحابه إن أقتل فلست فى حاجة إليه وإن أنتصر فلن أعدم فرساً مكانه . ثم كانت الموقعة وقتل سبارتاكوس وقتل أكثر أصحابه وأسر سائرهم ، وعاد كراسوس وقد جعل من هؤلاء الأسارى نكالاً للذين يحاولون الثورة على النظام الاجتماعى ، فأقام الصلبان على طول الطريق بين ساحل البحر وروما ، وجعل كلما تقدم أميالا صلب جماعة من الأسارى ، حتى امتلأت الطريق بين البحر وروما صياحاً وعويلا ودماء . وكان كراسوس يظن أن هذا الفوز على الثائرين سيكفل له التسلط على روما ، ولكن الشيوخ لم يقدروا هذا الفوز إلا تقديراً متواضعاً لأنه كان فوزاً على العبيد لا على الجيوش ذات العدة . وقد استطاع كراسوس مع ذلك بفضل ثروته الضخمة وغناه العريض أن يحالف قيصر وپومپيوس ، وأن يفرض الثلاثة أنفسهم على روما ، وأن يقتسموا الإمبراطورية بينهم . وكانت آسيا نصيب كراسوس ، فذهب إليها ومعه جيشه الضخم ، ولكنه لم يعد منها كما لم يعد منها جيشه . اندفع إلى حرب البارتيين وغرّته قوته ولم تسعفه مهارة ولا سياسة ولا علم بفنون الحرب ولا استماع لنصح الناصحين ، فقتل ابنه أولا وقتل هو بعد ذلك ومحق جيشه محقاً .

وقد نستطيع أن ننظر من أمر هذه الثورة إلى بطلين من أبطالها : أحدهما سبارتاكوس قائد الثورة ، والآخر كراسوس ماحق الثورة . فأما أولهما فقد كان راعيا للقطعان فى تراقيا ، وقد جلب منها فيمن كان يجلب من العبيد ، فتنقل به الرق من مكان إلى مكان ومن يد إلى يد ، حتى انتهى إلى صاحب ملعب

المصارعين فى تلك المدينة الإيطالية . وكان رجلا سمح النفس ، طيب القلب ، ساذج الطبع ، كان راعيا من رعاة القطعان بأوضح ما لهذه الكلمة من معنى ، لا يحب قتلا ولا قتالا ، ولا يريد شرًّا ولا خصومة ، وإنما يؤثر هذه الحياة السهلة الراضية على خشونتها ، يتبع قطعانه فى مراعيها ، كل همه أن يردّ عنها الشر ويصد عنها العدوان ، ولكنه لم يستطع أن يرد عنها ولا عن نفسه شرا ، ولا أن يصد عنها ولا عن نفسه عدواناً ، فأخذ فى بعض الغنائم كما أخذت قطعانه ، وبيع فى بعض الأسواق كما بيعت قطعانه أيضا . وهمّ سيد من سادته أن يقدمه إلى الموت كما كانت قطعانه تقدم إلى الموت ، فهرب فيمن هرب من المصارعين ، لا يريد بغياً ولا اعتداء ، وإنما يريد أن ينجو بنفسه من أن يكون قاتلا أو مقتولا ، وأن ينجو بنفسه كذلك من أن يكون سلعة تباع وتشترى ، وأداة تسخر لغير ما تريد ، مع أن لها قلباً يشعر ، وعقلا يفكر ، وإرادة تعرف ما تقصد إليه .

وكان سبارتا كوس رجلا قوى الجسم ، مرتفعاً فى السماء ، عريضاً فى الفضاء ، شجاعاً لا يعرف الخوف ، مصمما لا يحب التردد ، قانعاً لا يطمع إلا فى أن يعيش حراً ، ولا يتمنى إلا أن يعود إلى وطنه فى تراقيا ويستأنف حياته تلك مع قطعانه ينتقل بها فى الرياض والمروج . ولو أطاعه أصحابه لكان من الممكن أن يبلغ من ذلك ما أراد ، وقد كان ينصح لهم دائماً ويلح عليهم فى النصح أن يخرجوا من هذه الأرض الظالم أهلها ، وأن يعبروا الألب ويتفرقوا بعد ذلك فيمضى كل واحد منهم إلى وطنه ، ويستأنف حياته الهادئة التى كان يحياها قبل أن يبسط الرق عليه يده الظالمة . ولكن أصحابه لم يطيعوه ولم يسمعوا له ، كانوا قلة ضئيلة ثم أصبحوا كثرة عظيمة ، فأعجبتهم كثرتهم ولكنها لم تغن عنهم من الموت شيئاً .

ولم يكن سبارتا كوس يبغض شيئاً كما كان يبغض النهب والسلب والإغارة على المدن الآمنة . ولو سمع له أصحابه بعد أن رفضوا العودة إلى أوطانهم لاستقروا فى هذه الناحية أو تلك من نواحى إيطاليا وعاشوا من كسب أيديهم ، ولانتشرت دعوتهم فى هدوء وسلم ، ولكان من الممكن أن ينعموا بحياة مطمئنة ، وأن يدافعوا عن هذه الحياة إن احتاجوا إلى الدفاع عنها . ولكن أصحابه لم يسمعوا له ؛ فقد كانت قلوبهم مغيظة محنقة ، وكانت نفوسهم ساخطة واجدة ، وكانوا

مظلومين ، فلم يكفهم أن يخرجوا أنفسهم من الظلم ، وإنما أرادوا أن يظلموا الناس كما ظلمهم الناس ، وأن يذيقوا سادتهم مثل ما أذاقهم سادتهم من الذل والهوان . ولذلك اعتدوا على المدن ، فحرّقوا وخرّبوا وقتلوا ومثلوا وملأوا أيديهم مما لا يحل لهم من أموال الوادعين الهادئين ، فأحفظوا الناس على أنفسهم من جهة وأغروا الضعفاء وأصحاب المطامع باتباعهم من جهة أخرى . وكانوا لا يمر بهم يوم إلا ازداد إقبال الناس عليهم وبغض الناس لهم ، فكانوا يستكثرون فى كل يوم من الأعداء والأولياء جميعاً . وقد همّ سبارتاكوس أن يأخذ أصحابه بالحزم ويحملهم على الجادة ويمنعهم من اقتراف الآثام ، فأبى بعضهم أن يسمع له وفارقوه إلى حيث لقوا حتفهم ، وسمع له الآخرون وقتاً ما ثم لم يلبثوا أن ضاقوا بهذه الحياة الهادئة التى يعتدى عليهم فيها ولا يعتدون على أحد ، فعادوا إلى سيرتهم وملأوا الأرض من حولهم شرّاً حتى انتهوا إلى تلك العاقبة التى صورتها آنفاً .

وأما قامع الثورة كراسوس فقد كان كما رأيت رجلا لا حدّ لثرائه ولا حد لمطامعه ولا حد مع ذلك لعجزه وقصوره . ولم يكن ماهراً إلا فى شئ واحد هو جمع المال يأخذه بحقه قليلا ويأخذه بغير حقه كثيراً ، كان مرابياً مفحشاً فى الربا ، ولكنه يشتط على الضعفاء وييسر الأمر تيسيراً للأغنياء وأصحاب الجاه ، يأخذ من أولئك أموالهم لأنه لا ينتظر أن يأخذ منهم شيئاً آخر . أما هؤلاء فيعطيهم ماله ، ولا يأخذ منهم ربحاً ماليا ؛ لأنه ينتظر أن يأخذ منهم الجاه والسلطان . فلما ارتفع أمره واحتاج إلى جاه الأغنياء وسواعد الفقراء ، طابت نفسه عن المال لأولئك وهؤلاء جميعاً ، فكان يولم الولائم لأهل روما كافة . كان يقيم الوليمة التى تشتمل على ألف مائدة ، وكان يتلقى الناس على اختلاف طبقاتهم فى كثير من البشاشة والإيناس . كان كما يقول أبو نواس :

فتى يشترى حسن الثناء بماله   ويعلم أن الدائرات تدور

ولكنه لم يكن يشترى حسن الثناء وحده بالمال ، وإنما كان يشترى معه سوء القالة وبغض البائسين . فقد كان يتتبع المحتاجين يشترى منهم ما يملكون بأبخس الأثمان . ولعله كان يدفع الناس إلى الحاجة ويضطرهم إلى أن يبيعوه ما يملكون ، كان يتتبع الحريق هنا وهناك ويشترى الدور التى تشب فيها النار وكان قد احتكر إطفاء الحريق وألف لذلك فرقة منظمة قوية ؛ فكان إذا شبت

النار فى دار من الدور فاوض المالك فى بيعها ، ولم يرسل فرقة المطافئ لاطفاء النار حتى يتم البيع . وكان قد احتكر مواد البناء على اختلافها وصناعة البناء على تنوعها ، واتخذ من الرقيق والأحرار فرقاً تعمل فى هذا كله ؛ فكانت مدينة روما كلها أو أكثرها ملكا له ، وكانت له أملاك واسعة فى مدن كثيرة أخرى ، وكانت له أرض زراعية لا يكاد يبلغها الإحصاء ، وكانت غلات هذا كله تؤول إلى خزائنه فينفق منها عن سعة ويشترى بها ما يشاء مما يباع وما لا يباع . وكانت هذه الثروة على ضخامتها لا ترضيه ولا تقنعه ؛ فقد كان يطمع فى السلطان ، يريد أن يكون قنصلا وحاكماً من حكام الأقاليم وقائداً للجيوش ومنتصراً على الأعداء ومتحكماً فى الأولياء . وكان يرى أن ثروته يجب أن تبلغه من هذا كله ما يريد . ولم يكن مخطئاً ؛ فقد كان النظام السياسى والاجتماعى من الفساد بحيث بلّغته ثروته من هذا كله ما أراد . اشترى پومپيوس واشترى قيصر واشترى أعضاء مجلس الشيوخ واشترى أصوات الناخبين ، وارتقى إلى أعلى مناصب الدولة ، وسيطر على آسيا وتحكم فى ملوكها ، وسعى فى كثير من الطغيان والجبروت حتى لقى الموت كما يلقاه غيره من الناس ، كأنه لم يملك من الثروة ما ملك ، ولم يبلغ من السلطان ما بلغ ، ولم يتحكم فى أشراف روما وملوك آسيا ما تحكم .

وكذلك قتل زعيم الثورة سبارتاكوس ، كما قتل قامع الثورة كراسوس . جاهد أولهما فى سبيل حريته وحرية أصحابه وفى سبيل العدل ، فظفر بالحرية التى انتهت به وبأصحابه إلى الموت ، ولم يظفر من العدل لنفسه ولا لغيره بشىء ، بل لم يستطع أن يحقق العدل فى معسكره ، ولا أن يمنع أصحابه الذين كانوا يطلبون العدل من أن يملأوا الأرض جوراً وظلماً . وجاهد ثانيهما فى سبيل نفسه ، فأذل نفوساً لا تحصى وأزهق نفوساً لا تحصى ، وأهان الفضيلة فى سبيل المطامع وازدرى الحق والواجب فى سبيل الشهوات ، وخدع الشعب واستذل سلطانه وأكرهه على ما لم يكن يريد ، ثم قاد الجيوش لا إلى النصر ولا إلى الهزيمة ، بل إلى الموت الساحق الماحق الذى لا يبقى ولا يذر . كل هذا كان فى ايطاليا أثناء القرن الأول قبل المسيح . فأما أحداث العراق فقد كانت تشبه هذا كله من وجوه كثيرة وتخالفه من وجوه كثيرة أيضاً ، ولم تكن أقل منه هولاً على كل حال .

لم يكن عبد الله بن محمد صاحب الزنج غنيًّا ولا شيئاً يشبه الغنى . وأكبر الظن أنه لم يكن شيئاً مذكوراً ، ولولا هذه الثورة لجهله التاريخ كما يجهل الملايين التي لا تحصى من الناس فى كل جيل . ولكنه كان فيما يظهر ذكى القلب بعيد الأمل دقيق الحس حاد المزاج ، ضابطاً لأمره مالكا لإرادته ، يصبر نفسه على المكروه فى غير مشقة ولا جهد . كان يعيش ، فيما يقول المؤرخون ، ببغداد متصلا ببعض الخدم المعروفين فى قصر الخلافة، وكان يرى الفساد يملأ الأرض من حوله : كان يرى فساد السياسة وفساد النظام الاجتماعى وفساد الأخلاق وعبادة اللذة هنا وعبادة المطامع هناك . كان يرى الحياة من حوله مغامرات لاتنقضى : رفيع يتضع ووضيع يرتفع ، فقير تنهض به المغامرة إلى الثروة العريضة وغنىّ تنحط به المغامرة إلى البؤس الضيق ، وأغمار يأتون من هنا وهناك فإذاهم يرقون إلى أعلى المناصب ويستأثرون بشؤون الخلافة ويتحكمون فى حياة الخلفاء . كان يرى ذلك من قرب فتنكره نفسه أشد الإنكار . أكانت نفسه تنكر هذا لأنها كانت نفساً كريمة تحب الخير وتكره الشر وتطمع فى العدل وتؤثر المعروف ، أم كانت نفسه تنكر هذا لأنها كانت نفساً طموحاً تريد أن تشارك فيما يشارك فيه المغامرون وأن تأخذ نصيبها من الدنيا ؟ مسألة فيها نظر . يرى المؤرخون أنه لم يكن إلا مغامراً شريراً ، آثر نفسه بالخير وطمع لها فى الرياسة واقترف فى سبيل ذلك آثاماً يشيب لها الولدان . والمؤرخون لا يسمونه إلا الخبيث واللعين ، ولا يصفونه إلا بأنه عدو الله وعدو المسلمين . ولكن بماذا كان المؤرخون يسمونه لو أنه انتصر ؟ وبماذا كان المؤرخون يصفونه لو أتيح له الفوز ؟

فالنـاس من يلق خيراً قائلون له   ما يشتهى ، ولأم المخطئ الهبلُ

مهما يكن من شئ فقد كره عبدالله بن محمد ما رأى فى بغداد ، وكره ما كان يحمل إلى بغداد من أخبار الأقطار الإسلامية . فقد كان عرش الخلافة يضطرب أشد الاضطراب ، يعبث الأتراك به فى الحضرة ويستبدون من دون الخليفة بالأمر ويسومون الخلفاء من الذل والهون ما يريدون . وكان الأمراء والعمال والناجمون فى الأطراف يستبدون بما فى أيديهم وينشئون الدول المستقلة فى الشرق والغرب ، يصانعون السلطة المركزية حيناً ويبادونها بالعدوان والحرب فى أكثر الأحيان . وكان لكل قوى ضعفاء يستذلهم ، ولكل غنى فقراء يستغلهم .

فأى غرابة فى أن ينكر عبد الله بن محمد هذا كله ، وفى أن يتحدث بهذ كله أو ببعضه إلى نفر من أصحابه ، وفى أن يؤامرهم على أن يغامروا كما غامر الناس ويحاولوا تغيير هذا الشر كما حاول الناس من قبل ، وكما كانوا يحاولون فى أيامه تغيير هذا كله ! وقد ارتحل بنيته هذه من بغداد إلى هَجَر فحاول أن يحدث فيها حدثاً ، وكاد ينجح لولا أن أثيرت حوله العصبية وكثر القتل بين أصحابه وخصومه ، فكرهه الناس وضاقت به هجر ، فانتقل منها إلى الأحساء ، ثم ضاقت به الأحساء ، فانتقل منها إلى البادية ، وجعل يطوف بأحياء العرب يدعوهم إلى مذهبه ، والعرب يستجيبون له حيناً ، ويمتنعون عليه حيناً آخر حتى ضاقت به البادية أيضاً ، وجعل يفكر فى وجه يقصد إليه ليبدأ مغامرته ولينتهى بها إلى غايتها .

وهنا يتحدث المؤرخون عنه بالأعاجيب فيزعمون أنه أطال التفكير ذات يوم فإذا سحاب يظهر فى السماء ثم يبرق ويرعد ، وإذا هو يسمع فى صوت الرعد ، أو ينبىء أصحابه أنه سمع فى صوت الرعد أن وجهته يجب أن تكون البصرة . وقد زعم المؤرخون أنه كان يتحدث إلى أصحابه ألواناً من الحديث يزعم أنها من ألوان الغيب فقد ظهرت له آيات فيما يقول على إمامته ، فحفظ سوراً من القرآن ألقيت فى روعه فجاءة ولم يكن يحفظها من قبل ، وكتب له على الحائط كتاب كان يقرأ فيه ، يراه هو ولا يراه أحد من أصحابه ، وعرضت عليه النبوة فيما قال ، أو فيما زعم المؤرخون أنه قال ، فأباها ، واكتفى بالإمامة ؛ لأن أعباء النبوة أثقل من أن يستطيع النهوض بها .

ومن الجائز أن يكون عبد الله بن محمد قد زعم هذا كله أو بعضه لأصحابه ؛ فقد كان هذا النحو مذهباً من مذاهب نشر الدعوة ووسيلة إلى إثارة الجماهير . ومن الجائز كذلك أنه لم يقل من ذلك شيئاً ، وإنما تكلف المؤرخون ذلك غضا منه وتشهيراً به وزراية عليه ؛ لأن النجاح لم يكتب له . والشىء الذى ليس فيه شك هو أنه قصد إلى البصرة ، وهم أن يثير فيها الفتنة ، فنَذِر به السلطان ، وأخذ بعض أصحابه وهرب هو ، فعاد إلى بغداد وأقام فيها مع جماعة من رفاقه يحكمون أمرهم . حتى إذا عزل عامل البصرة قصد قصدها ، وهناك بدأ مغامرته الخطيرة سنة خمس وخمسين ومئتين بعد أن أنفق فى التدبير والتمهيد والتجربة ست سنين .

بدأ مغامرته الخطيرة فى رمضان سنة خمس وخمسين ومئتين : اتصل بالرقيق الذين كانوا يعملون حول البصرة فى كسح السباخ وفى إصلاح الأرض، وفى استخراج الملح وفى غير ذلك من هذه الأعمال التى سخر أهل البصرة لها عشرات الألوف من الرقيق السود . والظاهر أن أصحاب رءوس الأموال كانوا قساة على هؤلاء العبيد، يسومونهم الخسف ويعنفون عليهم فى السيرة ويقترون عليهم فى الرزق ويكلفونهم من العمل أكثر مما يطيقون . وآية ذلك أن عبد الله بن محمد لم يكد يتصل بهم حتى استجابوا له مسرعين وحتى تكاثروا حوله ، وإذا هو يعدهم ويمنيهم ، ويمنحهم الحرية ، ويحلف لهم جهد أيمانه أنه سيملكهم الأرض وسيجعلهم سادة يملكون الرقيق ، بعد أن كانوا رقيقاً يملكهم السادة ، وسيملكهم سادتهم . والرقيق يسمعون له ويخفون به ، ويفنون فى طاعته ، وهو يبر لهم بما وعد ، ويعطيهم ما منّاهم . أليس قد حكمهم ذات يوم فى بعض وكلائهم ومواليهم ، فأباح لهم أن يطرحوا هؤلاء الوكلاء والموالى وأن يضربوهم بالسياط . ثم هو يتخذ من هؤلاء السود قادة ويؤمرهم على الجند ويسوى بينهم وبين البيض الأحرار ، يغير بهم على القرى ويغير بهم على السفن . فاذا أحرزوا ما فى القرى والسفن قسمه بينهم لم يفرق بين عبد وحر ، فقد أصبحوا جميعاً أحراراً ، ولم يفرق بين أسود وأبيض ، فليس لإنسان على إنسان فضل إلا بالطاعة وحسن البلاء .

وكذلك انتشرت الدعوة بين الرقيق ، فتكاثفوا وضخم عددهم ، وقلق السادة فأرسلوا إليه يفاوضونه يخوفونه غدر هؤلاء السود وفرارهم ، ويعرضون عليه خمسة دنانير عن كل واحد منهم ، فلا يحفل بشىء من ذلك ولا يلتفت إليه ، وإنما يمضى فى نشر دعوته وتحرير الرقيق من السود ، وتأليب الأحرار من الفقراء والبائسين ، وإذا هو صاحب جيش ضخم يهتم له السلطان فيرسل إليه الحملة إثر الحملة ، وهو ينتصر على ما يرسل إليه من الجيوش ، وهو يقهر القائد إثر القائد ويهزم الوالى إثر الوالى ، ويزعج أهل البصرة إزعاجاً شديداً بعد أن ألقى فى روعهم أنهم أصبحوا فى متناول يده ، ليس عليه إلا أن يبسطها ليأخذهم متى شاء وكيف شاء . والسلطان المركزى فى بغداد يرسل الوالى إثر الوالى والجيش بعد الجيش فلا يظفر بشىء أو لا يكاد يظفر بشىء ، حتى أخاف صاحب الزنج هذا القسم من العراق ، فأفزع البصرة والابلة والأهواز ونشر الرعب حتى اضطر الناس إلى

الهجرة والهرب . وهو متنقل بجيشه من مكان إلى مكان ، مغير بهذا الجيش على مدينة بعدمدينة ، يغير بنفسه حيناً ، ويرسل أصحابه إلى الغارة حيناً آخر ، حتى إذا استيقن القدرة على اقتحام البصرة دفع إليها أصحابه دفعاً فخربها تخريباً وقتل أهلها تقتيلا منكرا ، واستصفى ما كان عندهم من المال ، واضطر من بقى منهم إلى الفرار ، وأخذ الأسرى من أحرار العرب والعجم من خيار الرجال وكرائم النساء ، فوزعهم على أصحابه رقيقاً بعد أن كانوا سادة ، وعرضهم فى الأسواق للبيع والشراء كما كانوا يعرضون الزنج فى الأسواق للبيع والشراء . وقد جزع الخليفة المعتمد لهذا الأمر جزعاً شديداً ، فكلف أخاه الموفق إدارة هذه الحرب وأعد له جيشاً لم تر بغداد مثله منذ عهد بعيد . وذهب الموفق فلقيت جيوشه صاحب الزنج مرة ومرة ومرة دون أن تبلغ منها شيئاً ، وإنما كانت الهزيمة تدركها فى أكثر الأحيان . واضطر الموفق إلى اعتزال هذه الحرب إما يأساً من الفوز وإما لأن الخلافة كانت فى حاجة إليه لحرب أخرى فى الشرق لم تكن أهون من حرب الزنج شأناً ولا أقل منها خطراً . والمهم أن صاحب الزنج استأثر بالأمر كله فى هذا القطر من أقطار الدولة الاسلامية ، وملأ العراق رعباً وفرقا ونغص الحياة على أهل بغداد ، وسلمت له كور وأقاليم جعل يجبى خراجها وينفق منه على تدبير أمره وتقوية جيشه . وكان هذا القطر من أقطار العراق قد نظم الرى فيه أحسن تنظيم وأكمله ، فجرت فيه الأقنية والأنهار من كل وجه واتخذت فيه هذه الأقنية والأنهار وسائل للرى ووسائل للمواصلات ، ثم اتخذت وسائل للحرب أيضاً فكانت هذه الأقنية والأنهار دروعاً يتقى بها العدو حين تتحارب الجيوش على الأرض ، كما كانت هذه الأنهار والأقنية ميادين للقتال حين تتحارب الجيوش على ظهر الماء ، وقد اتخذت الأساطيل النهرية من صغار السفن وكبارها . وكانت جيوش السلطان وجيوش صاحب الزنج تلتقى وتقتتل ، على ظهر الأرض وعلى وجه الماء .

ولما عظم أمر صاحب الزنج وأصبح خطراً لا على مايليه من الكور والأقاليم فحسب ، بل على عاصمة الخلافة وسلطان الدولة كله ، أعاد المعتمد إلى أخيه تدبير أمر الحرب وأطلق يده فى أموال الدولة يدبرها كما يشاء وينفق منها كما يشاء ، وأطلق يده فى جيوش الدولة أيضاً يوجهها حيث يشاء ويكلفها من الأمر ما يشاء . ونهض الموفق لهذه الحرب مصمماً هذه المرة على ألا يعود حتى

يمحق الفتنة محقاً . وقد أتيح له ما أراد ، ولكن بعد أن بذل أى جهد ، وبعد أن احتمل أى عناء ، وبعد أن أنفق أى مال ، وبعد أن ضحى بعشرات الألوف من الجند وبعد أن عرّض نفسه وابنه وقواده لأى مخاطرة ، يكفى أن تعلم أنه أنفق فى هذه الحملة الأخيرة أعواماً متصلة غير قليلة لم يرح فيها ولم يسترح ، ولم ينفذ فيها أحكامه وأوامره حسب العرف المألوف ، وإنما فرضها دكتاتورية عنيفة شملت أكثر أقطار الخلافة واستغرقت أكثر مرافقها . وينظر الموفق ذات يوم وإذا أخوه أمير المؤمنين قد ضاق بهذه الدكتاتورية ولم يطق صبراً على ماتفرض عليه وعلى جنده من الضيق ، وإذا هو يظن بأخيه الظنون ، وإذا هو يخرج ذات يوم من بغداد قاصداً إلى الغرب ، يريد أن يأوى إلى مصر ليعيش فى ظل ابن طولون مغاضباً لأخيه . ولكن الموفق كان أحزم من ذلك وأمضى رأياً وأوسع حيلة ، فيأمر بعض قواده فى الأقاليم أن يتلقى الخليفة ووزراءه وقادته ، وأن يقبض عليهم ويردهم إلى بغداد كارهين إن لم يعودوا إليها راضين . والقائد يطيع أمر مولاه ، ويرد أمير المؤمنين وأصحابه إلى العاصمة . وقد ضبط الموفق الأمر وأحكمه فى الأقاليم التى كانت خاضعة لسلطان الخلافة ، ومضى فى الحرب لا يعرف هوادة ولا رفقاً ولا ليناً ، يقدم ابنه أبا العباس بين يديه وينتظر منه أن يخاطر بنفسه ليخاطر القواد بأنفسهم وليخاطر الجنود بأنفسهم أيضاً ، أليس هو يخاطر بنفسه كلما سنحت الفرصة !

وكان أمر صاحب الزنج قد بلغ من العلو والارتفاع أن اتخذ لنفسه ولقواده المدن الجديدة ، ينشئها إنشاء ، ويحصنها تحصيناً هائلا ؛ فهو يقيم فى المدينة المختارة ، وقائد آخر يقيم فى المدينة المنيعة ، وقائد ثالث يقيم فى المدينة المنصورة . وقد ملئت الأرض من حول هذه المدن بالجند وأداة الحرب ، وملئت الأنهار والأقنية بالسفن ، فينشىء الموفق لنفسه مدينة يتخذها عدة للحرب يسميها الموفقية ، ويجمع فيها كل ما يجتمع فى العواصم الكبيرة من المرافق والصناعات التى يحتاج الناس إليها فى السلم والحرب . وما يزال جيوش صاحب الزنج الأشهر والأشهر ، ثم العام بعد العام ، حتى يضطرها إلى أن تترك خطة الهجوم وتلتزم خطة الدفاع فى مدنها وحصونها . ثم ما يزال بهذه المدن والحصون حتى يستخلصها مدينة مدينة وحصناً حصناً ، وحتى يضطر الفلول المنهزمة إلى المدينة المختارة حيث يقيم صاحب الزنج ، وإذا الناس

يكثرون فى هذه المدينة حتى تضيق بهم ، وحتى تقصر مرافقها عن إرضاء حاجاتهم . ولكن الموفق يتقدم حتى يضرب حولها الحصار ، ويقطع عنها الميرة . وهنا يظهر الموفق من النبوغ والامتياز ما لم يكن يمكن أن يظهره كراسوس فى حرب سبارتا كوس . فقوة الموفق هائلة لا تقهر ، وهو قادر على أن يأخذ المدينة بالحصار ، يضيق عليها حتى يُلقى أهلها بأيديهم ، وهو قادر على أن يقتحم المدينة وإن كلفه ذلك خسائر هائلة . ولكنه يبدأ فيعرض الأمان على صاحب الزنج ، فإذا رفض التسليم مضى فى حرب غريبة حقًّا ، فحارب بالرهبة التى لا تعدلها رهبة ، وبالرغبة التى لا تشبهها رغبة ؛ فهو يبذل الأمان والعفو والخلع السنية لمن شاء من قواد صاحب الزنج وجنوده لا يبخل من ذلك بشىء . فإذا استأمن إليه بعض الناس تلقاه فعفا عنه وأحسن إليه وخلع عليه وكرمه أجمل التكريم ، ثم عرضه فى سفينة من السفن فى هيئته الجديدة ليراه المشرفون من السور فيطمعوا فى مثل ما أتيح له من النعيم . وما أكثر ما كان هذا المنظر يطمع ويغرى ! وما أكثر ما كان قواد صاحب الزنج يتأثرون بهذا الإطماع والاغراء ، ويستأمنون للموفق ويصبحون له على قائدهم ورئيسهم ظهيرا !

وإذا أخذ أصحاب الموفق بعض الأسرى وأبوا أن يستأمنوا ضرب أعناقهم ، ثم يجمع رءوسهم إلى رءوس الذين يقتلون فى الموقعة ، ثم ينصب هذه الرءوس على السفن ليراها المشرفون من السور فتمتلىء قلوبهم فزعاً وروعاً . وقد يقتل القائد الوجيه فيحتز رأسه ثم يرمى به من وراء السور ، ومعه المنشور من منشورات الموفق قد ملأه الترغيب والترهيب . وكذلك أخاف الموفق كثيراً من الناس ، وأطمع كثيراً من الناس ، واجتذب إلى نفسه كثيراً من الناس ، حتى إذا آن له وقت الهجوم أمر بهدم الأسوار واقتحام المدينة وتهديم الحصون حصناً حصناً ، والدور داراً داراً ، وجدّ فى ذلك حتى بلغ منه ما أراد بعد مشقة شاقة وجهد عنيف .

كل ذلك وعبد الله بن محمد صاحب الزنج يقاوم كأحسن ما تكون المقاومة ، ويدافع كأعنف ما يكون الدفاع ، لاتفل عزمه خيانة الصديق ولا يثبط همه قتل الأنصار ، وإنما هو يقاوم فى مدينته ما وسعته المقاومة ، ثم يقاوم فى داره حتى تقتحم عليه ، ثم يقاوم فى كل شبر من الأرض حتى يتفرق عنه أنصاره ، منهم من

قتل ومنهم من أخـذ ومنهم من لاذ بالفرار ، وهو قائم يدافع لا يتزحزح عن مكان إلا ليثبت فى مكان آخر ، حتى إذا أحيط به لم يستسلم ولم يلق السلاح ، وإنما قاتل حتى قتل ، وحتى احتز رأسه وحمل إلى الموفق . وقد ثبت معه جماعة من قواده دافعوا كما دافع ، وأبلوا كما أبلى ، قتل بعضهم فى الميدان ، وأخذ بعضهم إلى بغداد ، فقتلوا وصلبوا على شاطئ النهر .

وظن الناس أن ثورة الزنج قد انتهت . ولـكنها أعوام تمضى ، وإذا ثورة أخرى تظهر فى العراق فتملأ الأرض هولاً ، لا فى العراق وحده ولـكن فى جزيرة العرب وفى الشـام ، وقد تصل أطراف منها إلى مصر . كانت البصرة ضحية ثورة الزنج ، ثم صارت الـكوفة ضحية ثورة القرامطة . ألم يكن هناك سبب بين هاتين الثورتين؟ بلى قد كان هناك سبب أى . سبب طابعهما واحد ، هو الخروج على النظام السياسى والاجتماعى والانتساب إلى آل على ، وغايتهما واحدة هى تحقيق العدل فى الأرض بعد أن أفسدها الظلم والجور ، ونتيجتهما واحدة هى هذا الروع الذى ملأ القلوب وهذا الهول الذى سفك الدماء وأزهق النفوس ودمر الأمصار وهذا الجهد الضائع الذى لم يُزِلْ ظلماً إلا ليقيم مكانه ظلماً آخر ، والذى يحاول أن ينصف الناس فلا يبلغ من الإنصاف شيئاً . أكتب على الانسانية إذن أن تكون الجهود التى تبذلها فى سبيل الإصلاح مضيعة ، وأن يصبح الذين يحاولون إزالة الظلم وإقرار العدل أنصاراً للظلم وأعـداء للعدل ؟ كانوا يريدون أن ينقذوا أنفسهم وينقذوا الناس من ظلم الظالمين ، فلم يكتفوا بالإنقاذ ، وإنما جزوا السادة ظلماً بظلم ، فـكان هذا أول الشر ، ثم تجاوزوا ظلم الظالمين من الأعداء إلى ظلم الأنصار والأتباع ، فأصبحت الحرية استبداداً ، وأصبحت المساواة استئثاراً ، وأصبح الإنصاف بغياً وعدواناً . ومضت كلمة القضاء فى الناس : سعىٌ متصل إلى المثل العليا ، وعجز متصل عن تحقيق هذه المثل أو الوصول إليها ، وظلم متصل فى أثناء ذلك للظالمين وغير الظالمين .

وقد أظهرت ثورة سبارتاكوس رجلين اثنين هما قائد الثورة وقامعها . أما ثورة الزنج فقد أظهرت رجالا كثيرين لا أستطيع بالطبع أن أتحدث عنهم ، وإنما ألاحظ مسرعاً أنهـا أظهرت رجلين اثنين من رجال الدولة المحافظين على النظام ، وأظهرت طائفة من الناس كلهم ممتاز خليق أن يحفظ التاريخ اسمه من ناحية الثورة . فلم ينهض بالثورة عبد الله بن محمد وحده ، ولم يعتمد فيها على الزنج

وحدهم ، وإنما نهض معه قوم من أصحابه كانوا فى مثل سنه ، منهم من خرج من غمار الناس لم تكن له سابقة ولا لأسرته ذكر ، كهذا البحرانى الذى كان كيالا فى وطنه قبل أن تتصل أسبابه بصاحب الزنج ، فأصبح بعد ذلك قائداً مجرباً ، وسياسيًّا لبقاً ، ومدبراً داهية . ومنهم من كان من أهل البيوتات ، ومن الأسر الأرستقراطية العريقة ، كعلى بن أبان المهابى ، هذا الذى ينتسب إلى قامع ثورة الخوارج أيام بنى أمية والذى أصبح خارجيا مع صاحب الزنج ، والذى أظهر براعة فى الحرب ودهاء فى السياسة وصبراً على المكروه لا يشبهه فيها إلا أبو العباس بن الموفق . ومنهم آخرون جاء بعضهم من عرض الطريق فكشفت الأحداث منهم عن رجال أفذاذ حقًّا ليسوا أقل استعداداً للنهوض بجلائل الأعمال وعظائم الأمور من هذه الأرستقراطية التى احتكرت شؤون الحكم احتكاراً . فاذا دل هذا كله على شىء فإنما يدل أولا على أن روح المغامرة قد كان شائعاً منتشراً فى جميع الطبقات ، وعلى أن انتشار الثقافة قد فتح للناس وللمغامرين منهم خاصة أبوابا لم تكن تفتح لهم من قبل ، وأشعرهم بأن ما يفرض عليهم من نظم الحكم تلك التى اشتملت على الفساد ، وما يفرض عليهم من نظم الاجتماع تلك التى قامت على الظلم والجـور ، كل هذا خليق أن يغير ، فحاولوا تغييره ما وجدوا إلى ذلك سبيلا . نجحوا أول الأمر هنا وهناك ، ثم أدركهم الإخفاق فى كل مكان ؛ لأن تقدم العقل لم يكن قد بلغ طوره الذى يمكنه من أن يسيطر على الإرادة والغريزة . وأظنك توافقنى على أن تقدم العقل لم يبلغ هذا الطور إلى الآن . فما أكثر الثورات التى قامت فى العصر الحديث لتغير النظم السياسية والاجتماعية وترد الناس إلى العدل والمساواة ، فلم تبلغ من ذلك إلا أقله ، وما زال أكثره أملا يرقب ولا يتاح الوصول إليه !

ولنقف وقفة قصيرة جدًّا عند قائد ثورة الزنج عبد الله بن محمد ، وقامع هذه الثورة أبى أحمد الموفق بن المتوكل . فأما أولهما فقد كان رجلا من غمار الناس حقا ، زعم المؤرخون أنه انتسب إلى آل على ولم يكن منهم فى شىء ، وأنه تردد فى سلسلة نسبه إلى زيد بن على بن الحسين ، وزعم المؤرخون أيضاً أن نسبه فى عبد القيس . وجائز أن يكون نسبه فى عبد القيس ، وجائز أيضاً ألا يكون له نسب فى قبيلة من قبائل العرب . وأكبر الظن أنه لم يكن يحفل بشىء من ذلك فيما بينه وبين نفسه وفيما بينه وبين أصحابه ، وإنما كان يتكلف بعض ذلك ليستهوى قلوب

العامة ويجمعهم حوله . فقد كانت العامة فى العراق وبلاد العرب وأجزاء من بلاد الفرس مؤمنة بأن تغيير النظم السياسية إن قدّر له أن يكون فلن يقع إلا على يد علوية تتصل بأهل البيت .

والشيء المحقق هو أن عبد الله بن محمد قد كان رجل حزم وجلد كما كان رجل طمع وطموح . كل شيء فى سيرته يدل على صلابة الرأى ومضاء العزم والثبات على المبدأ ، والشجاعة التى لا تعرف ضعفاً ولا فتوراً ، والمرونة التى لا تعرف تردداً ولا حيرة أمام المشكلات . وقد يضيف المؤرخون إليه سيئات كثيرة منكرة . وأكبر الظن أنه قد اقترف كثيراً من هذه السيئات ، فأسرف فى القتل والتدمير ، وأنهب أصحابه الأموال ، ورد الأحرار إلى الرق كما رد الرقيق إلى الحرية ، ولكن كثيراً من سيئاته هذه لا ينبغى أن يحمل عليه وحده ، وإنما ينبغى أن يحمل على عصره وعلى الذين كانوا يعيشون فى ذلك العصر ، سواء منهم من حافظ على النظام القديم ومن أراد تغييره . وكل ثورة خطيرة على النظم السياسية والاجتماعية تستتبع ألواناً من الهول لا يسيغها الخلق ولا يقرها العقل ولا يرضاها الدين ، ولكنها تقع مع ذلك لأن الغريزة هى التى تدفع إليها ، ولأن الغريزة هى التى تثور . وإذا ثارت ، فقلّ أن تعرف لنفسها حدًّا تنتهى إليه . والناس يعرفون أهوال الثورة الفرنسية كما يعرفون أهوال الثورة الشيوعية ، والناس لا يكرهون الثورة عبثاً ، وإنما يكرهونها لما تدفع إليه من هول وما تورط فيه من إثم وما يقترف الناس فيها من المنكرات . ومع ذلك فقد يخطئ المؤرخون ، وينسون أنهم يكتبون عن عدو الله الخبيث اللعين صاحب الزنج . قد يخطىء المؤرخون وقد ينسون هذا كله ، فيذكرون أموراً تدل على الصدق والرفق ، ولا تصدر عن خائن خبيث يتعمد الشر ويتخذ الشيطان له إماما . فهو يأبى مثلا أن يأذن بالإغارة على قرية لأن رجلا من أهلها قتل رجلا من أصحابه ، يريد قبل الايقاع بهذه القرية أن يتبين ويتثبت لعل أهل القرية أبرياء لم يعينوا صاحبهم ولم يشاركوا فى إثمه . وهو يلقى بعض أهل القرى وقد أقبلوا يعرضون عليه أموالهم لينصرف عنهم ، فيجزيهم خيراً ويترك لهم أموالهم ولا يلقاهم بكيد . وهو يحس أن الزنج يشفقون من أن يتركهم أو يسلمهم لكثرة ما كان يوجه إليه من إغراء ، فيجمعهم ويؤمنهم ويطلب إليهم أن يحيطوه بجماعة منهم ترقب سيرته ، فان رأت منه انحرافاً عن العهد أو ميلا

إلى الاغراء، فتكت به . وهو يوفى عهده ، ويثبت على مبدئه ، فلا يستأمن حين يعرض عليه الأمان ، ولا يستسلم حين يستيئس من الفوز ، ولا يحاول أن ينجو بنفسه بعد أن فقد الأمل ، وإنما يقاتل حتى يقتل . أما خصمه أبو أحمد فلم يكن كما رأيت من عامة الناس ، وإنما هو من سلالة الخلفاء ، أبوه المتوكل بن الرشيد . وقد كانت سلالة الخلفاء من حوله قد أدركها الضعف ، وانتشر فيها الخمول ، وأترفت حتى تحكمت فيها اللذة ، ثم تحكم فيهـا الرقيق من الخدم فى القصور والجند خارج القصور . فظهور أبى أحمد فى هذه البيئة المترفة التى أفسدها الترف حتى غُـلِبت على أمرها ، وتفوقه هذا الرائع فى إدارة السياسة والاقتصاد والحرب ، كل ذلك آية على أنه قد كان رجلا نابغة كأكمل ما يكون الرجل النابغة . وقد نظلمه أقبح الظلم إذا وازنا بينه وبين كراسوس قامع الثورة الايطالية . قد كان أبو أحمد مناقضاً لهذا الرومانى المترف العاجز الذى أفسده الثراء ، فلم يبق له شجاعة ولا خلقاً ولا ديناً كل المناقضة : كان أبو أحمد أشجع بنى العباس فى عصره ، وأشجع من كان يعـمل لبنى العباس من قادة الترك والموالى عامة ، وكان يملك الشجاعة بأروع معانيها وأرفعها . فهو قوى على نفسه ، ثم قوى على أهله وذوى قرابته قبـل أن يكون قوياً على غيره من الناس ، يخاطر بنفسه فى المواقع ، ويحمد من ابنه مخاطرته بنفسه فى المواقع . فاذا أحس من أخيه أمير المؤمنين تردداً أو ضعفاً أو اضطراباً ، أخذه بالحزم ورده إلى القصد ، وأكرهه على الاعتدال . وإذا رأى من ابنه نفسه بعد الفوز إسرافا فى الجموح أو الطموح ، قسا عليه أشد القسوة ، وألقاه فى غيابات السجن ، لم يحفل بحبه له وعطفه عليه . والناس يثورون غضباً للأمير الشاب ، ولـكن أبا أحمد يلقى الثائرين ويردهم إلى الهدوء ويسألهم : أترون أنكم أحب له وأحدب عليه من أبيه . وأبو أحمد لا يعرف الهدوء ولا الاستقرار . كانت شؤون الدولة مضطربة أشد الاضطراب ، فكان مضطرباً مثلها ، يدافع الشر حيث ينجم الشر ، يحاول أن يقهر ابن طولون فى الغرب ، ويقمع الثورة فى العراق كما يقمعها فى شرق الدولة ، ينهض لذلك بنفسه ، لا يريح ولا يستريح حتى حين يثقل عليه المرض وحين يعجز عن الحركة ، ويضطر إلى لزوم الفراش ؛ فهو يدبر الأمر من سريره ، ثم يعاد إلى بغداد ، وقد عجز عن الركوب ، فيحمل فى سرير يتناوب نقله أربعون رجلا . وهو يحس أن حامليه يشقون بحمله فيقول لهم فى

بعض الطريق : وددت لو أنى كنت واحداً منكم ، أسعى كما تسعون ، وأشقى كما تشقون ، ولا ألقى من الألم والعجز ما ألقى . ولكنه على ألمه وعجزه ، يدبر أمور الدولة إلى آخر لحظة من لحظات حياته ، ويفرضها دكتاتورية حازمة لا يعفى من سلطانها ابنه ولا أخاه .

أليس يرى كتّابنا وشعراؤنا أن فى أحداث التاريخ العربى القديم ما يستطيع أن يلهمهم حين يكتبون النثر أو ينظمون الشعر ؟ أليس يرى كتابنا وشعراؤنا أن من حق هذه الأحداث عليهم أن ينظروا فيها بين حين وحين ، كما ينظرون إلى أحداث أخرى وإلى ألوان أخرى من التاريخ ؟

طه حسين

مشكلة فرنسا فى إفريقية الشمالية

يحق لفرنسا أن تباهى بممتلكاتها فى شمال إفريقية ، فهى منها على مسافة قريبة لا يفصلها عنها سوى مياه البحر المتوسط الذى تلاطم أمواجه سواحل فرنسا الجنوبية كما تلامس سواحل إفريقية الشمالية ، ولا تزيد المسافة بين تولون قاعدة فرنسا البحرية فى الجنوب وبين بونة إحدى قواعد بلاد الجزائر على أربعمائة ميل أو أكثر قليلا يقطعها المسافر على متن الجو أو البحر فى ساعات قليلة . وتمتد ممتلكات فرنسا هذه على ساحل البحر المتوسط من تونس شرقا إلى ساحل المحيط الأطلسى غربا ، ومن وراء ذلك داخل الصحراء الكبرى إلى بحيرة تشاد جنوبا. ولا يقل عدد سكان هذه الأقاليم عن عشرين مليونا من الأنفس . هذا عدا ما لفرنسا من مصالح مادية وثقافية فى بلاد المشرق ومصر ، وما لها من الزعامة بين الطوائف الكاثوليكية فى جميع هذه الأرجاء

ولذلك كان اعتزاز فرنسا بأملاكها وملحقاتها فى شمال إفريقية عظيما ، وكان تصميمها على الاحتفاظ بسلطانها لا يقبل طعناً أو نقضاً مهما اختلفت الحكومات فى فرنسا وتنوعت نظم الحكم فيها . ففى عهد الملكية أرسلت حكومة شارل العاشر سنة ١٨٣٠ حملتها الحربية لاحتلال الجزائر ، وفى عهد الإمبراطورية الثانية توطد سلطان فرنسا فى الجزائر واستطاعت أن تقضى على الحركة الوطنية التى قامت بزعامة الأمير عبد القادر لمناوءة الحكم الفرنسى .

وفى عهد الجمهورية الثالثة أعلنت الحماية على تونس سنة ١٨٨١ ومنها زحفت فرنسا غربا إلى مراكش فى أوائل القرن العشرين .

وها هى ذى فرنسا فى عهد الجمهورية الرابعة تولى إفريقية الشمالية من الاهتمام ما هو خليق بالأرض الطيبة التى فتحت أبوابها لإيواء الفرنسيين

الأحرار حين احتل الألمان فرنسا وضيقوا عليهم الخناق فى أوربا ، فاستقبلت إفريقية الشمالية جمعية التحرير الوطنى الفرنسية وأكرمت وفادتها وأضافتها حتى تم تحرير فرنسا نهائيا .

ومع أن هذه الإمبراطورية الواسعة قد نشأت واتسعت وازدهرت تحت سمع دول أوربا وبصرها فان الدول لم تتحرك بصفة جدية طوال القرن الماضى لمناهضة فرنسا أو مقاسمتها ذلك الغنم الكبير . أما انجلترا فكانت قد تحالفت مع فرنسا منذ سنة ١٩٠٤ ، وخلا لها الميدان للعمل فى مصر والسودان . وأما إيطاليا فقد رضيت بنصيبها فى طرابلس وبرقة . وأما روسيا فكانت تتمخض عن ثورتها البلشفية الكبرى فلم تكن تتطلع إلى مد نفوذها ، ولم تنشأ لها مطامع فى البحر المتوسط إلا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية . وكانت فرنسا على اتفاق مع أسبانيا كما كانت على اتفاق مع انجلترا . وبمقتضى هذا الاتفاق أصبح لأسبانيا منطقة صغيرة فى الشمال الغربى ، وظلت طنجة ميناء دوليا حتى لا يتحرج مركز بريطانيا فى جبل طارق .

أما ألمانيا فقد حاولت بمختلف الطرق أن تضع قدمها على ساحل إفريقية الشمالية ، ولكن المحالفة الانجليزية الفرنسية كانت كفيلة بردها عما تحاول . ففى سنة ١٩٠٥ زار وليم الثانى إمبراطور ألمانيا طنجة ليبرهن للعالم أن سلطان مراكش لا يزال ملكا مستقلا حقيقاً بزيارة إمبراطور ألمانيا ، وأن انجلترا وفرنسا لا تستطيعان أن تفرضا إرادتهما على العالم فى غيبة ألمانيا . ولكن هذه المناورة لم تُجْدِ نفعاً ، ولم يكن لها أثر سوى دعوة الدول إلى مؤتمر عقد فى الجزيرة أحد موانئ أسبانيا الجنوبية ، وفيه تقررت سياسة الباب المفتوح فى مراكش مع المساواة الاقتصادية لجميع الدول . وفى سنة ١٩١١ دخلت القوات الفرنسية مدينة فاس ، فتحركت ألمانيا للمرة الثانية وأرسلت إحدى سفنها الحربية لاحتلال ميناء أغادير على ساحل الأطلنطى ، وكادت الحرب تنشب بين فرنسا وألمانيا لو لم تعلن الحكومة الانجليزية تصميمها على الوقوف إلى جانب فرنسا ومنع ألمانيا من النزول بأية بقعة من شمال غربى إفريقية . فهدأت الحال قليلاً وسارعت فرنسا إلى استرضاء ألمانيا بالنزول لها عن جزء من أملاكها فى إقليم الكنغو الفرنسى مقابل اعترافها بمركز فرنسا الخاص فى مراكش . ثم نشبت الحرب العالمية الأولى وانتصر الحلفاء ، فخسرت ألمانيا

جميع مستعمراتها وخرجت نهائيا من ميدان المنافسة الاستعمارية تاركة فرنسا تتمتع بأكبر نفوذ استعمارى فى حوض البحر المتوسط جنوبيه وشرقيه .

وقد سارت فرنسا فى سياستها الاستعمارية فى شمال إفريقية وفق خطة منظمة صريحة ، أساسها أن يبقى الحكم مركزاً بيد الحكومة الفرنسية ، وأن تهيأ المستعمرات أولاً وأخيراً لخدمة فرنسا بالذات . فمن الوجهة الاقتصادية يجب أن يكون معظم صادراتها ووارداتها لمصلحة فرنسا . فكانت فرنسا تشترى قبل الحرب من مجموع صادرات كل من الجزائر وتونس ومراكش ما يعادل ٨٤٫٠ ٪ و٥٦٫٠ ٪ و٤٥٫٠ ٪ على التوالى ، وتبيع إلى تلك البلاد من مجموع الواردات مايوازى ٧٥٫٠ ٪ و٦٢٫٠ ٪ و٣٥٫٠ ٪ . وكان يهم فرنسا من الوجهة الحربية وهى تعانى اطراد النقص فى مواليدها أن تلتمس العوض من ذلك بتجنيد رجال المستعمرات دون أى تفرقة بين الفرنسى أو الأوربى أو الوطنى ؛ وبذلك استطاعت فرنسا أن تحتفظ بمكانتها كدولة كبرى أمام منافساتها من الدول التى تباهى بكثرة سكانها ووفرة مواردها .

وفى مقابل ما تجنيه فرنسا من مستعمراتها من خير ، وما تستخدم من رجال كان مذهب الحكومة الفرنسية فى خارج بلادها ، كما كان شأنها فى الداخل ، أن تنشر المبادئ الإنسانية الكبرى التى ورثتها عن الثورة الفرنسية بشأن حقوق الإنسان . فهناك كما فى فرنسا أعلنت الإخاء والمساواة بين الجميع ، ولكنها حرصت على أن تحتفظ بالمبدأ الثالث مبدأ الحرية السياسية للمواطنين الفرنسيين دون غيرهم . وليس فى برنامج السياسة الفرنسية الاستعمارية ، كما يكون أحياناً فى السياسة الانجليزية ، مكان ملحوظ لتهيئة الوطنيين لحكم أنفسهم وتقرير مصايرهم . كما أنه لم يكن لظهور مبدأ الانتداب فى ميثاق عصبة الأمم بدلا من نظام الاستعمار القديم أى أثر فى طريقة حكم فرنسا لمستعمراتها فى شمال إفريقية أو فى المشرق حيث كانت فرنسا منتدبة . لذلك كانت الحكومات الفرنسية تتعثر وترتبك وتخطئ وتمعن فى الخطأ كلما ثار بعض هذه الشعوب على الحكم الفرنسى ، وقاموا يطالبون بالاستقلال أو الحكم الذاتى . وكانت فرنسا — ولا تزال — تقابل مثل هذه الحركات بمنتهى القسوة واعنف وسائل القمع . ذلك لأنها تعتقد مخلصة عن خطأ أو عن صواب أنها مبعوثة المدنية والثقافة الأوربية إلى هذه الشعوب ، وأنها على

خلاف دول أوربا جميعاً تؤمن بمبادئ المساواة والإخاء وتطبقها دون تمييز بين الأجناس والألوان أو العقائد ، وأن غايتها العليا من حكمها إنما هى « فَرْنَسة » هذه الشعوب كما كانت تفعل روما قديماً ، ومنحهم جميعاً نفس الحقوق التى يتمتع بها الفرنسى فى بلاده . ويا له من أمل تطاول إليه الأعناق وتبذل فى سبيله المهج والأرواح !

وما دمنا قد ذكرنا موضوع « الفَرْنَسة » وهى سياسة الادماج التى يعبر عنها بالفرنسية والانجليزية بكلمة assimilation ، فيجدر بنا أن نفرق بين السياسة التى تتبعها فرنسا فى بلاد الجزائر والسياسة التى تتبعها فى مراكش وتونس . ففى هذين البلدين لا يزال عهد الفرنسيين حديثاً ولا تزال السلطة الشرعية فى البلاد قائمة ، وما برح ولى الأمر الشرعى يصدر المراسيم ويعين الوزراء ، ولكن كل هذا لا يتم إلا بمشورة المقيم الفرنسى ؛ إذ هو وحده المسئول أمام الحكومة الفرنسية رأساً عن حكومة البلاد وأمنها . ويساعد المقيم الفرنسى طائفة من الموظفين وقوات حربية كافية لحراسة البلاد وحفظ النظام بها .

أما فى الجزائر — وهى الموضوع الأصيل لهذا الحديث — فإن عهد الفرنسيين فيها يرجع إلى أكثر من مائة وخمسة عشر عاما . وتعتبر البلاد — ماعدا إقليم الصحارى — فى حقيقة الأمر جزءا من فرنسا ، حتى إنها تتبع فى إدارتها وزارة الداخلية الفرنسية بدلا من وزارة المستعمرات أو وزارة الخارجية . وهى مقسمة إلى دوائر انتخابية ، وكان لها ثلاثة شيوخ وعشرة نواب يمثلونها فى البرلمان الفرنسى . ويحكمها حاكم عام يساعده مجلسان استشاريان .

وفى بلاد الجزائر بصفة خاصة اتبعت فرنسا سياسة « الفرنسة » أو الإدماج . وتقضى هذه السياسة بأن ينشأ الأهالى على اختلاف أجناسهم وألوانهم على النظم الفرنسية فى التربية والتعليم والمعاملات ، وأن يطبق القانون الفرنسى عليهم جميعا على السواء ؛ فليس ثمة مانع من أن يتجنس البربر والعرب واليهود بالجنسية الفرنسية فيخدموا فى الجيش والأسطول ، ويعينوا فى الوظائف الحربية والمدنية ، ويشتركوا فى جميع الحقوق التى يتمتع بها المواطن الفرنسى ، ومن ذلك حق التصويت والانتخاب للبرلمان الفرنسى . ولم يستعص على هذه السياسة إلا المسلمون ؛ فقد عجز نظام « الفرنسة » أو الإدماج عن هضمهم أو تمثيلهم فى الوطن الفرنسى .

ونشأت عن ذلك مشكلة سياسية ذات خطر عظيم . ذلك أن المسلمين فى الجزائر يؤلفون الكثرة العظمى ، فلو سمح لهم بالتمتع بالحقوق السياسية كغيرهم من المواطنين الفرنسيين لأصبحت لهم الغلبة فى الانتخابات واكتسحوا الدوائر البرلمانية كلها أو جلها ؛ فسكان الجزائر يبلغون الآن نحو ثمانية ملايين من الأنفس منهم مليون واحد من المواطنين الفرنسيين أو المتفرنسين .

وإنما نشأت هذه المشكلة لأن الحكومة الفرنسية — وهى أول حكومة علمانية فى أوربا ليس للدولة فيها دين رسمى — قد تعهدت حين دخولها الجزائر بأن تترك لأهالى البلاد المسلمين حرية العبادة، وألا تتدخل فى شؤونهم الدينية . ولما كانت المعاملات بين المسلمين تجرى وفق الشريعة السمحة ، وفيها من القواعد والنصوص الشرعية ما يناقض القانون الفرنسى العام . وخاصة فى شؤون الميراث والزواج والطلاق ، فقد تعذر على أولى الأمر أن يخولوا المسلمين جميع حقوق المواطنين الفرنسيين ما داموا لا يخضعون للقانون الفرنسى فى مسائل تعتبرها الحكومة الفرنسية ذات أهمية بالغة . وترتب على ذلك أن سياسة «الفرنسة» أو الإدماج التى اتبعتها الحكومة فى الجزائر قد شملت كل شىء تقريبا ما عدا تمتع جميع الوطنيين المسلمين بالحقوق السياسية التى لغيرهم .

وبدأت الحكومة تعالج هذه المشكلة، فأصدرت فى سنة ١٨٦٥ قانونا يبيح لكل وطنى مسلم أن يتمتع بحقوق المواطن الفرنسى إذا تقدم بطلب ذلك ، وفى هذه الحالة يصبح خاضعا للقانون المدنى الفرنسى فى جميع أحكامه . ومعنى ذلك أن الوطنى إذا أراد أن يباشر حقوقه السياسية فعليه أن ينزل عن القواعد والحقوق التى جاء بها الإسلام وجرى بها الشرع والعرف بين المسلمين فى جميع الأنحاء على اختلاف العصور . لذلك لم يكن غريباً أن يؤثر المسلمون دينهم على أن يصيبوا من الحقوق السياسية شيئا لا يغنى عن عذاب الآخرة فتيلا .

ثم حاولت الحكومة الفرنسية إصلاح هذا القانون فى سنة ١٩١٩ فاشترطت للتمتع بحق المواطن الفرنسى أن يكون الوطنى عزَبا أو متزوجا من واحدة فقط كما اشترطت ألا تقل سنه عن ٢٥ سنة ، وأن يكون قد أدى الخدمة العسكرية فى الجيش ، أو يكون ملما بالقراءة والكتابة باللغة الفرنسية ، أو موظفا عاملا فى الحكومة أو بالمعاش . ولكن هذه الشروط أيضاً لم تغر الوطنيين على طلب التمتع بحقوق المواطن الفرنسى ، ولم يكن مما يشرف الوطنى أن يخالف قومه وعشيرته

فيطلب لنفسه مزايا قد تحط من قدره وتعرضه للوم والسخط فى نظر مواطنيه .

ولما تعذر على فرنسا تطبيق مبدأ « الفرنسةِ » بحذافيره اضطرت أمام ضخامة المشروع وعظم خطره أن تعمد إلى سياسة أخرى أقل عمقا من سياسة الإدماج وهى سياسة المشاركة association . ولا تتطلب هذه السياسة أن يتزل الوطنى المسلم عن قانون أحواله الشخصية لكى يصبح مواطنا فرنسيا ، بل تركت له أن يجمع بين الميزتين . وقد أملت فرنسا بهذا النظام أن تجتذب الصفوة الممتازة من الأهالى فتحملهم على «التفرنس» ، وتترك سواد الشعب يتقدم على مهل ، مع العمل على تعميم اللغة الفرنسية وتحسين مستوى الشعب الاجتماعى بقدر ما تسمح به الظروف .

ووجه الخطر من سياسة المشاركة هذه أنها سبيل إلى التفرقة بين أبناء الشعب الواحد وانقسامه ؛ فتظهر فيه أقلية ضئيلة تتمتع بمزايا وحقوق ليست ميسرة لسائر الشعب ، ويظل الشعب محروما من قادته وزعمائه ، ومن جهود صفوة أبنائه .

وسواء اتبعت فرنسا فى خطتها الاستعمارية سياسة الإدماج أو المشاركة ، فإن الأمر الذى لاشك فيه أنها لم تستهدف يوماً استقلال الشعوب الخاضعة لها، ولم تأخذ بيدها مخلصة فى هذا الطريق . لذلك كان من المتوقع أن تغرى هزيمة فرنسا أمام ألمانيا فى سنة ١٩٤٠ وتدهور كيانها السياسى شعوب إفريقية الشمالية على الثورة والانتقاض على المستعمرين ولكن هذه الشعوب تمسكت أمام محنة فرنسا بفضيلتى الكرم وضبط النفس ، فأخلدت إلى السكينة والهدوء وظلت موالية لفرنسا حتى انقشعت الغمة وزال الخطر . ويظهر أن كراهة الوطنيين لإيطاليا كانت من أقوى العوامل التى ساعدت على توثيق الروابط بين الوطنيين والمستعمرين ، فتاريخ إيطاليا الفاشية فى ليبيا وما قاساه السنوسيون من التشريد والتعذيب والتقتيل كان يحفظه الوطنيون فى صدورهم ؛ فخافوا أن يبدلوا استعماراً بآخر ، وأن يتخلصوا من فرنسا فيقعوا آخر الأمر بين براثن الطليان .

ولما تألفت حكومة الجنرال ديجول المؤقتة فى سنة ١٩٤٤ رأت أن تكافىء أهل الجزائر على حسن ضيافتهم للفرنسيين الأحرار ، فأصدرت فى مارس ١٩٤٤

قانوناً يمنح الفرنسيين المسلمين فى بلاد الجزائر جميع الحقوق التى يتمتع بها الفرنسيون غير المسلمين دون أى مساس بحق تمتعهم بقانون أحوالهم الشخصية، إلا الذين يعلنون صراحة أنهم يريدون أن يخضعوا فى أحوالهم الشخصية للقانون الفرنسى . أما الحقوق السياسية فقد تركت الحكومة للجمعية التأسيسية أن تنظر فى منحهم جميعاً حق المواطنين الفرنسيين ، وبقى عدد منهم لايزيد على ٣٥٠٠٠٠ قد استوفى شروطاً معينة تخوله التمتع بهذه الحقوق . وظاهر أن هذا القانون يؤكد سياسة المشاركة التى أشرنا إليها .

ويبدو أن الوطنيين فى الجزائر لاترضيهم سياسة الإدماج أو سياسة المشاركة ، فهم كإخوانهم فى تونس ومراكش يريدون أن يكون لهم كيان وطنى مستقل يستعيدون به سابق مجدهم أيام خير الدين بربروس فى غربى البحر المتوسط وفى المحيط الأطلسى وبحر الشمال حين كان رؤساؤهم وقرصانهم يسيطرون على البحار ويلقون الرعب فى قلوب البحارة من جميع الأمم إلا من أدى لهم الفدية أو الجزية . وإنهم ليتغنون حتى اليوم بمواقف بطلهم الوطنى «الريس حميدو» فى القرن التاسع عشر، ويسمرون بقصصه ومفاخره . والوطنيون يعلمون تمام العلم أن سياسة الاستعمار القديمة قد أصبحت بالية غريبة عن روح العصر ، وأنها لاتلائم سياسة الوصاية التى جاء بها ميثاق الأمم المتحدة ، كما أنها لا تتلاءم مع مظاهر النهضة العربية الحديثة التى أدهشت العالم الغربى ، وفرضت عليه الاعتراف بقوتها وحقها فى الاستقلال والحرية . وشعوب شمالى إفريقية تربطهم بالشعوب العربية وشائج نسب وقربى وتجمعهم لغة وديانة وآداب ومشاعر واحدة ؛ لذلك اشتدت الحركة الوطنية ضد الفرنسيين فى الصيف الماضى وخاصة فى قسطنطينة حيث قتل وجرح مئات من الفرنسيين والوطنيين . وقد لجأ الفرنسيون فى قمع الحركة إلى الشدة الحربية المأثورة عنهم . لكن يلوح أن الاتجاه الاشتراكى الجديد للحكومة الفرنسية الذى أوحى إليها أن تتفق مع السوريين واللبنانيين بعد تشدد وعناد ، يؤذن بأن فرنسا ستتجنب العثرات منذ اليوم فى طريقها الاستعمارى . وأمامها المُثُل ظاهرة للعيان ؛ فهناك مجموعة الأمم البريطانية التى تتمتع باستقلال ذاتى لاشك فيه ، وهناك أملاك الولايات المتحدة المستقلة استقلالا ذاتيًّا فى جزر الفلبين وكوبا . وها نحن أولاء نشهد مسلك

بريطانيا تجاه الهند. فإذا كانت فرنسا تصبو حقًا إلى التماسك فما أجدرها أن تعلم بأن التماسك بين الشعوب لا يقوم على الماديات وحدها ! فهناك الترابط المعنوى والأدبى والثقافى الذى يقوم على حسن التفاهم وتبادل الثقة والمنافع ، وهو رباط لا يقل فى قيمته عن الرباط المادى إن لم يفقه ؛ لأن الرباط المعنوى يستتبع الرباط المادى ولا عكس . وليس هناك سبيل إلى توثيق هذا الرباط المعنوى إلا إذا راجعت الدول الكبرى سياسة الاستعمار وقلبتها من أساسها ، واعترفت بادئ ذى بدء بحق الشعوب التى أخضعتها الدول الغربية قهراً وعدواناً وعلى كره منها ، فى أن تحيا الحياة التى ترضاها ، وأن تعيش حرة كريمة على نفسها وعلى أصدقائها .

محمد رفعت

إيتاليا ومؤتمر الصلح

الانكماش بعد التوسع

كان المتوقع أن ينعقد مؤتمر الصلح بباريس فى اليوم الأول من شهر مايو لسنة ١٩٤٦ . ولكن مضاعفات دولية جاءت ترجىء انعقاده إلى الموعد الذى يحدده « وزراء الخارجيات » الذين يجتمعون فى الخامس والعشرين من شهر ابريل ، بل جاءت تنذر بأنه قد لا يعقد بالمدى الذى كان قد أعلن ذهابه إليه ، إذ قد لا يتوافر إجماع الرأى لدى «وزراء الخارجيات» فيؤثر عقد معاهدات منفردة على عقد مؤتمر للصلح عام .

ومهما يكن من أمر الاتجاه الذى ستسفر عنه الملابسات فإن معاهدة الصلح مع إيتاليا هى التى تشغل « الدبلوماسية » العالمية هذه الأيام ، والتخوم الإيتالية هى التى تنال أكبر نصيب من شغل هذه الدبلوماسية .

وقدخرجت الحبشة بالفعل من نطاق الإمبراطورية الرومانية الجديدة التى كان يحلم بها موسولينى ، ولا بد أن ستخرج من السيطرة الإيتالية أرتريا وأن يخرج الصومال أيضاً ، وهما القطران المجاوران اللذان لاتفتأ الحبشة تطالب بهما ، كما تعنى انجلترا بمصيرهما وهما على حدود السودان وبعض مستعمراتها الإفريقية .

وكذلك سيكون شأن جزر الدوديكانيز التى كانت إيتاليا قد استولت عليها سنة ١٩١١ من تركيا وكانت قد احتلتها واحتلت رودس معها على اعتبار أنها وريثة البندقية والمسيحية اللاتينية فى القرون الوسطى . وجزر الدوديكانيز إغريقية تريد اليونان أن تعود إليها ، وإن كان الاتحاد السوفيتى إذ يشعر أنه وريث «الإمبراطورية الشرقية القديمة » — يداعب أمل الاستيلاء عليها أو على بعضها حتى تكون له منها نقطة ارتكاز فيما وراء البوسفور والدردنيل .

ويجىء بعد ذلك دور ليبيا ، وهى التى وجه منها الهجوم على وادى النيل ، واتجهت منها الأنظار إلى ما وراء وادى النيل من الأقطار الآسيوية

الموصلة إلى إيران وإلى الهند . ويصدر عن انجلترا والولايات المتحدة وفرنسا ميل إلى وضعها تحت الوصاية ، على أن تكون هـذه الوصاية من نصيب انجلترا بالنسبة لبرقة، ومن نصيب إيتاليا ذاتها بالنسبة لطرابلس. وتعارض روسيا إرجاع النفوذ الايتالى إلى طرابلس ، وتطالب بأن تكون لها هى الوصاية على ليبيا كلها إذا لم يعلن استقلالها . وتنادى مصر وسائر البلاد العربية بضرورة استفتاء الأهلين فإما إلى استقلال وإما إلى وصاية الجامعة العربية دون سواها .

وهكذا تصفى الممتلكات الايتالية السابقة فى إفريقيا الشرقية وفى إفريقيا الشمالية وفى شرق البحر المتوسط . ويرجع بالبصر إلى إيتاليا الأوربيـة ذاتها فتوضع امامه مسائل ثلاث : تصحيح التخوم طوال جبـال الألب الفرنسية ، وتبعية التيرول ، ومصير ترايستا ، وقد يضاف إليه مصير جزيرة بانتليريا فى قناة صقلية ، وهى الجزيرة الصغيرة التى تتوسط المسافة بين صقلية وتونس والتى كان موسولينى قد جعل منها قاعدة بحرية تصلح لالتجاء النسافات والغواصات كما تصلح حاملة طائرات ثابتة فى ممر إجبارى . وأغلب الظن أن بريتانيا العظمى ستطالب بنزع السلاح عن هذه الجزيرة وإن لم يكن لها أى أثر جدى فى مضايقة حركات البحرية البريتانية خلال الحرب العالمية الثانية .

أما تصحيح التخوم عند جبـال الألب الفرنسية ، فيرجع الأمر فيـه إلى ما تراه النظرية الفرنسية من أن بعض القرى التى اختارت انضمامها إلى فرنسا فى استفتاء سـنة ١٨٦٠ ولـكن ألحقت بإيتاليا تمكيناً لملكها من الاحتفاظ بالمساحات اللازمة لصيده ، يجب أن تعود إلى فرنسا ، ولا تزال رغبة الأهلين فى تلك القرى هى التى أعلنها جدودهم منذ ست وثمانين سنة . وهذا إلى أن بعض المراعى الواقعة فى المنحدر الفرنسى والتى تصلح لغذاء ماشية القرى الفرنسـية القريبة ملحقة بإيتاليا .

ويخص الفرنسيون بالذكر حالة وادى أوست ، وأهله يتكلمون الفرنسية من قرون ، ويحسون بقلوبهم أنهم فرنسيون . وقد أراد موسولينى أن « يُتَلْيِنهم » فـكانت محـاولاته عبثا . لـكن هذا الوادى واقع على المنحدر الإيتالى ، فيجب إرضاء لأهله وتحقيقاً لرغباتهم القومية تصحيح التخوم لإعادتهم إلى فرنسا وإلحاق واديهم بها . ولـكن منطقتهم قريبة من مدينة تورينو التى يتصلون بها اتصالا تجاريا وثيقاً .

وتدعم النظرية الفرنسية اتجاهها بسابقة الألزاس واللورين ، وتدعو إلى استفتاء أهل القرى الواقعة على التخوم الفرنسية الإيتالية ليختاروا مصيرهم بأنفسهم ، كما كان هو الحال بالنسبة للتخوم الفرنسية الألمانية .

وأما مسألة التيرول الجنوبى فأمرها راجع إلى أن الإمبراطورية النمسوية المجرية كان لها إلى الجنــوب من ممر برنر إقليم واسع كانت عاصمته مدينة ترنتى ، وكان أهل قسمه الشمالى من الألمان وأهل قســمه الجنوبى من الإيتاليين ، وقد ضم كله بقسميه إلى إيتاليا سنة ١٩١٨ عند انتهاء الحرب العالمية الأولى ، بحجة أن الحدود الدفاعية كان ينبغى أن تمر ببرنر . وحاولت إيتاليا « تلينة » السكان الألمان ، وكانت النمسا تتكرر احتجاجاتها على هذه المحاولات الإيتالية . فلما تحالف هتلر وموسولينى رضى أولهما أن يترك لثانيهما شأن المتكلمين بالألمانية فى ذلك الإقليم . لــكن النمسا الجديدة التى عادت إلى الوجود بعد الحرب العالمية الثانية قامت تطالب الآن باجراء استفتاء يعرب به الأهلون عن ميولهم ، وقامت إيتاليا الجديدة من جانبها تقترح للقسم النمسوى استقلالا ذاتيا ثقافيا إن لم يكن إداريا فى دائرة الدولة الإيتالية .

وتبقى المسألة الثالثة مسألة تريستا ، وهى المسألة الشائكة حقًّا التى يخشى بعض المتطيرين أن يندلع منها لهب حرب أوربية أو عالمية ثالثة .

وكانت تريستا قبل الحرب العــالمية الأولى عاصمة إقليم استريا النمسوى الذى كانت تتبعه ميناء بولا الحربية . وكانت فيومى إلى الجنوب الشرقى مدينة إيتالية اللغة ولــكنها ميناء مجرية ، كما كان إقليم دالماسيا إلى الجنوب أيضاً . وكانت إيتاليا تطالب باقليمى استريا و دالماسيا على اعتبار أنهما كانا فيما مضى من أقاليم جمهورية البندقية وإن كانا آهلين من قديم بالصقالبة ، إذا استثنيت موانئ تريستا وفيومى وزارا الآهلة بالإيتاليين .

وقد عرض مؤتمر ڤرساى للنزاع وقضى فيه بالحاق تريستا وإقليم استريا بايتاليا ودلماسيا وزارا بيوجوسلافيا ، واحتفظ بحل آخر لفيومى التى قصد إليها دانونزيو برجاله واقتطعها اقتطاعا . وظلت الحال على هذا المنوال إلى أن سقطت إيتاليا بسقوط موسولينى ، فهب صقالبة إقليم استريا وطردوا الشرطة الإيتالية وأعلنوا فيه حكمهم ، وجاء الانجليز والأمريكيون فلم يجدوا إلا الأخذ إزاءهم بمبدأ الأمر الواقع ، وإن كانوا قد راحوا يحتلون المنطقة كلها دون أن

يمنع احتلالهم الجيش اليوجوسلافى من الوصول إلى خط الدفاع الواقع عند ضواحى تريستا .

وموقف يوجوسلافيا اليوم من المشكلة هو أن إقليم استريا كله يجب أن يكون جزءاً من يوجوسلافيا بتريستا وفيومى وزارا . وتقول إيتاليا إن فيومى وزارا وجزيرتين أو ثلاثاً يتكلم جميع أهلها الإيتالية فيجب أن تلحق كلها بإيتاليا . أما تريستا — وكثرة أهلها هى أيضاً إيتالية — فستنهار اقتصاديا إذا ما ضمت إلى يوجوسلافيا . وتلوح فى الأفق نظرية موفقة بين الاتجاهين ، تقول بجعل تريستا مدينة حرة تصبح بمثابة ميناء حرة ، على الادرياتى والبحر المتوسط لأوربا الوسطى كلها .

وإذن فستخرج إيتاليا بمعاهدة الصلح المنبعثة من مؤتمر شامل أو من مصالحات منفردة ، معدلة حدودها تعديلا يضعف من شأنها ويفرض عليها الانكماش بعد أن كانت تتيه فى أحلام التوسع .

وعجيب هذا القدر ! بدأ موسولينى حياته العامة « اشتراكياً » يمقت الحرب ويحمل على المؤيدين للنزاع الإيتالى التركى ، ويحمل على الموجهين للقوات الإيتالية إلى طرابلس لانتزاعها وفتحها ، ثم ينقلب « فاتحاً متوسعاً » يعتدى على الحبشة ويحلم بتحقيق « الامبراطورية الرومانية العظيمة » و « بحره » الخاص ، ثم لا يلبث هذا الحلم أن يتبدد ، ولا تلبث أجزاء تلك الإمبراطورية أن تتناثر ولما يمض بعد عام واحد على موته بأيدى شعبه تلك الميتة الشنيعة !

محمود عزمى

بين الحرب والجغرافيا

الشرق الأوسط والحرب

فى مقال سابق تناولنا علاقة الحرب بالجغرافيا [1] ، وخرجنا بما يفيد أن أحداث الحروب العالمية واتجاهاتها الأساسية وخططها الكبرى لا تتأتى عفواً وإنما يلاحق بعضها بعضاً ، ويترتب بعضها على بعض . وهى فى كل ذلك متأثرة أبلغ التأثر بظروف الميدان الطبيعية ، وبالمواقع الجغرافية التى يجتذب بعضها المحاربين بما له من قيمة ظاهرة ، وينجذب إلى بعضها الآخر المحاربون أنفسهم بما لهم من بصيرة نافذة يكشفون بها عما لهذه المواقع من قيمة كامنة أو محتملة ، كما خرجنا كذلك بأن من المواقع ذات القيمة الكبرى فى الحروب العالمية موقع مصر وما يتصل بها من بلدان الشرق القريب . فقد كان لهذه المنطقة أثرها الكبير وقيمتها الخطيرة فى كل نضال من أجل السيطرة العالمية ، ولا شك أنها ستحتفظ بقيمتها هذه مهما تغيرت أحداث المستقبل ، ومهما تطورت فنون الحرب فى البر أو فى البحر أو فى الهواء .

ويعنينا فى هذا المقال أن نتتبع كيف أن الحرب العالمية الأخيرة لم تزد قيمة موقع مصر والشرق الأدنى كله — أو ما أصبح يعرف فى السنوات الأخيرة « بالشرق الأوسط » [2] — إلا وضوحاً ، وكيف أن أحداثها جاءت مرددة لما

---

(١) الكاتب المصرى عدد ٧ (أبريل ١٩٤٦) .

(٢) يقصد الجغرافيون «بالشرق الأدنى» منطقة تشمل جنوب البلقان وآسيا الصغرى وغرب إيران والجزيرة العربية كلها وشمال شرق إفريقية . أما اصطلاح «الشرق الأوسط» فجديد نسبياً على الجغرافيا ، ولم يشع استعماله إلا إبان هذه الحرب الأخيرة .. وقد بدأ اصطلاحاً عسكرياً يشمل قيادة الحلفاء فى شرق البحر المتوسط والشرق الأدنى إلى حدود الهند . والواقع أن اصطلاح « الشرق الأوسط » كما يفهمه العسكريون الآن لا يختلف كثيراً فى مدلوله عن اصطلاح «الشرق الأدنى» كما يفهمه الجغرافيون من قبل ؛ وقد لا يضير كثيراً أن يستعمل أحد اللفظين فى موضع الآخر ، ولو أن «الشرق الأوسط» يمتد قليلا فى مساحته إلى ما وراء حدود «الشرق الأدنى» .

تجاوب به التاريخ من قبل ، فى فترات متقطعة ، منذ فتح الإسكندر باب الحروب العالمية ، التى امتد سعيرها بين الشرق والغرب ، والتى لم تكد واحدة منها تشب حتى أصاب الشرق الأوسط منها نصيب يسير أو خطير ، بل حتى غدت هذه المنطقة المتوسطة مسرح النضال وهدف المتسابقين من أجل التحكم فى المواصلات العالمية .

والذين يدرسون تاريخ الحروب فى العهد الحديث يتفقون فيما بينهم على أن هذه الحرب التى انتهت فى الصيف الماضى ، إنما بدأت فى عام ١٩١٤ . وغاية ما هنالك أن النضال الفعلى جاء فى جولتين ، لم تكن الأولى منهما حاسمة ولا فاصلة ؛ فلم تنكسر جيوش ألمانيا فى أرضها مثلا ، ولم تنهزم هزيمة ساحقة ماحقة ، ولم يصب نظام الصناعة والإنتاج والمواصلات فى تلك البلاد بمثل ما أصيب به من خراب إبان الجولة الثانية . . . لا بل إن أداة الحرب فى جملتها ونواة الجيش الألمانى ذاته تركت سليمة ، أو شبه سليمة ، بعد الجولة الأولى ؛ وقد احتفظت تلك النواة بروحها العسكرى وتقاليدها ولم تسلم قيادتها بالهزيمة ، وإنما نسبتها إلى الثورة الداخلية فى ألمانيا . وهكذا لم تنقض عشرون سنة على إعلان الهدنة [1] حتى نهض من كبا ، وحتى استطاع المغلوب أن يبدأ بالتحرش والوثوب من جديد .

ومهما قيل فى أسباب هذه الحرب وما دفع المتحاربين إليها ، فقد كان الغرض الأول منها والمحرك الأساسى فيها ، إنما هو السعى إلى السيطرة العالمية والتحكم فى مصاير الأمم ، وفيما تقوم عليه صلات الغرب بالشرق ، وصلات أهل البلاد القوية والمستعمِرة بأهل البلدان الضعيفة والمستعمَرة . ولذلك لم يكن بد من أن تمتد الحربُ إلى الشرق الأوسط ؛ لأن الطبيعة قضت بأن يكون ذلك الإقليم باباً ينفذ منه الغرب إلى الشرق ، وجسراً تمتد من فوقه قوات أصحاب السيطرة إلى أولئك الذين قضت ظروفهم أن تكون أرضهم مطمعاً للطامعين ، وأن تكون أرزاقهم ، بل جهودهم فى الحياة ، مغنماً يقتتل من دونه الأقوياء .

---

(١) قد يكون من الطريف أن نلحظ من الناحية الفنية الخالصة أن الجولة الأولى انتهت بإعلان الهدنة من الجانبين فى عام ١٩١٨ ؛ على حين انتهت الجولة الثانية بإعلان انتهاء الحرب فى أوربا من جانب المنتصرين وحدهم فى عام ١٩٤٥ .

وقد تجلى التسابق إلى التسلط على الشرق الأوسط فى كل من الجولتين ولكننا قبل أن نعالج ذلك لا بد لنا من أن نلم بطرف مما يتصل بالقيمة الاستراتيجية التاريخية لبعض مناطق هذا الإقليم الهامة ومداخله الأساسية؛ فذلك مما يعين على تفهم أهداف الحرب وخططها فى هذا القسم من العالم. وأول منطقة تلفت نظرنا فى هذا الإقليم هى مصر والركن الشمالى الشرقى من إفريقية. فقد كان وادى النيل الأدنى ودلتاه على الدوام قاعدة عسكرية هامة يمكن الاستناد اليها والتوسع منها نحو قلب الشرق؛ وقد تكرر ذلك فى التاريخ أكثر من مرة. فمن مصر توسع الفراعنة أيام إمبراطورية الدولة الحديثة؛ ومنها توسع البطالسة بعد الإسكندر؛ وإليها ارتكز جانب هام من قوة الرومان فى توسعهم إلى شمال بلاد العرب ورأس الخليج الفارسى فى أوائل القرن الثانى الميلادى؛ وفيها قامت دول العرب والمسلمين؛ ومنها اتسع سلطان صلاح الدين وأمثاله ممن عرفوا كيف يستغلون موقع أرض الزاوية وموارد تربة الكنانة؛ وفيها تجدد الملك لمحمد على وامتد نفوذه إلى جهات مختلفة من الشرق القريب، لولا ما كان من تألب الدول الكبرى عليه وعلى خلفائه. ثم إليها عادت الإمبراطورية البريطانية فارتكزت آخر الأمر، لا لتؤمن مواصلاتها مع الشرق الهندى والبعيد فقط، وإنما كذلك لتوسع سلطانها وتمد نفوذها إلى السودان أول الأمر، ثم إلى شمال الشرق العربى إبان الجولة الأولى من الحرب العالمية وفى أعقابها، ثم إلى برقة وطرابلس وحتى إلى بلاد اليونان وجزرها فى هذه الجولة المنصرمة من الحرب. فكأن الطبيعة قد أرادت أن تكون مصر وأن تبقى على مر الأيام، مفتاحاً هاماً من مفاتيح الشرق الأوسط وأن يكون مرجع ذلك ومرده إلى موقعها الجغرافى من جهة، وإلى مواردها الغنية من جهة أخرى.

وموقع آخر هام فى الشرق الأوسط هو منطقة المضايق بين آسيا الصغرى والبلقان. وقد كانت قاعدة تحكم منها الإغريق والروم الشرقيون فى تجارة البحر الأسود، ونشر منها البيزنطيون نفوذهم فى ذلك البحر وعلى شواطئه، كما احتفظوا منها بسلطانهم فى أراضى المشرق الرومانى القديم. وعادت أهمية هذه القاعدة إلى الظهور فى عهد الأتراك الذين امتد نفوذهم فى كثير من جهات الشرق الآسيوى القريب وبلاد البلقان. وفى العهد الحديث ازدادت أهمية

المضـايق بظهور روسيا وسعيها إلى الخروج من البحر الأسود إلى البحر المتوسط خروجا حرًّا لا تتحكم فيه إمبراطورية العثمانيين ولا غيرها من الدول الأوربية البحرية التى قد تضغط على العثمانيين أو توحى إليهم بما يتبعونه من سياسة نحو الروس . فلما جاءت الحرب العالمية الأخيرة لم يكن بد من أن تبرز قيمة المضايق كمنطقة عسكرية ذات خطر ، وكمنفذ للبحر الأسود من جهة ، وباب من أبواب الشرق الأوسط من جهة ثانية . وفعلا اتجهت السياسة الألمانية منذ عام ١٩١٤ بل قبل ذلك إلى القسطنطينية وما وراءها من أراضى الإمبراطورية العثمانية ، وأصبحت المضايق نفسها منطقة قتال فعلى شديد فى موقعة غاليپولى وما يتصل بها ؛ واستمر التشاحن بين الدول من أجل تنظيم الإشراف على ممرات الماء خلال الفترة ما بين جولتى الحرب . ويخطىء من يعتقد أن حياد تركيا أثناء الجولة الثانية واستمساكها بموقفها المحايد وبسلطتها الشرعية فى الإشراف على المضايق وتحصينها ، سيحول دون تشـاحن الدول الـكبرى من أجل هذه المنطقة العسكرية الهامة .

وفيما بين برزخ السويس ومضايق تركيا هناك منطقة أخرى يمكن أن تنفذ منها القوة إلى قلب الشرق الأوسط ، تلك هى مجموعة الجزر الواقعة فى شرق البحر المتوسط وما يقابلها ويطل على ذلك البحر من شواطىء المشرق العربى فى لبنان وسوريا وفلسطين . وقد كانت هذه المنطقة — لا سيما شواطىء لبنان — مجال اتصال واحتكاك فى التجارة والثقافة خلال التاريخ ؛ كما كانت طريقا للتوغل السلمى وبعض التوغل المسلح إلى قلب الشرق . وعادت قيمتهـا فظهرت فى الحرب العالمية الأخيرة بشطريها ، فاقتتل فى ميادينها الحلفاء والأتراك (ومن ورائهم الألمان) أثنـاء الجولة الأولى وفى أعقابها ، كما اقتتل فيها البريطانيون وقوات المحور وڤيشى فى الجولة الثانيـة . بل جاءت فترة خلال هذه الجولة الأخيرة خيِّل فيها أن المحور يستطيع أن يدور من اليونان وجزرها حول تركيا وأن يكيل ضربة شديدة يصيب بها موقف حلفاء الشرق فى الصميم .

والمدخل الأخير للشرق الأوسط من ناحية الشمال هو طريق القوقاز وشمال إيران . وهذه منطقة كانت على الدوام تمثل نقطة اتصال الشرق القريب بداخلية آسيا الرَّعْوية . فمن طريق إيران نفذت جيوش الإسكندر إلى تركستان ، ثم جيوش العرب إلى نفس الإقليم . وعن طريق ممر تفليس فى القوقاز مرت قوافل

العرب واتصلت تجارتهم بجنوب روسيا وأرض بولندة القديمة فى القرون الوسطى . وعن طريق تركستان وقزوين جاءت جحافل المغول والتتر إلى شمال إيران ، ثم إلى أرض الخلافة العباسية فى بغداد عام ١٢٥٨ . وعَبْر شمال إيران وكردستان مرّ السلاجقة ثم الأتراك العثمانيون إلى آسيا الصغرى فالقسطنطينية والبلقان . ومع أن التشاحن خف فى هـذا الركن الشمالى الشرقى من الشرق الأوسط فترة من الزمن فإنه تجدد فى أواخر القرن الماضى وخلال القرن الحاضر ، عند ما ظهرت قوة الروسيا بشكلها القيصرى أول الأمر ، ثم بشكلها السوفياتى بعد ذلك ، وسعت إلى أن يكون لها منفذ نحو البحار الدفيئة فى خليج فارس ، ثم استمرأت المسعى فى هذا الاتجاه آخر الأمر ، عند ما رأت أن الطريق إلى تلك البحار غنى بموارد الزيت من جهة ، كما أنه يؤدى إلى قلب العالم العربى وإلى البحر المتوسط من جهة أخرى .

وإلى الجنوب من الشرق الأوسط هناك مدخلان أو مخرجان لذلك الإقليم : أحدهما يمتد مع الخليج الفارسى ، والآخر يمتد مع البحر الأحمر . وكلاهما يبدأ فى قلب الشرق الأوسط وينتهى إلى المحيط الهندى وما وراءه من بلاد الشرق . وقد كان التسلط على هذين الذراعين من البحر والسواحل المحيطة بهما غاية كل عسكرى يريد السيطرة على الشرق ومسالكه ، منـذ بدأ الاتصال بين الشرق والغرب ، وصارت للمسالك البحرية قيمتها فى ذلك الاتصال . فقد سعى الفرس إلى ذلك وتسلطوا فى أوقات مختلفة على خليجهم بشاطئيه ، وعلى طرفى البحر الأحمر فى الشمال والجنوب . وسعى الرومان إلى ذلك أيضاً فوضعوا أيديهم على رأس البحر الأحمر فى السويس والعقبة ، وعلى رأس الخليج الفارسى فى ميناء أُبلّـة القديم فى شط العرب . وأدرك العرب المسلمون قيمة هذين الطريقين ، فأنشأوا فيهما الموانى ، وأحكموا السيطرة على طرق البحار خلال فترات متقطعة من العهد الإسلامى . حتى إذا ما جاء العهد الحديث ظهر التسابق بين الدول الطامعة فى الشرق والمتكالبة على السيطرة على مسالكه ومداخله ؛ فسعت كل منها إلى أن تمكّـن لنفسها من أحد هذين الطريقين البحريين ، ومن المسالك البرية المؤدية إليه والمشرفة عليه . فإلى خليج فارس سعت روسيا جهد طاقتها ، ولـكن وقفت فى سبيلها بريطانيا ، التى جاءت الخليج من طريق الهنـد أول الأمر ، فبسطت سلطانها على عُمَان والبحرين والـكويت ، ونشرت نفوذها فى

أراضى إيران وشواطئها الجنوبية ، ثم جاءت إلى نفس الخليج من بعد ذلك وأثناء حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ عن طريق الهند البحرى إلى العراق الأدنى ، وكذلك من طريق الشرق العربى الشمالى ، بعد أن كافحت الخطر الألمانى الذى سعى مع الأتراك إلى العراق . وأما طريق البحر الأحمر فقد سعت إليه بريطانيا ، فوطدت أقدامها فى مصر والسودان على شواطئه الشمالية والغربية ، وفى عدن وجزيرة بريم وساحل الصومال فى الجنوب . كما سعت إليه فرنسا فى چيبوتى ، وإيطاليا فى إرترية . واستمر الكفاح بين هذه الدول مكشوفاً أو مستتراً حتى ظهرت مشكلة الحبشة وحربها مع إيطاليا ، فكان ذلك نذيراً بما انتهى إليه الأمر من نضال مسلح على بعض سواحل هذا البحر خلال الجولة الأخيرة من الحرب العالمية .

وهكذا نجد فى هذا الشرق الأدنى كما يسميه الجغرافيون ، أو الشرق الأوسط كما يسميه العسكريون المحدثون ، منطقة كثيرة المداخل ، متعددة المنافذ ، تطل على بحار الشمال وبحار الجنوب ، وتتصل باليابس فى الشرق والغرب . فلم يكن بد من أن تتأثر بالحرب أنى جاءت ، ومن أن يحاول العسكريون والمحاربون أن ينفذوا إلى قلبها من أى طريق . بل لم يكن بد من أن يمتد إلى هذه المنطقة لهب الحرب وأن يكويها سعيرها ، مهما حاولت أن تجنب نفسها موارد التهلكة ومصارع السوء ، أو أن تتقى أهوال الحرب والكفاح المباشر . فهى طرف فى كل حرب عالمية ، أرادت أو لم ترد ؛ والشر يسعى إليها عن كل طريق ، ويأخذها من كل جانب ؛ لا يحوله عنها محول ، ولا يرده عنها راد .

بل هكذا قضت الطبيعة أن يكون الشرق الأدنى أو الأوسط ميداناً من ميادين التسابق والمساومة فى اقتسام مناطق النفوذ بين كبريات الدول ، حتى قبل أن يبدأ النضال المسلح فى عام ١٩١٤ . ففى أوائل هذا القرن كان حلفاء الغرب وأنصارهم فى روسيا قد حددوا مناطق نفوذ كل منهم فى الشرق الأوسط ومنافذه ؛ فأطلقت فرنسا يد بريطانيا فى مصر وقناة السويس باتفاقية ١٩٠٤ ؛ واقتسمت بريطانيا وروسيا مناطق النفوذ فى الأراضى الفارسية على الجناح الشرقى لهذه المنطقة باتفاقية ١٩٠٧ . ومع ذلك فعند ما أعلنت الحرب كانت تركيا العثمانية لا تزال سيدة الجانب الأكبر من قلب هذا الشرق ، ما بين جنوب

شرق البلقان وبحر العرب ؛ فكان طبيعيًا أن تحاول ألمانيا أن تنفذ إلى الشرق عن طريق أرض الخلافة ، فمهدت للوصول إلى بغداد فى طريقها إلى خليج فارس وبعثت بعملائها ثم بجيوش حلفائها الترك إلى الشام وفلسطين وسينا وقناة السويس على باب مصر الشرقى فى عام ١٩١٥ ، وكان غرضها من كل ذلك أن تقطع طريق الهند على بريطانيا ، وأن تمنع حلفاء الغرب فى الوقت ذاته من أن يحاولوا تطويقها بالالتفاف حول أراضى تركيا أو شق طريقهم والاتصال بالقوات الروسية فى بعض جهات آسيا الغربية . وكانت بريطانيا قبل ذلك وخلال ذلك قد تفاهمت مبدئيا مع روسيا (١٩١٣ — ١٩١٣ ثم ١٩١٥) على أن تكون القسطنطينية من نصيب الروس بعد الحرب ؛ فكان من الطبيعى أن يُعقد اتفاق سرىّ مقابل للدفاع المشترك بين الترك والألمان ؛ واستطاعت ألمانيا بفضل ذلك أن توطد أقدامها فى منطقة المضايق . فآذن ذلك بدخول الشرق الأدنى كله فى نطاق الحرب ، حتى قبل أن تعلن بصفة رسمية بين العثمانيين والحلفاء .

وفى مطلع الحرب كانت قوة حلفاء الغرب مركّزة على الخصوص فى مصر ، التى أعلنت عليها الحماية البريطانية ، والتى ما لبثت بريطانيا أن اتخذت منها بالتدريج تلك القاعدة التى طالما استطاع حكامها وسادتها أن يسخروا مواردها ، وأن ينشروا منها نفوذهم ويمدوا سلطانهم فى كل اتجاه . وفعلا بدأ البريطانيون ينظمون شئونهم فى مصر وإن كانوا كعادتهم فى أمثال هذه المناسبة ، قد بدءوا متأخرين بعض الشىء ، غير مستعدين تمام الاستعداد ، وإنما كانوا معتمدين على مقدرتهم التقليدية على تكييف الأمور ومواجهة الأزمات أولاً بأول . لذلك أعلنوا الأحكام العرفية فى مصر فى اليوم الثانى من نوفمبر سنة ١٩١٤ ، وأعلنوا معها أنهم يتحملون وحدهم تبعات الحرب ، وأنهم لن يفرضوا على مصر أن تساهم فيها بشىء ؛ ومع ذلك فلم تمض ثلاثة أيام حتى صدرت أوامرهم إلى المدفعية المصرية أن تشخص إلى القناة لتدافع عنها ! ولعلنا لا نزال نذكر ما قامت به مصر فى عام ١٩١٥ من رد غزوة الأتراك والألمان ، التى جاءت عن طريق شبه جزيرة سينا ، والتى استطاعت بعض طلائعها أن تعبر القناة . والحق أن هذا كان أول محك لما تستطيع مصر أن تؤديه فى حرب كهذه . وليس يضير مصر ألا تكون بريطانيا قد اعترفت إذ ذاك أو بعد ذاك بما أدته مصر لنفسها وللحلفاء ؛ فقد ينصف التاريخ أولئك الأبطال الذين

دافعوا عن القناة يوما ما. ولو وقف البريطانيون وحدهم أمام الغزاة لما ثبتوا لهم ولما ردوهم ، بل لوصل الأتراك والألمان — فى رأى كثير من ثقات الحرب — إلى القاهرة فى أيام ؛ ولكان لذلك ، فى أغلب الظن ، من العواقب ما يتغير معه وجه التاريخ .

ولكن هذه الصدمة الأولى نبهت بريطانيا إلى خطورة الأمر فى الشرق ، كما نبهتها إلى أهمية مصر كقاعدة عسكرية لتجمع قوات البر والبحر على السواء . وكان طبيعيًا أن تستغل بريطانيا ناحية البحر أول الأمر ، وهى الدولة البحرية الأولى ، فاتخذت عدتها واستخدمت مرافئ مصر ومرافقها كقاعدة لتجمع بحرى هائل ، فيما عرف بحملة البحر المتوسط Mediterranean Expeditionary Force التى انطلقت من مصر فى عام ١٩١٥ نحو غاليپولى ؛ وكانت غايتها قطع الطريق على الألمان وفتحه إلى الروس . ولكن عوامل مختلفة أدت إلى إخفاق الحملة التى كان ينقصها عنصر المفاجأة . وكما أخفقت جيوش الترك والألمان عند قناة السويس لأنها كانت على مسافة بعيدة من قواعدها عند ما ثبت لها المدافعون وردوها على أعقابها ؛ كذلك أخفقت أساطيل الحلفاء فى الدردنيل لأنها كانت بعيدة عن معقلها فى مصر ولا تستند إلى شئ فى الطريق ، فثبت لها الأتراك وبددوا حملتها تبديداً .

ولكن البريطانيين كانوا فى الوقت ذاته يوالون تنظيم موارد مصر ، ويتابعون إعدادها لأن تكون أداة فعالة فى الحرب ، وإن لم يعترفوا بمركزها كشريكة فيها . حتى إذا ما جاءت المرحلة الثالثة من مراحل الحرب فى الشرق (بعد مرحلتى الدفاع عن القناة والهجوم على غاليپولى) برزت أهمية مصر وتجلت مساهمتها الفعالة فى صورة جديدة ؛ فتألفت فى عامى ١٩١٦ ، ١٩١٧ القوة التى عرفت باسم قوة الحملة المصرية Egyptian Expeditionary Force ؛ وتحولت فرق العمال المصرية التى أعدت من أجل غاليپولى إلى حدود مصر الشرقية ، ثم إلى فلسطين والشام وأرض العراق الأعلى ؛ وارتفع رقم المشتركين فى الحملة من المصريين إلى حوالى ١٥٠,٠٠٠ من الرجال يعملون بعقود لمدة ستة أشهر ، أى بمعدل ثلثمائة ألف رجل يشتركون فى الحرب خلال العام . وفضلا عن ذلك فقد سخرت بريطانيا موارد مصر من الأرزاق فى الحبوب والدواب والأنعام ، جمعت كلها برضا من حكومة مصر ، ومعاونة فعالة منها ، لتغذية الجيش والحملة

نحو الشرق ؛ مع أن الأمر فى هذه الحملة كان قد انقلب من مجرد الدفاع عن مصر إلى التوسع والفتح فى أملاك الإمبراطورية العثمانية والخلافة الإسلامية ! وهنا تجلى استغلال بريطانيا لمصر وتسخيرها مواردها من الرجال والأموال ، إلى جانب استغلالها موقعها الجغرافى . ومن سخرية القدر أن تكون بريطانيا قد بدأت باستخدام مصر وتسخيرها فى فتح الشرق بحجة تحريره من الأتراك ، فلما استتب لها الأمر فيه وتمكنت قواتها منه ، لم تزدها مصالحها الجديدة فى الشرق إلا استمساكاً بهذه الأداة ، وإلا تشبثاً بهذه القاعدة ؛ لعلها أن تفيد مرة أخرى ، وفى يوم قريب أو بعيد ، من هذا البلد الغنى ، ذى الموارد الحاضرة وذى الموقع الجغرافى الفريد . وقد كان !

ولكن مصر والدردنيل لم يكونا المدخلين الوحيدين اللذين تسرب عنهما لهب الحرب إلى الشرق الأدنى ؛ وإنما نشطت بريطانيا كذلك فى بحر العرب وفى خليج فارس ، وأرسلت الإمبراطورية حملتها على العراق ، فاحتلت البصرة ، ثم دخلت بغداد فى عام ١٩١٧ ، وتقدمت منها فى اتجاه الموصل والجزيرة العليا ؛ كما واصلت قوات بريطانيا زحفها من فلسطين إلى الشام وصوب العراق الأعلى . وفى أعقاب الحرب تعقد الموقف فى الشام بتسابق بريطانيا وفرنسا إلى اقتسام مناطق الاحتلال . وبنزول قوات فرنسا فى أرض المشرق ، ثم اتفاق الدولتين على اقتسام غنائم الانتداب فى مؤتمر الصلح وعصبة الأمم . كما زاد الموقف تعقداً بمحاولة إيطاليا تحقيق أطماعها فى جنوب غرب الأناضول ؛ تلك الأطماع التى لوح لها بها الحلفاء فى معاهدة لندن السرية التى دخلت بمقتضاها إيطاليا الحرب فى عام ١٩١٥ ؛ ولكن هذه الدولة كانت أضعف من أن تحتفظ بقواتها أو بنفوذها فى أراضى تركيا ، رغم أنها كانت تحتل جزر الدوديكانيز منذ عام ١٩١٢ . كذلك انتهت محاولات اليونان ، ومن ورائهم حلفاء الغرب ، فى التسلط على أزمير ، باندحارهم أمام قوات الغازى مصطفى كمال على نحو ما هو معروف .

على أن المهم من كل هذا أن لهيب الحرب قد امتد إلى الشرق الأوسط من أكثر من جهة واحدة ؛ وكان ذلك أمراً طبيعيًّا إذا نحن راعينا كثرة مداخل هذا الإقليم ومآخذه وأهميته الفريدة فى صلات الغرب بالشرق . بل كان طبيعيًّا أيضاً أن يتأثر هذا الإقليم وسكانه بالحرب وأحداثها ونتائجها بما قد يزيد على تأثر غيره من أقاليم الأرض وشعوبها . فقد أطمعت الحرب الظافرين فى هذا

الإقليم ومراكزه العسكرية ، وموارده التى لا ينقصها غير حسن الاستغلال . وكان ذلك فى وقت زالت فيه سلطة الأتراك ، ودال سلطان الخلافة أو كاد ؛ فتدخلت بريطانيا ومعها فرنسا فاقتسمتا قلب الشرق الأوسط بما جعل للأولى نصيب الأسد وللثانية نصيب النمر . ولولا انقلاب الأحوال فى روسيا ، وظهور ثورة البلاشفة ، وما صاحب ذلك من انكماش تلك الدولة ثم انطوائها على نفسها ، لكان للروس مطمع فى جانب من الغنيمة . كذلك لولا تقاعس أمريكا وتخوفها من الشرق ومشكلات الشرق لكانت تلك الدولة شريكا فى بعض أسلاب إمبراطورية العثمانيين .

وانقضت الفترة ما بين جولتى الحرب فى قلقلة واضطراب ما كان يستقر معهما الشرق الأوسط وأهله على شئ . وقد أغرى اختفاء ألمانيا المؤقت وراء الأفق كلاً من بريطانيا وفرنسا ، فلم تنتبها إلى ما تقضى به الحكمة من إنجاز العهود وإنصاف أهل هذا الإقليم بعد جهادهم فى سبيل هزيمة الأتراك ، بل مضتا أول الأمر فى سياسة أقل ما يقال فيها إنها لم تراع ما استأهله فريق من شعوب الشرق الأدنى من حرية تقرير المصير ، ولو فى ميدان الحكم الذاتى الصحيح . ولم تكن تلك السياسة مما يمكن أن يدوم أو أن يؤدى إلى الاستقرار . وقد جربت بريطانيا بصفة خاصة أن تجمع بين المتناقضات فى سياستها مع مصر إذ منحتها الاستقلال فى ظل الاحتلال ، ومع فلسطين إذ جعلتها للعرب والصهيونيين فى آن واحد . وطغت فرنسا فى سوريا ولبنان ، فتلاعبت بالعرب ، وشوهت وحدة بلادهم ، دون رقيب أو محاسب . ولكن انفراد بريطانيا وفرنسا بشئون الشرق لم يكن إلى أجل غير مكتوب ؛ وظهور ألمانيا أو الشبح الألمانى ، من وراء الأفق مرة ثانية لم يكن إلا مسألة زمن ؛ كما أن استئناف الكفاح بين الجبابرة من أجل الشرق كان أمراً مفروغاً منه عند من يعرفون بواطن الأمور ، وكانت ساعته آتية لاريب فيها . ومن أجل ذلك لم تجد بريطانيا وفرنسا بدًّا من أن تحورا سياستهما نحو الشرق . وكانت الأولى بحكم تجاربها ومصالحها المتشابكة ، أسبق فى إدراك ضرورة ذلك من الثانية ؛ فلم تلبث أن فرغت من بعض مشكلاتها مع العراق ، ثم عقدت معاهدتها المعروفة مع مصر ، والتى تعتبر ولا ريب أخطر عمل سياسى أنجزته بريطانيا فى الشرق ؛ إذ ضمنت به سلامة مواصلاتها ، كما ضمنت استقرار الأمور واستغلال موارد هذه القاعدة

وموقعها الجغرافى بما لا يقل عما حدث فى حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ . كذلك عملت بريطانيا على تهدئة الحال بالنسبة للعرب فى فلسطين ، فأصدرت كتابها الأبيض بتحديد هجرة اليهود فى عام ١٩٣٩ . وفى الوقت نفسه اضطرت فرنسا إلى أن تسلك بعض ما سلكته بريطانيا ، فحاولت — ولو فى شىء من المداورة والتردد — أن تنظم علاقاتها مع سوريا ولبنان على أساس جديد من بعض الوجوه . وهكذا ترتب على هذه الخطوات من جانب بريطانيا وفرنسا أن لاحت الحرب الهتلرية ، والشرق الأوسط عند مفترق الطرق . . . قد بدأ يستشف طريقه ويتلمس سبيله إلى حياة الاستقرار أو ما يقرب منه ؛ ولكنه مع ذلك يشفق من المستقبل ولا يطمئن إليه بأكثر مما تسمح به تجاريبه خلال ربع قرن كامل .

ولكن التاريخ أعاد نفسه فى الجولة الثانية من الحرب العالمية ، وإن كانت تفاصيل الكفاح وبعض ميادينه قد تغيرت نظراً لتغير ظروف المحاربين . والشىء المهم أن الهدف الأول من الحرب بقى كما كان ، وهو السيطرة العالمية والتحكم فى اتصالات الغرب بالشرق . ولذلك لم يكن بد من أن يصبح الشرق الأوسط طرفاً فى الحرب منذ البداءة . وقد سعت ألمانيا فى هذه المرة إلى قلب الشرق كما سعت فى المرة الأولى ؛ ولكن تغير الأحوال جعلها لا تركز فى طريق واحد كما فعلت فى الجولة الأولى ، عند ما اتخذت طريق المضايق دون سواه ؛ فقد وقفت تركيا الجمهورية على الحياد فى هذه المرة ، ولم تسمح باستخدام مضايقها فى أغراض الحرب لأى فريق من المتحاربين . وترتب على ذلك أن سعت ألمانيا ، أو اضطرت إلى السعى ، نحو الشرق الأوسط من غير هذا الطريق ؛ واختارت بالفعل طرقاً ثلاثة : أولها طريق القوقاز ، وكان وعراً صعباً ، وقفت من دونه جحافل الروس . وثانيها طريق البلقان واليونان والدوديكانيز إلى سواحل المشرق والشام ، وقد سعت فيه ألمانيا إلى منتصفه ، ولكنها لم تسر حتى النهاية ، فاستطاع الحلفاء أن يزحفوا إلى سوريا ولبنان وأن يطردوا قوات ڤيشى وعملاء المحور منهما ، كما لم تُجْدِ ثورة الكيلانى فى العراق لأنها كانت حركة منقطعة عن غيرها ، وحلقة لا تتصل بسلسلة الهجوم المحورى . ويظهر أن الألمان لحسن الحظ لم يقدروا أهمية هذا المدخل من مداخل الشرق الأوسط ؛ ولو قد فعلوا ذلك ، وحولوا جانباً من قواتهم الضائعة فى روسيا إلى البلقان واليونان فسواحل المشرق كما فعلوا فى احتلال كريت مثلا ، لأصبحت لهم قاعدة

راسخة فى قلب آسيا الغربية ، ولتغير مجرى الحرب فى هذا القسم من العالم .
كذلك حاول الألمان أن يأخذوا الشرق من مدخل ثالث هو طريق طرابلس وبرقة ومصر ؛ ولكنهم أخطأوا هنا أيضاً فجاءوا متأخرين . ويظهر أن تحالفهم مع الإيطاليين كان عليهم أكثر مما كان لهم ؛ فإن إيطاليا لم تكن فيما يظهر مخلصة فى الحرب ولا مقبلة على التضحية من أجل النصر المشترك ؛ فهى مثلا لم تجاذف بأسطولها فى تمكين الصلة بين قاعدة المحور فى طرابلس ومواطن التموين فى إيطاليا وألمانيا . وعلى كل حال فقد تقدمت جيوش المحور نحو مصر ثم تقهقرت أكثر من مرة ، حتى إذا ما جاءت الواقعة الفاصلة فى العلمين كان النصر حليف الجيش الذى استند إلى مصر . . . تلك القاعدة العظيمة التى أدت للجيش الثامن ومكنت له من مواردها وخيراتها ومرافقها ومواصلاتها وجهود أبنائها وإخلاصهم فى العمل ، بما كفل له الأمان ساعة الخوف ، والثقة ساعة الاقدام . . . وهكذا ارتد « جيش النيل » وتراجع ، ولكن إلى غير انهيار ؛ حتى إذا ما دقت الساعة تقدم منتصراً حتى جاوز إفريقية وبلغ قلب إيطاليا بل وشمالها آخر الأمر .

وفى هذا الكفاح الطويل بين المحور والحلفاء فى الجناح الغربى من الشرق الأوسط لم تتجل قيمة مصر فى الدفاع عن نفسها فقط ، وإنما برزت كذلك قيمتها كقاعدة للتموين والإعداد ، وكمركز للتوسع والزحف وإنفاذ الحملات بالبر والبحر والهواء فى كل اتجاه . ويكفى أن نذكر هنا أن قوات الحلفاء توسعت من مصر (والسودان) نحو إرترية وشمال الحبشة ، ونحو اليونان وجنوب البلقان ، ونحو فلسطين وسوريا ولبنان ، ثم نحو برقة وطرابلس وتونس والميدان الجنوبى فى أوربا . وقد تجمعت للحلفاء فى مصر جيوش من خمسة وعشرين قطراً وشعباً أو نحو ذلك ، حاربوا جميعاً فى أرض مصر ، أو اتخذوها قاعدة لهم إبان الحرب . ولا يكاد التاريخ يذكر أن تجمعت جيوش من مثل هذا العدد الكبير من القوميات والشعوب فى بلد من البلدان خلال تاريخ الحروب الطويل .

أما فى الجناح الشرقى من الميدان فكانت روسيا فى أبلغ الحاجة إلى أن يسند ظهرها ويشد أزرها فى جبهة القوقاز والسهل الروسى الجنوبى . ولم يكن هناك طريق يمكن أن يبلغها عنه المدد غير طريق الخليج الفارسى وأرض إيران

وكان أن احتل الحلفاء تلك البلاد واستغلوا مواردها وطرق مواصلاتها بما فى ذلك الطريق الحديدى الذى أكمله الشاه بين خليج فارس وبحر قزوين ؛ وكأنما أنجز ذلك المشروع لينتفع به المحاربون من غير أهل البلاد قبل أنه ينتفع به أبناء إيران . والغريب — أو لعله ليس غريباً — أن إيران قد قاست وستقاسى فى مقبل الأيام من جراء حاجة المحاربين إليها مثل ما قاست مصر وغيرها من بلدان الشرق إبان الجولتين .

ولكن الحق أن هذه الحرب لم تكن حرب الجبابرة وحدهم ، وإنما شارك فيها واكتوى بنارها أبناء الشرق الأوسط وأممه ؛ وكانت مشاركتهم فيها بمواردهم وأرزاقهم بل أرواحهم . وإذا نحن أخذنا مصر على سبيل المثال فقد ينفعنا أن نذكر أنها أعلنت على نفسها الأحكام العرفية فى مطلع الحرب ، وعلى نحو لم تعلنه بريطانيا ذاتها فى بلادها ؛ وأنها قطعت علاقاتها بالمحور وبلدانه ، وأصابها من وراء ذلك غرم كثير فى التجارة والتبادل انتهى إلى أكثر من الحرمان ؛ بل إنها قلبت نظامها الاقتصادى والإنتاجى كله لتلائم بينه وبين مقتضيات الظروف واحتياجات الحلفاء والجيران فى الشرق ؛ كما وضعت مواصلاتها كلها تحت تصرف الحلفاء من انجليز وغير انجليز ، وعلى نحو انطوى على تسخير نظام المواصلات كله من أجل الحرب ؛ فضلا عن مساهمة جيشها مساهمة فعالة فى الدفاع عن القناة والمدن الكبرى ضد الغارات الجوية ، وفى حراسة مرافق البلاد ؛ كما جندت مصر حوالى ربع مليون من أبنائها للعمل فى المصانع الحربية والمعسكرات ، وخصصت حوالى نصف مليون من العمال الزراعيين لإنتاج المحاصيل والخضر التى تحتاج إليها الجيوش ؛ واكتوت بويلات الحرب الشديدة فى الغارات وحوادث الطرق والأمراض الوافدة ، ومنها الملاريا الخبيثة التى حصدت حوالى الستين ألفاً هم بلا شك من ضحايا الحرب ، والحمى الراجعة التى لا تزال البلاد تعانى بلاءها هذه الأيام . . . إلى غير ذلك من الآفات الاجتماعية ومشكلات البطالة وغيرها بعد الحرب ؛ وهى كلها تدخل ضمن تضحيات مصر فى الحرب ومن أجل النصر ، مما يكشف عن أن محاولة « تجنيب مصر ويلات الحرب » لم تكن إلا أمنية بعيدة المنال ، بل مستحيلة من الناحية العملية ؛ فهى وإن كانت قد جنبت مصر كثيراً من « ويلات القتال المباشر » فإنها لم تجنبها ويلات الحرب بمعناها المعروف . ومثل هذا يصدق ولو إلى حد ما ، على غير

مصر من بلدان الشرق فيما عدا تركيا . وليس كثيراً أن نسجل أنه لولا هذه المساهمات من جانب أهل هذا الإقليم ماكان ذلك النصر الذى انتهت إليه الحرب فى جولتها الثانية .

وفوق ما تقدم كله فإن الشيء الذى لا شك فيه أن أعقاب هـذه الحرب ونتائجها لن تقف عنـد ما أصاب سكان الشرق إبان استعار القتال ، بل هى ستتعدى ذلك إلى المستقبل القريب ، وقد تبلغ المستقبل البعيد . وإذا كان صحيحاً أن النضال بين ألمانيا والحلفاء الديمقراطيين فى الشرق الأوسط — ذلك النضال الذى بدأ فى مطلع القرن الحالى — قد انتهى الآن بانكسار أحد الفريقين انكساراً يبدو كأن لا قيام له من بعده إلى حين بعيد ، فلا شك أن الأفق يلوّح بنضال آخر لن يقل عنه شدة وقسوة ، ويخشى — إن هو وقع ، لاقدر الله — أن يكون بين قوتين عظيمتين ، تتمكن إحداهما من الشرق وتربض فى ربوعه ، وتقف الأخرى على أحد منافذه البرية . وسيزيد من شدة هذا النضال أنه لن يكون من أجل المواصلات والقواعد العسكرية كما كان النضال السابق ، وإنما سيكون فوق ذلك من أجل موارد البترول وغيرها فى هـذا الشرق الوسيط . ومن الخـير لهاتين القوتين العظيمتين ولأهل هذا الإقليم بل للانسانية جمعاء أن يواجه العالم هذا الخطر الكامن قبل أن يبرز ويستفحل ، وأن يعمل على تلافى أسبابه قبل أن تقع الواقعة . . . ومن يدرى ! هل إلى تحقيق هذه الأمنية السعيدة من سبيل !

أما بعد ، فان الله يداول الأيام بين الناس . وكثيراً ما جعـل الله — جلت قدرته ودقت حكمته — من الحروب سبباً لهـذا التداول . والشرق الوسيط الذى نحن بصدده الآن إقليم قديم عريق فى القـدم ؛ قد تداولت عليه أمم وشعوب ، ومر به من الحروب ما غيّر وجه التاريخ أكثر من مرة . ولـكن حرباً واحدة من الحروب القديمة قد تستحق أن يذكرها أهل هـذا الشرق — لاسيما الجانب العربى منه — فى حاضرهم ، وفيما هم مقبلون عليه من أيام . ذلك أنه أتى حين من الدهر اقتتل فيه الفرس والروم من أجل السيطرة على هذا الشرق ، وكانت هناك أمة غافلة ، أو شبه غافلة ، كان جبابرة الساعة يعتقدون إذ ذاك أنها لم تخلق ليكون لها فى العير أو فى النفير ؛ بل إنهم حاولوا

تسخيرها وتوجيه أقدارها بما يلائم مصالحهم هم . وترددت هذه الأمة العربية أول الأمر بين الفرس والروم ، ثم مالت نحو هؤلاء الأخيرين فى مطلع العهد الإسلامى بحكم أنهم من أهل الكتاب على كل حال . ونزلت فى ذلك الآية الكريمة : « الم . غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين . لله الأمر من قبل ومن بعد . ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم » . ولكن هؤلاء الأعراب ما لبثوا أن أدركوا أنه أولى بهم أن يكونوا لله ولأنفسهم وللإنسانية قبل أن يكونوا للفرس أو للروم . وقد أذن الله أن يئول إليهم الأمر فى الشرق بعد أن اقتتل الفرس والروم اقتتال فناء ، وبعد أن حطم الشر الشر ، ودوخ الشيطان الشيطان . والآن يقف أهل الشرق الأوسط موقفاً لا يمثل ذلك الموقف القديم من جميع الوجوه ، ولكنه منه على شىء من الشبه ولو من بعيد . وليس أدل على ذلك من أن هذا الشرق فى قرارة نفسه قلق على المستقبل حائر فى أمره ، يخشى أهله أن ينحرفوا أو أن يميلوا كل الميل فتأخذهم الريح أو يجرفهم التيار . وقد ينفعهم فى هذا الموقف أن يستجمعوا ثقتهم بأنفسهم ، وأن يذكروا ما يفرضه عليهم موقعهم الجغرافى نحو أنفسهم ونحو الإنسانية جمعاء ، وبذلك لا تميل بهم الريح ولا تتلاعب بهم الأهواء . بل قد ينفعهم أن يذكروا ما انتهى إليه الأمر مع أولئك الأعراب القدماء الذين ذكروا أنفسهم فكانت لهم العاقبة ، ولو بعد حين .

قد يبدو هذا الكلام وهماً أو خيالا ؛ ولكن هذا الشرق الأوسط كان فى تاريخه الطويل مهد المعجزات ، وسيبقى كذلك مابقى التاريخ . والله سبحانه وتعالى قادر ، فى يوم قريب أو بعيد ، على أن يخرج الواقع من الوهم ، وعلى أن يخرج الحقيقة من الخيال . وصدق الله العظيم ، وهو القائل فى معرض الكلام عن اقتتال الجبابرة من أجل هذا الشرق ، اقتتالا ما كانوا ليقدموا عليه لو أنهم أدركوا عاقبته : « لله الأمر من قبل ومن بعد . . . وهو العزيز الرحيم » .

سليمان حزين

وحى

وربَّ فجرٍ تَسوَّرَ الوهمُ فيه إلى الفضا

نخلا عارفٌ بفَيضٍ ، من اللطف مُنتضى

لَقف الغيبَ من رهافة ما خفَّ مومِضا

صَرف اللبَّ تحت جفنٍ أمينٍ وأغمضا

حسب السرَّ أنَّ كاشفه كفَّ مبغِضا

فالتوى مولَعاً هلوعاً وسرعان ما قضى

عفَّ عن نقضه النسيمُ وغنّى وخفَّضا

(هفَّه ندبةُ الصبابات حُمَّت على رضا)

لفَّف الفجرَ فى شجا رِفقه ثم أعرضا

فصحا صاحبُ الرُّقَى خاشعَ الجفن مرمَضا

ذوَّب الومضَ فى إناء من الشعر أبيضا

بشر فارس

القاهرة ، يوليه ١٩٤٤

الملكة شجرة الدر[1]

٥

والظاهر أن الفرنج وقفوا من جواسيسهم على نبأ وفاة الملك الصالح بالرغم مما أحيط به من التكتم ، وقدروا ما يترتب على ذلك من اضطراب الأمور فى المعسكر الإسلامى ، فقرروا السير من دمياط لمقاتلة المسلمين ، وزحفوا جنوباً نحو فارس كور[2] وسفنهم تسير بحذائهم فى النيل ، واقتربت طلائعهم من المسلمين فى أواخر شعبان ، فأخذ المسلمون فى الاستعداد للقتال . ووصلت هذه الأنباء إلى القاهرة فانزعج الكافة لاقتراب الخطر ، وأخذ الخطباء فى الجوامع يحثون الناس على الجهاد ، فهرع كثير من المتطوعة إلى المعسكر السلطانى . وفى أوائل رمضان (ديسمبر سنة ١٢٤٩) وصل الفرنج إلى شرق المنصورة ، وكان يفصل بينهم وبين المسلمين بحر أشموم (البحر الصغير) . واقتربت قواتهم فى النيل من المنصورة وكانت فرق المسلمين ترابط إزاءها ، وكان معظم عسكر المسلمين فى شرقى النيل ، وبعض الفرق ترابط فى البر الغربى . وبدأت المعارك المحلية بين الفريقين تنشب متعاقبة فى البر والبحر ، وأخصها تبادل الرمى بالنبال والمجانيق ، واستمرت هذه المعارك مدى أسابيع سجالا بينهما يفقد فيها كل منهما قتلى وأسرى . وكان المسلمون يرسلون أسرى الفرنج تباعاً إلى القاهرة لإنهاض الروح المعنوية بين الشعب . وبذل الفرنج جهوداً عنيفة لإقامة جسر على بحر أشموم يعبرون عليه لكى يستطيعوا مهاجمة المسلمين بسائر قواتهم ، ولكن المسلمين من جانبهم عملوا على إحباط هذه المحاولة ، وقذفت حراقات المسلمين نيرانها المروعة (النار اليونانية) على معسكر الفرنج فأحدثت فيه اضطراباً وذعراً . وكان المسلمون ينفردون يومئذ بمعرفة أسرار

---

(١) الكاتب المصرى عدد ٧ (ابريل ١٩٤٦) .
(٢) هى فارسكور الحديثة .

هذا السلاح الذى لعب دوراً عظيما فى الحروب الصليبية . واستمر الأمر على ذلك حتى أوائل شهر ذى الحجة ، والفرنج فى حيرة واضطراب ، وسرايا المسلمين تفاجئهم بالهجوم ، والنار اليونانية تدهشهم وتروعهم وتحرق خيامهم ومعداتهم ولا يجدون سبيلا لاتقائها . وأخيراً استطاع الفرنج أن يقفوا من بعض الخونة على وجود مخائض إلى الجنوب فى بحر أشموم ، فعبروا منها إلى البر الغربى ، وتقدمت فرسانهم ورماتهم بقيادة الكونت دارتوا أخى ملك فرنسا ، وفاجأوا المعسكر الإسلامى بالهجوم ، وكان قائد المسلمين الأمير فخر الدين فى الحمام فهرع مذعوراً ليقود المعركة فأثخن جراحاً وقُتل ، وتفرق فرسانه . وتابع الفرنج هجومهم إلى قلب المعسكر الإسلامى داخل المنصورة ، وتفرقت جموعهم تثخن فى المسلمين هنا وهنالك ، ووصلت طلائع الهاجمين إلى أبواب القصر السلطانى ، وكادت الدائرة تدور على المسلمين وتحيق بهم الهزيمة المروعة .

ولكن حدثت عندئذ مفاجأة لم يتوقعها الفرنج ، وذلك أن الحرس السلطانى المكون من المماليك البحرية أو رجال « الحَلْقة » وهم مماليك الملك الصالح الذين عرفوا بالمهارة وشدة البأس ، أطبقوا على الفرنج ، بقيادة رئيسهم بيبرس البندقدارى ، وحملوا عليهم بشدة متناهية حتى مزقوهم عن آخرهم ، وقتل الكونت دارتوا قائد الفرنج ومعظم رجاله ، ولم يبق من فرسان « الدواية » (1) سوى أفراد قلائل ، وهلكت فى تلك الموقعة زهرة الفرسان الإنجليز والفرنسيين ، وارتدت فلول الفرنج عند مغيب الشمس إلى تل جديلة على بحر أشموم حيث بدءوا هجومهم المشئوم ، وحال الظلام بين الفريقين ، وكان ذلك فى اليوم الخامس من ذى القعدة سنة ٦٤٧ هـ الموافق ٩ فبراير سنة ١٢٥٠ .

تلك هى المرحلة الأولى من موقعة المنصورة الشهيرة التى خلدت فى صحف مصر الاسلامية ، بيد أنها لم تكن الخاتمة ، وكان مقدراً أن يشهد الفرنج ذروة المحنة ، وأن يجرعوا الكأس إلى الثمالة ؛ وأرسلت أنباء النصر فى الحال إلى القاهرة ، فاطمأن الناس بعد الانزعاج ، وحل الاستبشار مكان التوجس وزينت المدينة ابتهاجاً بالنصر . وكان يوماً مشهوداً .

---

(١) الدواية أو فرسان المعبد *The Templars* وهم من أشهر جماعات الفرسان الدينيه أيام الحروب الصليبية .

ولم تكن شجرة الدر بمعزل عن هذه الحوادث الخطيرة ؛ فقد كانت هذه المرأة الباسلة وقت هجوم الفرنج فى القصر السلطانى ، ترقب مصاير المعركة . ولما قُتل الأمير فخر الدين يوسف ولاحت طلائع الهزيمة فى البداية على المسلمين ، لم يخبُ عزمها ، بل لبثت رابطة الجأش والجنان ، تعاون برأيها وتشجيعها فى توجيه المعركة . ولما زال الخطر وردَّ الفرنج إلى مراكزهم ، لم تختر شجرة الدر قائداً جديداً للجيش بل آثرت أن تتولى بنفسها تدبير أمر الجند ، ولبثت على ذلك أياماً تعنى بشئون الجيش إلى جانب عنايتها بشئون المملكة حتى قدم السلطان الجديد الملك المعظم توران شاه .

٦

ارتدت فلول الفرنج منهزمة عقب الموقعة ، فقصدت إلى مراكزها العامة والمسلمون فى أثرها يثخنون فيها . وكانت القوات الفرنجية المتخلفة قد انتهزت الفرصة أثناء ذلك ، فأنشأت خلال اليوم قنطرة على بحر أشموم مما استولت عليه من الأخشاب والعتاد من المسلمين ، فلما ظهرت طلائع المهزومين ، عبرت قوات من الفرنج إلى البر الآخر لحمايتهم ، فعاد المسلمون إلى مراكزهم عند دخول الظلام .

وجمع الفرنج قواتهم فى تلك البقعة ، وعدلوا عن خطة الهجوم إلى الدفاع بعد الذى حاق بهم . وكذلك نظم المسلمون صفوفهم ، وأخذوا يحشدون عددهم وذخائرهم لمهاجمة الفرنج وردهم إلى الشمال .

ولم تمض على ذلك أيام قلائل حتى جاءت الأنباء بقدم الملك المعظم ، وكان قد غادر حصن كيفا بالمشرق قبل ذلك بنحو شهرين ، وعرج فى طريقه على دمشق ، ونظم شئون السلطنة فيها ؛ ووصل إلى الصالحية فى ١٦ ذى القعدة أى بعد موقعة المنصورة بعشرة أيام ، فاستقبله هنالك نائب السلطنة الأمير حسام الدين وكبار رجال الدولة وتسلم مقاليد الملك بصفة رسمية ، وأعلنت عندئذ وفاة الملك الصالح لأول مرة ، وكانت شجرة الدر طوال هذه الفترة تحرص على كتمان موته ، وتؤكد لرجال الدولة والقادة أن السلطان مريض لا سبيل إلى الوصول إليه .

وكانت فترة عصيبة استطالت زهاء ثلاثة أشهر، ولكن شجرة الدر لم تفقد ثباتها لحظة واحدة، وحالفها التوفيق فاستطاعت أن تسهر على وحدة الدولة وسلامة المملكة، وأن تؤدى مهمتها الفادحة بنجاح منقطع النظير.

وفى اليوم الحادى والعشرين من ذى القعدة وصل الملك المعظم فى ركبه إلى المنصورة ودخل قصر أبيه، فاستقبلته شجرة الدر بحفاوة وسلمت إليه مقاليد الأمور. وكان حريًّا أن تنال شجرة الدر شكره وعرفانه، لما أسدت إلى الوطن والعرش فى تلك الآونة العصيبة من جليل الخدمات، ولما يدين لها من فضل ترشيحه للملك وأخذ العهد له فى غيبته. ولكن توران شاه كان أبعد من أن يشعر نحو تلك المرأة القوية بشكر الصنيعة، بل كان بالعكس يخشاها ويتوجس من سلطانها ونفوذها، وسرعان ما تنكر لها وبعث إليها وهى بالقاهرة يهددها ويطالبها بأموال أبيه وذخائره، فقيل إنها التجأت حيناً إلى بيت المقدس خيفة بطشه وغدره [1]. وكان الملك المعظم فتى نزقاً عنيف الأهواء، فأساء السيرة وبطش بكثير من رجال الدولة وحطهم عن مراكزهم، واضطهد مماليك أبيه الملك الصالح، فنقم عليه أكابر الدولة وزعماء المماليك وتغيرت نفوسهم عليه وأخذوا يتربصون الفرص لإزالته من طريقهم.

وفى أثناء ذلك كان الفرنج فى مراكزهم فى حيرة واضطراب، وكانت المؤن تأتيهم فى السفن من دمياط عبر النيل، فدبر المسلمون خطة لقطع المؤن عنهم والبطش بهم، وصنعوا عدة سفن قطعاً متفرقة حملت على ظهور الجمال ثم أنزلت فى النيل على مقربة من دمياط وشحنت بالمقاتلة. فلما جاءت مراكب الفرنج محملة بالميرة هاجمها المسلمون بشدة وحطموها وغنموا ما فيها من العدد والأقوات، وأسروا عدداً كبيراً من الفرنج، فاشتد الضيق بالفرنج وساءت حالهم. وفى التاسع من ذى الحجة قدم من دمياط أسطول افرنجى جديد مشحون بالأقوات والمؤن، فلقيته سفن المسلمين على مقربة من دمياط واستولت منه على اثنتين وثلاثين سفينة (مارس سنة ١٢٥٠ م) فتفاقم الأمر على الفرنج، ودب إليهم الجوع والوهن، وأخذ المرض يتفشى فيهم؛ وكانت النيران التى تطلقها حراقات المسلمين على معسكرهم، تزيد فى بؤسهم وكربهم،

---

(١) النجوم الزاهرة (عن ابن قزاوغلى) ج ٦ ص ٣٧١ و ٣٧٣.

وكان لويس التاسع بالرغم من هذا الموقف الخطر يأبى الارتداد حتى غلب نصح امرائه وقادته ، فاعتزم مفاوضة المسلمين على نفس الشروط التى قبلها الملك الكامل سنة ١٢١٩ هـ . وهى أن يرد الفرنج دمياط إلى المسلمين على أن يستردوا بيت المقدس ؛ ولكن المسلمين لم يقبلوا المفاوضة على هذا الأساس لما يعلمونه من تفاقم حالة الفرنج . فعندئذ بلغ اليأس بالفرنج مبلغه ، وعولوا على الارتداد شمالا نحو دمياط ، وأحرقوا خيامهم وعتادهم . وفى مساء يوم الثلاثاء الثانى من محرم سنة ٦٤٨ هـ (١٥ ابريل سنة ١٢٥٠ م) بدأ الفرنج ينسحبون تحت جنح الظلام ، وسارت سفنهم فى النيل قبالتهم ، ولكن المسلمين كانوا ساهرين يرقبون حركة الفرنج ، وعندئذ جازت قواتهم فوق الجسر الذى أنشأه الفرنج على بحر أشموم ، وطاردوهم بشدة ، فما أسفر الصبح حتى أحاطوا بهم من كل صوب ، وكانت الموقعة الشهيرة فى تاريخ مصر وتاريخ الحروب الصليبية ، وفيها هزم الفرنج هزيمة شديدة ، ومزقوا شر تمزيق ، وقتل وأسر منهم ألوف عدة وغنم المسلمون معظم خيولهم وعتادهم وأموالهم .

ولجأ لويس التاسع ، أو ري أفرنس[1] كما تسميه الرواية المصرية ، فى نفر من خاصته وقادته وفرسانه إلى قرية منية أبى عبد الله الواقعة على النيل على مقربة من فارسكور وطلب الأمان من المسلمين فمنح الأمان ، واقتاده الطواشى جمال الدين محسن مع صحبه من الكبراء وعدتهم نحو خمسين إلى المنصورة ، وهنالك اعتقل ملك فرنسا فى دار القاضى فخر الدين بن لقمان ووضع القيد الحديدى فى يديه ، ووكل بحفظه الطواشى صبيح المعظمى[2] . وفى بعض الروايات أن لويس التاسع اقتيد إلى معتقله معززاً مكرما[3] . وكان نصراً باهراً لم يسمع بمثله منذ أيام السلطان الناصر صلاح الدين .

وسار الملك المعظم توران شاه من المنصورة إلى فارسكور ، وهنالك نصب

---

(١) رى أفرنس أو ريد افرنس هى مقابل الفرنسية القديمة Roy de France أو ملك فرنسا . ولم يفت الرواية الاسلامية حقيقة شخصيته وأهمية مقامه . قال ابن واصل مؤرخ العصر : « وكان هذا اريد افرنس من أعظم ملوك الفرنجة وأشدهم بأساً . وإفرنس هى أمة الفرنج ومعنى ريد افرنس ملك إفرنس فى لغتهم معناها الملك » (مفرج الكروب) .

(٢) السلوك فى دول الملوك ج ١ (٢) ص ٣٥٦ .

(٣) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٦ .

الدهليز السلطانى ، وأقام السلطان إلى جانبه برجاً من الخشب ، وانكب على لهوه وملاذه . وأرسلت البشرى إلى سائر الأنحاء فعم السرور والفرح فى العاصمتين القاهرة ودمشق . وجاء فى رسالة السلطان إلى نائبه فى دمشق الأمير جمال الدين بن يغمور فى تفصيل الموقعة ما يأتى : « نبشر المجلس السامى الجمالى بل نبشر المسلمين كافة بما من الله به على المسلمين من الظفر بعدو الدين ؛ فانه كان قد استفحل أمره واستحكم شره ، ويئس العباد من البلاد والأهل والأولاد ، فنودوا لا تيأسوا من رحمة الله . ولما كان يوم الاثنين مستهل السنة المباركة فتحنا الخزائن وبذلنا الأموال وفرقنا السلاح وجمعنا العربان والمطوعة وخلقاً لا يعلمهم إلا الله ... فلما كان ليلة الأربعاء تركوا خيامهم وأموالهم وأثقالهم وقصدوا دمياط هاربين وما زال السيف يعمل فى أدبارهم عامة الليل ، وقد حل بهم الخزى والويل . فلما أصبحنا يوم الأربعاء قتلنا منهم ثلاثين ألفاً غير من ألقى نفسه فى اللجج . وأما الأسرى فحدث عنه البحر ولا حرج . والتجأ الفرنسيس (يريد ملك فرنسا) إلى المنية وطلب الأمان فأمناه وأكرمناه ، وتسلمنا دمياط بعون الله وقوته وجلاله وعظمته . »

والظاهر أن نصر المسلمين على الفرنج وشعورهم بزوال الخطر الداهم كان نذيراً باضطرام الخلاف الداخلى . ذلك أن الملك المعظم أساء السيرة كما قدمنا ، واضطهد كثيراً من رجال الدولة وزعماء المماليك البحرية ، ووضع فى مناصبهم رجالا من خاصته وأصدقائه ، الذين قدموا معه من المشرق ، وأخذ يهدد زوج أبيه شجرة الدر ويطالبها بأموال أبيه وذخائره ، فغضب الأمراء وأكابر الدولة لتصرفاته . وغضب المماليك البحرية لمناوأته إياهم وكذلك لمسلكه الخشن نحو شجرة الدر ونكران فضلها فى ضبط المملكة والتمهيد لجلوسه على العرش . وسرعان ما أخذت عوامل السخط تعمل عملها ، وكتبت شجرة الدر من القاهرة إلى زعماء المماليك البحرية تشكو أمرها وتطلب حمايتهم . وشعر المماليك البحرية بما يضمره السلطان لهم من الكيد والغدر ، فاتفقوا على قتله قبل أن يبطش بهم . وليس هناك ما يدل على أن شجرة الدر قامت بتحريضهم على ارتكاب مثل هذه الجريمة أو أنها اشتركت معهم فى تدبيرها ، ولكن المؤامرة دبرت ونفذت بسرعة فى المعسكر السلطانى . والظاهر أن الذى دبرها بالأخص اثنان من زعماء البحرية هما بيبرس البندقدارى وفارس الدين أقطاى . وفى مساء يوم الإثنين ٢٧ محرم

(٦٤٨هـ) أعنى بعد كسرة الفرنج بنحو ثلاثة أسابيع كان السلطان يجلس إلى السماط فى خيمته، وكان زعماء الحلقة قد دعوا لتناول الطعام معه، فما كاد ينتهى الطعام، حتى اقترب الفارس بيبرس من السلطان وضربه بسيفه ضربة تلقاها السلطان براحته فشقت إلى الذراع، فوقع الهرج فى المخيم السلطانى وهرع السلطان مع بضعة من خاصته إلى البرج الخشبى الذى أقيم وراء المعسكر واحتمى بأعلاه، فأسرع زعماء الحلقة فى أثره وفى مقدمتهم بيبرس وأقطاى وأخذوا يرمونه بالنبال، ثم ألقوا النار على البرج فاحترق ونزل السلطان وهو يصيح طالباً الغوث والنجدة دون أن يتحرك إنسان لنجدته، وتلقاه البحرية بالسيوف من كل ناحية وأثخنوه جراحا، ولكنه استمر فى ركضه حتى ألقى بنفسه فى النيل وهم فى أثره، وأجهز عليه الفارس أقطاى بطعنة قاضية، ثم حملت جثته إلى الجسر وبقيت هنالك ثلاثة أيام فى العراء ثم دفنت فى مكانها بلا احتفال ولا تكريم.

٧

وهكذا هلك الملك المعظم توران شاه فى غمر دامية، فى عنفوانه، ولم يطل حكمه أكثر من خمسة أسابيع. وشاء القدر أن يختتم بموته ثبت ملوك بنى أيوب وأن ينتقل عرش مصر من بعده إلى أسرة ملوكية جديدة.

وهنا عرضت مشكلة دقيقة هى: من يخلف الملك القتيل على العرش؟ بيد أن البحرية لم يجدوا صعوبة فى حل تلك المشكلة. وكانت شجرة الدر فى قصرها بقلعة الجبل ترقب الحوادث، وكانت هذه المرأة الموهوبة التى أثبتت بخلالها القوية أنها أقدر من عظماء الرجال تلوح لهم معقد الآمال، ومن ثم فقد اجتمع زعماء البحرية ورجال الدولة وأمراء الجند فى المعسكر السلطانى واتفقوا على ترشيح شجرة الدر لتبوء عرش مصر الإسلامية.

أجل! كان تنصيب الملكات فى الإسلام بدعة لم يسبق لها مثيل ولم تجلس من قبل امرأة على عرش دولة مسلمة مستقلة. ولكن ألم يكن من الممكن أن تستمد السوابق من نواح أخرى؟ لقد جلس فى العصور الغابرة على عرش مصر ملكات عظام، وكانت الروايات والأساطير الذائعة يومئذ عن تاريخ مصر القديمة تذكر كثيراً من أولئك الملكات، وكانت منهن على الأقل واحدة شهيرة معروفة

تحيطها الأسطورة بكثير من الجلال والروعة وهى كليوباطرة أو كلابطرة كما تسميها الرواية العربية [1] بيد أنه كان ثمة سوابق أخرى أقرب وأكثر ذيوعا ؛ فقد كانت الدولة البيزنطية (دولة الروم) وهى جارة مصر من الشمال دولة عظيمة يقود مصايرها القياصرة. ولكن ألم تجلس الملكات (القيصرات) أيضاً على عرش القياصرة ؟ أجل! جلس منهن قبل شجرة الدر اثنتان هما الإمبراطورة ايرينى معاصرة الخليفة المهدى وولده هرون الرشيد، وهى التى تعرفها الرواية الاسلامية باسم « رينى » والامبراطورة تيودورا معاصرة الخليفة المستنصر بالله الفاطمى. وكان مثل تيودورا بالأخص معروفا فى مصر ؛ فقد بعث إليها المستنصر بالله الفاطمى سفارته الشهيرة سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) أيام الشدة العظمى يستمد منها القوت والعون فلم تحقق رجاءه ووقعت الحرب بين الدولتين. وإذن فلم يك تنصيب الملكات بدعة فى الدول العظيمة. فلماذا لا تجلس على عرش مصر امرأة كما جلست النساء على عرشها من قبل وكما تجلس النساء على عرش القياصرة؟

اتفق رأى الزعماء والقادة على تولية شجرة الدر، وأن تخرج التواقيع السلطانية باسمها، وأن يكون مقدم الجند الأمير عز الدين أيبك التركمانى أحد زعماء البحرية [2]. وأخذت البيعة للملكة الجديدة فى اليوم العاشر من صفر سنة ٦٤٨ هـ (مايو سنة ١٢٥٠ م) وحمل البشرى إليها الأمير عز الدين، فابتهجت لما وقع وبدأت عهدها الجديد كملكة لمصر الإسلامية.

وكانت ولاية شجرة الدر حادثاً فريداً فى التاريخ الاسلامى. وإذا استثنينا ما يقدمه لنا تاريخ بعض الإمارات الهندية المسلمة فانه لم يحدث قط فى أية مملكة مسلمة أن تولت الملك امرأة [3] وكذلك لم يجلس بعد شجرة الدر إلى يومنا امرأة قط على عرش مملكة مسلمة مستقلة.

---

(١) ابن خلدون ج ٢ ص ٢٠٠.

(٢) ابن واصل فى « مفرج الكروب » (مخطوط ج ٢ لوحة ٣٧٢).

(٣) وأشهر ما يقدمه إلينا تاريخ الامارات الهندية المسلمة فى ذلك هو مثل السلطانة رضية ملكة دهلى (دلهى) التى وليت الملك عقب مقتل أخيها فى أواسط القرن السادس الهجرى واستقلت بالملك أربع سنين. وكانت تركب سافرة كما يركب الرجال (راجع رحلات ابن بطوطة — مصر — ج ٢ ص ٢٢). وظهرت أيضاً فى أوائل القرن السابع فى بلاد خوارزم وخراسان أميرة أو ملكة عظيمة الشأن هى تركان خاتون والدة السلطان محمد بن تكش وكانت ذات سطوة وسلطان (أبو الفدا ج ٣ ص ١٤٨).

وكان للحادث أعظم وقع فى العالم الاسلامى، حتى قيل إن الخليفة المستعصم بالله العباسى نعى على مصر أن تجلس على عرشها امرأة وأرسل إلى بلاط مصر يقول: «إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلا[(1)].» ونعاه بعض فقهاء العصر واعتبروه خروجاً على الدين، وشعر الزعماء الذين ولوا شجرة الدر أنفسهم بهذا الشذوذ، ومن ثم كان اختيارهم للأمير عز الدين أيبك ليكون مقدما على المعسكر وليعاون شجرة الدر فى نفس الوقت على تصريف الشئون.

وقبضت شجرة الدر على زمام الأمور بحزم، وكانت يومئذ فى نحو الأربعين من عمرها تفيض قوة وعزماً، واختارت لوزارتها الصاحب بهاء الدين على بن محمد المعروف بابن حنا، وكان أول عهده بالوزارة، واتخذت لنفسها طائفة من الألقاب الطريفة؛ فهى الملكة عصمة الدين شجرة الدر، وهى «الستر العالى» «والدة خليل» وهو ولدها المتوفى من الملك الصالح. وكانت هذه علامتها على الأمور والمراسيم، ودعى لها على المنابر بدعوات جديدة مبتكرة مثل «اللهم أدم سلطان الستر الرفيع والحجاب المنيع ملكة المسلمين والدة الملك خليل» ومثل «واحفظ اللهم الجهة الصالحية ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين أم خليل المستعصمية صاحبة الملك الصالح». وكذلك نقش اسمها على السكة بالعبارة الآتية «المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة الملك المنصور خليل أمير المؤمنين[(2)].» وقد اعتقد العلامة الاستاذ لاين پول أن هذه الألقاب تدل بأن شجرة الدر كانت جارية للخليفة المستعصم[(3)] قبل أن تكون جارية للملك الصالح. ولكن هذا الاستنتاج بعيد الاحتمال. وأكبر الظن أن كلمة «المستعصمية» التى أطلقت على شجرة الدر كانت تعنى انضواءها تحت لواء الخليفة العباسى من الوجهة الدينية مثل ما كان عليه سلاطين آل أيوب إذ كانت ترد إليهم الخلعة والتشاريف عند تولى الملك من الخليفة العباسى.

وكان أول ما عنيت به الملكة شجرة الدر هو تصفية الموقف مع الفرنج

---

(1) السلوك ج 1 (2) ص ٣٦٨ وابن إياس ج ١ ص ٨٩. والسيوطى فى حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٩.

(2) راجع كتاب الأستاذ لاين پول المشار إليه ص ٢٥٥.

(3) وتوجد فى المتحف البريطانى قطعة من النقود من عصر شجرة الدر تحمل الألقاب المشار إليها وهى القطعة الوحيدة من نوعها (يراجع A History of Egypt, by Lane Poole, p. 255, note)

وإجلائهم عن الأراضى المصرية ، فندبت الأمير حسام الدين محمد نائب السلطنة السابق لمفاوضة الملك الأسير لويس التاسع . وكان ثمة جماعة من الزعماء يؤثرون الاحتفاظ به وعدم إطلاق سراحه ، ويرون فى ذلك مصلحة كبيرة لمصر والاسلام . ولكن المفاوضات انتهت بالاتفاق على الافراج عنه وعن باقى الأمراء المأسورين معه لقاء فدية قدرها ثمانمائة الف دينار ، وأن يسلم الفرنج دمياط فوراً للمسلمين ، وأن يطلقوا جميع الأسرى المسلمين ، وأن يطلق المسلمون كذلك أسرى الفرنج المعتقلين منذ أيام العادل والكامل والصالح ، ثم خفضت الفدية المشترطة بعد ذلك إلى نصفها أى إلى أربعمائة الف دينار . وكانت مرجريت دى بروڤانس ملكة فرنسا وزوج الملك الأسير يومئذ فى دمياط تعانى آلام المرض والمحنة ، فبذلت لجمع الفدية المطلوبة جهوداً فادحة ؛ ودخل المسلمون دمياط فى الثالث من صفر (٦٤٨ هـ) وعلى أثر ذلك أفرج عن الملك لويس التاسع وزملائه من الأمراء ورجال الدولة ؛ وكان من رفاقه فى المعتقل مستشاره ومترجمه المؤرخ دى چوانڤيل وهو الذى ترك لنا عن أخبار الحرب الصليبية السابعة وحوادث مصر يومئذ مذكرات قيمة شائقة [1] . وغادر الفرنج أراضى مصر تواً وركب لويس التاسع وفلول جيشه ومن أفرج عنه من أسرى الفرنج وقد بلغوا يومئذ عدة آلاف ، البحر فى سفنهم إلى ثغر عكا وكان ذلك فى شهر مايو سنة ١٢٥٠ م .

وهكذا سحقت تلك الحملة الصليبية العتيدة فى الأراضى المصرية ، وقامت مصر عندئذ بدورها التاريخى مرة أخرى فردت عادية الغزاة الصليبيين عن مصر وبلاد المشرق ، وعملت على حماية الإسلام والمدنية الاسلامية من عدوان هذه الحملات البربرية ، وقضت على قوة من أعظم القوى النصرانية التى سيرت لغزو مصر باسم الدين .

وقد ترك لنا الشاعر الكبير جمال الدين بن مطروح نائب دمشق فى تلك الموقعة أبياتاً شهيرة ما زالت ترددها الأجيال يقول فيها :

قل للفرنسيس [2] إذا جئته ... مقال نصح من قؤول فصيح
آجرك الله على ما جرى ... من قتل عباد يسوع المسيح

(١) وقد وضعها دى جوانڤيل De Joinville, *Histoire de St. Louis* (تاريخ القديس لويس) ولها ترجمة انجليزية بعنوان : *Memoirs of the Crusades* .

(٢) يريد هنا لويس التاسع ملك فرنسا .

أتيت مصر تبتغي ملكها تحسب أن الزمر ياطبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم بحسن تدبيرك بطن الضريح
سبعون ألفاً لا يرى منهم إلا قتيل أو أسير جريح
وفقك الله لأمثالها لعل عيسى منكم يستريح
إن كان باباكم بذا راضياً فرب غش قد أتى من نصيح
وقل لهم إن أضمروا عودة لأخذ ثأر أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها والقيد باق والطواشي صبيح

محمد عبد الله عنان

(للبحث بقية)

الطفولة والصبا

عند مايقترب الإنسان من نهاية العمر يشرع ذهنه فى سرد الذكريات التى حفلت بها بدايته . وأجدنى فى الوقت الحاضر أدنو من عتبة الستين ، وأسأل وأتساءل عن الأصل والأرومة وعن العوامل الوراثية والبيئية التى تكونت منها هذه الشخصية التى قد تزول بعد بضع سنوات ، إذا اعتبرنا متوسط الأعمار فى مصر ، أو قد يمتد بها العمر عشر سنوات أو عشرين سنة أخرى ، وهو متوسط السن فى عائلتنا .

وقد رأيت القرن التاسع عشر بعين الطفولة . ورأيته وهو خلو من الغش لم يلابسه شىء من مخترعات القرن العشرين . وهذا مالا يستطيع أن يقوله أوربى لأن إرهاصات القرن العشرين كانت تبدو واضحة فى أواخر القرن التاسع عشر فى أوربا أما فى مصر فقدحدث العكس ، وهو أن تراث القرن التاسع عشر بل بعض القرون التى سبقته بقيت عالقة ببداية قرننا هذا . وما زلنا فى سنة ١٩٤٦ نرى هذا التراث على أثقله فى طبقاتنا الفقيرة . وليس هذا من ناحية الوسط فقط حيث الفقر المذل ، بل من ناحية النفس أيضا ، حيث الرضا بالحظ المقسوم والايمان بالخرافات والتسليم بالنظم الاقطاعية كأنها الشىء الطبيعى لمجتمعنا .

أجل ! لقد ركبت الحمار من محطة القاهرة إلى عابدين ، ورأيت الجاموسة تحضر كل يوم من العزبة إلى منزلنا بالزقازيق كى تحلب ثم تعود . وضربت من أختى لأنى ناديتها باسمها من الشارع ؛ إذ كان يعد من الشعائر الاجتماعية العامة ألا تعرف أسماء الفتيات . وعشت فى الزقازيق حين لم تكن تعرف المصابيح ، حتى إننا كنا حين نزور بعض أقاربنا ، نحمل معنا « فانوساً » نسترشد به فى ظلام الشوارع. ورأيت أحد المجرمين يشنق فى ميدان الزقازيق، وبقيت نحو عام وأنا أفزع من اسمه ، وكان يدعى سيد أهله . ولم أكن أستطيع النوم إلا وأنا متعلق

بعنق أمى ، ولم أكن أستطيع الدخول فى المرحاض إلا بمرافقة الخادم . وكان من المألوف الذى كنا لا نحس فيه وخزاً أو عيباً أن يجرى خلفنا الفلاح نحو ساعة ونحن على الحمير وهو يلهث كأنه والحمار سواء .

وكانت لنا دار « قوراء » فى الزقازيق تتسع لحمار أو بغل فى فنائها الذى يستقبل السماء وتفرش أرضه أشعة الشمس . وكانت هذه المطايا أتومبيلات العائلة وفقاً لشعائر القرن التاسع عشر . ولعل إرماد عينى فى صباى كان يعود إلى روث هذه البهائم .

والزقازيق بلدة جديدة لا يرجع تاريخها إلى أكثر من ثمانين عاماً . وجميع عائلاتها لهذا السبب ينتمون إلى بلدان أخرى . وكذلك كانت أسرتى فانها ترجع إلى البياضية فى مديرية أسيوط . وقد تركنا البياضية منذ نحو ١٤٠ سنة أى فى نهاية الحكم الفرنسى وبداية حكم محمد على . وأسرتنا فى مديرية الشرقية تعرف بلقب « العفى » ولا يزال هذا اللقب فى البياضية على الرغم من فرقة تقارب قرناً ونصف قرن . والأصل والفرع يعيشان فى يسر ؛ فان عمدة البياضية لا يزال من عائلة العفى . ولكن ليس هناك أى تعارف بين أعفياء البياضية وأعفياء الشرقية . ولم تزر هذه القرية منذ ١٤٠ سنة .

أما لماذا هجر فرعنا الحاضر فى مديرية الشرقية هذه القرية الصعيدية ، فاننا نجهل تفاصيله ، ولكنى أرجح هذا التفسير التالى :

لما غزا نابليون مصر فى أواخر القرن الثامن عشر انتعش الأقباط . ولم يكن الشعب المصرى ، مسلمين ومسيحيين ، يحس الوجدان الوطنى الذى نحسه فى عصرنا ، وذلك لأن الوجدان الدينى كان يقوم مقامه . وفرح الأقباط بدخول نابليون واستطاعوا أن يجرءوا على تغيير ملابسهم وأن يرحلوا عن قراهم فى الصعيد إلى القاهرة وبلدان الوجه البحرى . وكانوا إلى ذلك الوقت يتعممون بالعمائم السود مع أزياء أخرى يختصون بها ويتخذونها مضطرين منذ القرون المظلمة . وكانت هذه الأزياء الخاصة تمنع تنقلهم وارتيادهم مدن القطر . فلما جاء نابليون نزعوا هذا الزى واتخذوا الزى المصرى العام الذى كان ينفرد به إخوانهم المسلمون ، وبذلك أتيح لهم التنقل . وأنا أعد هذا السبب الأصلى لنزوح أبى جدى من البياضية إلى القاهرة ، ثم إلى القراقرة فى مركز منيا القمح ثم إلى الزقازيق .

ومما يؤيد هذا التفسير قول الجبرتي في حوادث ١٢٣٣ هجرية :

« فيه نودى على طائفة المخالفين للملة من الأقباط والأروام بأن يلزموا زيهم من الأزرق والأسود ولا يلبسون العمائم البيض ؛ لأنهم خرجوا عن الحد في كل شيء . ويتعممون بالشيلان الكشميرى الملونة والغالية في الثمن ، ويركبون الرهوانات والبغال والخيول ، وأمامهم وخلفهم الخدم يطردون الناس عن طريقهم . ولا يظن الرائى لهم إلا أنهم من أعيان الدولة . ويلبسون الأسلحة وتخرج الطائفة منهم إلى الخلاء ويعملون لهم نشانا يضربون عليه بالبنادق الرصاص وغير ذلك . فما أحسن هذا النهى لو دام . »

ولكنه لم يدم كما اشتهى العالم الأزهرى الجبرتي . ويبدو أن الأقباط والأروام عادوا فتوسلوا بالقناصل الفرنسيين والايطاليين إلى محمد على فألغى هذا التمييز ، فاستطاع الأقباط أن يختلطوا بسائر الشعب وأن يرحلوا ويتنقلوا كما شاءوا . وواضح أن الأزياء السابقة التي كانوا يتخذونها منذ الحاكم بأمر الله كانت تجمدهم في قراهم لأنهم كانوا إذا انتقلوا إلى مدينة غريبة صاروا عرضة ، على الأقل ، للتهزئة والتعيير ، إن لم يكن لأكثر من هذا .

وهجر أبو جدى قرية البياضية حوالى ١٨٠٠ أو ١٨١٠ في عمامة بيضاء . وكان هذا من الانتصارات الخطيرة للقرن التاسع عشر على القرون السابقة .

وجميع أفراد عائلتنا يعدون بحسب الترتيب المزاجى لكرتشمر، انطوائيين. يتسمون بالوجه الطويل والقامة النحيفة والاعتكاف أو كراهة الاختلاط . وأحيانا يبدو هذا المزاج في مبالغة شاذة حتى إنى أعرف أشخاصاً في أسرة العفى عاشوا كأنهم كانوا رهبانا يتوقون المجتمع ولا يحضر أحدهم عرساً أو جنازة إلا بضغط ، وقد لا يجدى الضغط . ولكن هذا الشذوذ كان بالطابع نادرا .

ومات أبى ولما يبلغ عمرى السنتين . ونشأت لذلك في بيت لا يزوره ضيف ، إلا إذا كان من الأعمام أو الأخوال ، فزادنى هذا الظرف انزواء على ما ورثت من المزاج الانطوائى . وقد صار هذا الانزواء بعد ذلك فضيلتى ورذيلتى معاً . فقد كانت تمضى علىّ السنة والسنتان لا أعرف فيها القعود على القهوة . كما أنى إلى الآن أجهل ألعاب الحظ البسيطة بالورق أو غيره مما يتسلى به غيرى . وما زلت أفرّ من المجتمعات في استحياء أو كراهة . ومع أنى أحسن الكتابة فانى أسىء

الخطابة ؛ لأن الأولى تؤدى فى انفراد ، والثانية تحتاج إلى مجتمع . وقد عانيت كثيراً من هذا النقص الاجتماعى فى حياتى بعد ذلك ولكنى أعزو إلى انطوائيتى هذا الاعتكاف فى مكتبتى، وهو الذى بسط لى آفاقاً واسعة وأمتعنى بجنات نضرة وغرس فى نفسى ديانة بشرية سامية .

وأولى الذكريات التى تمثل فى ذهنى من أيام الطفولة ، صورة أمى وهى قاعدة إلى فراشى تصلى من أجلى وأنا مريض . ولا أعرف كنه هذا المرض الذى ألزمنى الفراش نحو عام أوعامين . والأغلب أنى مرضت به وأنا فى الخامسة أو السادسة ، ولعله كان حمى الملاريا ؛ لأن الزقازيق كانت فى ذلك الوقت حافلة بالبرك الآسنة . ولما قاربت الشفاء كان خادمنا عطية يحملنى إلى ضريح ولىّ مسلم يدعى أبا عامر . ولا يزال ضريحه قائماً بقرب الزقازيق . وكان يشترى الشمع ويتصدق بقروش ، ويدور بى حول الضريح ويتمسح به ويقرأ الفاتحة جملة مرات وأنا على عاتقه . وكان عطية متعلقاً بى يهمل شئون البيت كى يقعد بجوارى ويلاعبنى وأنا مريض . وبقى أكثر من عشر سنوات بعد ذلك بمنزلنا . وكان حبه لى ساذجاً يطغى ، فكان يلقمنى الطعام حتى أعجز عن البلع . وكان هذا العجز علامة الشبع عنده . ولم يتركنا الا بعد أن اشترى فدانا وآثر الفلاحة على الخدمة المنزلية .

وأدخلت الكتّاب،ولم تكن بدعة المدارس قد ظهرت فى الزقازيق ، وقضيت من السنين مالا أذكره وأنا أجهل القراءة . وكانت غاية العريف أن يعلمنى عن ظهر قلب بعض الصلوات . فلما حفظت « نعظمك يا أم النور » وهو دعاء إلى العذراء ، رافقنى إلى البيت وقعد هو أمام أمى وانطلقت أنا أسرد الدعاء . وناولته أمى على أثر ذلك جنيهاً .

وتألفت فى الزقازيق جمعية خيرية من الأقباط ، وكان أول نشاطها أن أنشأت مدرسة « عصرية » أى إنه كان بها مقاعد من الخشب ومعلمون فى زى أوربى . وانتقلنا من الكتاب إليها . وشرعنا نتعلم وندرس فى جد . ثم ظهرت المدرسة « الأميرية » فدخلناها . وكان التلاميذ يلبسون الجلابيب إلى أن زار الخديوى عباس هذه المدرسة حوالى ١٨٩٩ فطالبونا باتخاذ الزى الأوربى . وحصلت المدرسة من كل تلميذ على ٢٥ أو ٣٠ قرشاً ثمن بذلة بيضاء لكل منا . وزارنا الخديوى ونحن فى هذا الزى الأبيض الناصع . ولم نعد بعد ذلك إلى الجلابيب .

ولا يستطيع مصرى التحق بالمدارس المصرية الابتدائية والثانوية الأميرية فيما بين ١٩٠٠ و ١٩٢٠ أن يقول إنه كان هنيئاً بالحياة المدرسية . فقد كانت هذه المدارس ثكنات ، وكان كل مايستحق الاهتمام فيها هو النظام أى الطاعة . ولم نكن نعرف ذلك الروح الديمقراطى الذى يعم المعاهد التعليمية فى هذه السنين . وكذلك لم تكن هناك أية ألفة بين المدرس والتلميذ . وكانت هذه الصفات أبرز فى المدارس الثانوية منها فى المدارس الابتدائية ، حتى كان العام يمر والتلاميذ لا يعرفون اسم المعلم الانجليزى الذى كان ينطق صمته قبل حديثه بالغطرسة . وكان المعلم يسرع إلى العقوبة لأقل إيماءة مخالفة من التلميذ وكانت العقوبة المألوفة أن يحرم التلميذ من الغداء ويعطى رغيفاً يأكله وهو واقف إلى جنب زملائه القاعدين إلى المائدة . ولست أظن أنه كان يقصد بهذه العقوبة سوى تعميم الذلة والهوان بيننا .

وكان التعليم فى المدارس الابتدائية أقل ذلة ، لأن المعلمين كانوا مصريين ، ولكن حتى هنا كان القرن التاسع عشر يثب علينا بأساليب فى الضغط والعربدة . فكان المعلم أحياناً يعمد إلى أسلوب فى العقاب يفشى بيننا الكراهة والوقيعة . ذلك أنه إذا أخطأ أحدنا وردّه تلميذ آخر إلى الصواب عمد هذا الثانى إلى لطم الأول على خده . فاذا تلطف هذا الضارب وأدى العقوبة تأدية شكلية استعاده المعلم وطالبه بالضرب الجدى . فاذا انطلقنا بعد ذلك من الفصل فى الفسحة أمسك المضروب بخناق الضارب وانتقم منه .

ولكننا كنا نهنأ بالإجازات المدرسية التى كنا نقضيها فى الريف . وهى لاتزال تبرز فى ذهنى كأجمل وأنصع ذكرياتى . وفى هذا الريف اكتسبت كثيراً من الاختبارات التى لاتتحقق لأطفال المدن . وكانت قريتنا تبعد عن الزقازيق نحو ساعة على الحمار . وكنا نلعب مع صبيان المزارعين إلى الساعات الأولى من الصباح . وأحياناً كنا ندبر السرقات فى الحقول للخيار أو البطيخ . ولا يزال عالقاً بذاكرتى بعض الاقتحامات والصبوات . فقد تسلقت ذات مرة شجرة كان فى أطرافها العليا عش . فلما بلغته وجدت فيه فرخى غراب . فأمسكتهما بيدى وشرعت أهبط . ولكنى ما كدت أترك العش حتى وجدت ثورة من اللطم المؤلم والعض الشنيع تغمر رأسى ووجهى . وطار عقلى وأنا فى هذا الاضطراب ، فلم أتنبه إلى أن هذه الثورة هى أم الفرخين يساعدها أب أو عم . ولو

كنت أدركت تخليت عن الفرخين ونزلت فى سلام . ولكنى لفرط الألم والرعب بقيت فى غشية مغمض العينين وأنا ممسك بالفرخين أتحسس طريقى الخطرة على فروع الشجرة إلى أن مسست الأرض . وهنا أفقت وفتحت عينىّ فوجدت ثلاثة أو أربعة من الغربان وهى تصرخ بى وتسب وتهاتر بعد أن أثخنتنى وضرّجت رأسى ووجهى بالدماء .

ومرة أخرى فى إحدى جولاتى سمعت خشخشة فى ديس عند حرف القناة . فلما اقتربت وجدت جحراً وظننت أنى قد هبطت على عش سأخرج منه بغنيمة . فلما أدخلت يدى قبضت على جسم طرى ، فجررته فاذا به ثعبان .

ولكن الريف لم يكن كله على غرار هذه المفازع . فان مباهجه ، والآنسة الديمقراطية التى كانت تنعقد بينى وبين الصبيان الذين كانوا فى سنى ، والليالى التى كنا نحييها فى السمر أو اللعب ، والاستحمام فى النهر ، وركوب الفرس ، والجولة إلى السوق الأسبوعية ، ثم إلى ذلك معيشة الريف الساذجة ، كل هذا كانت تحفل به حياتنا فى الصبا ، وكنا نجد اهتمامات تشغلنا . ولم تكن كلها صبيانية ؛ فإنى أذكر أن ولادة الجاموسة حركت عقلى وقلبى جملة أيام ، وما زالت صورتها إلى الآن ترتسم فى مخيلتى وهى فى حرج الولادة تئن وتلهث وتتلفت ، وجميعنا حولها فى عطف نتألم لها ، وكان بعضنا يدعو لها بالسلامة كأنها صديق من البشر ، حتى خرج المولود بعينيه الواسعتين وهو يترنح ونحن نسنده وأمه تحنو عليه وتلحسه .

وحصلت على الشهادة الابتدائية فى سنة ١٩٠٣ . ولا أعرف بالضبط كم كان عمرى . لأن إثبات الميلاد لم يكن فى أيامنا من القواعد الصارمة . ولكن أغلب الظن أنى ولدت حوالى ١٨٨٨ . ودخلت السنة الأولى فى المدرسة الأميرية وأنا فى الحادية عشرة وهى السن التى نال فيها ابنى بعد ذلك هذه الشهادة . . . ومع ذلك كنت أعد من صغار السن فى الفصول ؛ إذ كان بيننا من بلغوا العشرين .

وعند ماأقارن بين ما تعلمته بالمدرسة الابتدائية بالضرب وسائر العقوبات بما تعلمته عفواً فى الريف من اختبارات فى الحياة ، أجد أن الريف قد علمنى أكثر وأكسبنى من المعارف الذهنية والروحية ما يعد تربية حقة ما زلت أنتفع بها إلى الآن . فقد اكتسبت من الريف هذا الحب للطبيعة الذى جعلنى أحس سائر

حياتى أن الأرض هى الأم . وأكاد وأنا فى الريف أشعر ، مثلما شعر ذلك الراهب فى قصة «الإخوة كرامازوف» لدستويفسكى ، حين انبطح على الأرض يقبلها ، أنى أحس مثل هذه العاطفة المقدسة . وظنى أن هذه العاطفة هى المبعث الذى انبعث منه بعد ذلك وجدانى الدينى البشرى واستطلاعى الدائم لعالمى النبات والحيوان واهتمامى بشئون العمال .

وكانت حياتنا بالريف سليمة من الناحية الصحية . فانه على الرغم من أننا كنا ندوس الحقول ونخوض القنوات بلا حذاء ونستحم فى النهر ، فاننا لم نعرف البلهارسيا أو الأنكلستوما . وذلك لأن التربة لم تكن قد استشبعت بالماء كما هى الحال الآن ، بعد أن عمت مشروعات الرى التى أحالت أرض القطر المصرى كلها تقريباً إلى عزبة لإنتاج القطن دون أى اعتبار لصحة الفلاحين . وأذكر أن التربة كانت أيام الجفاف تتشقق ، وكان عرض الشق يزيد على عشرة سنتيمترات ويغور نحو نصف متر . وفى مثل هذا الوسط لم تكن الديدان تستطيع الحياة . وكانت صحة الفلاحين سليمة وأجسامهم قوية . ولكن الانجليز المتسلطين على بلادنا وقتئذ رأوا أن إنتاج القطن خير لهم من صحة الفلاحين .

وكانت الحياة الدينية أبرز من الحياة الاجتماعية أو المدنية فى العائلات القبطية . وهذا على عكس ما نرى الآن . فانى أذكر أنه كان لعيد الميلاد رجة عظيمة تمتاز بمقدمات ولواحق . وكنا نعد له الأيام ونتهيأ بالملابس والنقل والذبائح . وكانت تفد إلى بيتنا عجوز تقضى فى كل عيد نحو شهر لا أعرف أصلها ولكنى أذكر اسمها خريستا وكانت تقص علينا الأساطير البديعة كما تصنع لنا أنواعاً من الكعك المزخرف .

وقد ورث الأقباط التعاليم الكنسية كما كانت حين تجمدت فى الدولة البيزنطية فيما بين القرن الرابع والقرن السادس . ولذلك كانت « العذراء » بارزة بروزاً يبرر وصف الأوربيين للعقيدة المسيحية فى مصر فى نهاية القرن الماضى وأوائل الحاضر بأنها « ماريلوجية » . ولكن انتشار المذهب البروتستنتى فى مصر استفز الكنيسة القبطية وأثارها إلى الوجدان المسيحى . وكثير من الأقباط يأسفون على انتشار المذهب البروتستنتى فى مصر ويجدون فيه شقاقاً لم يكن ضرورياً . ولكنى أظن أنه لولا هذا المذهب لما تنبهت كنيستنا ولما استيقظت من نعاس القرون الماضية .

وكانت المرأة ، مسلمة أو قبطية ، تعيش فى ظلام الحجاب لا تجالس الضيوف من الرجال . وكان هؤلاء يزورون أو يزارون فى « منظرة » لا تشترك فى لقائهم المرأة . وكان البرقع عامًّا لا تخرج امرأة إلا ووجها مقنع . وأذكر أن أمى وأخواتى المتزوجات التزمن البرقع إلى حوالى سنة ١٩٠٧و١٩٠٨ حين تركنه . وظنى أن هذا الترك كان من أثر البروتستنت أيضاً لأنهم كانوا ألصق بالغربيين وأكثر أخذاً بطرقهم منا نحن الأقباط الأرثوذكس .

سلامه موسى

الوعى فى الشعر

هل يستمد العمل الفنى عناصره كلها من الوعى ومعين الذهن ؟ أم هل يستمد عناصره كلها من « وراء الوعى » وينابيع الإلهام ؟ أم هل يزاوج بين الوعى وما وراء الوعى ويستعين بهذه القوى وتلك على السواء ؟

للإجابة على هذه الأسئلة يجب ألا نستشير القواعد النظرية وحدها ، فهذه القواعد قد تقودنا إلى منطق ذهنى بعيد عن الواقع العملى ، إنما يجب أن نستشير كذلك التجارب العملية التى عاناها بعض رجال الفن ، فلا نقضى فى الأمر فى غيبة عن شهوده المجربين .

وحين نقول « عناصر العمل الفنى » لا نعنى أن هذه العناصر منفصلة ، أو أنه يمكن البحث عن كل عنصر منها على انفراد . ولا نقع فى الغلطة التى وقع فيها القدماء كما وقع فيها كثير من المحدثين ، حينما راحوا يقسمون الكلام الفنى إلى لفظ ومعنى ، ثم راحوا يتجادلون : أيهما يكون فيه الابتكار ، وبه يكون تقويم الكلام .

ذلك جدل لا يؤدى إلى شىء ؛ فالعمل الفنى كله وحدة لا يقوم أحد عناصرها بذاته ، ولا يرى منفصلا عن بقية العناصر .

فإذا نحن تحدثنا عن العناصر المختلفة ، فذلك مجرد فرض يسهل علينا الفهم والتصور . تلك حقيقة أودُّ تقريرها بقوة ؛ وعندئذ لا يصبح من الخطر أن نتحدث عن عناصر العمل الفنى المسمى بالشعر .

كل من عانى نظم الشعر يعرف أن هناك مراحل يتم فيها هذا النظم ، وسرد هذه المراحل قد يساعدنا على تبين العناصر التى تبرز فى كل مرحلة منها بروزاً خاصًّا .

فهناك فى أول المراحل مؤثر تما يقع على الحس أو النفس فيسبب انفعالا على وجه من الوجوه . هذا المؤثر قد يكون حادثا ماديا ، أو حالة شعورية ، أو شيئاً ما بين هذين الطرفين المتباعدين : فقد يكون منظراً تقع عليه العين ، أو صوتاً يتسرب إلى الأذن ، أو تجربة نفسية تمر بالشاعر ، أو حكاية تجربة وقعت لسواه ... إلى آخر المؤثرات المادية والمعنوية التى يتعرض لها الفرد ، وتتعرض لها الإنسانية فى جميع الأزمان .

وهناك فى المرحلة الثانية استجابة لهذا المؤثر فى صورة انفعال . وهذه الاستجابة تتكيف بعوامل كثيرة ، منها طبيعة المؤثر ، ومدى حساسية المتأثر به ، وطبيعة مزاجه ، وتجاربه الشعورية الماضية ، وعدد ضخم من العوامل التى تجعل كل فرد يستجيب للمؤثرات المتحدة نوعا بطرق مختلفة كل الاختلاف عن استجابة الأفراد الآخرين .

هذا الانفعال الشعورى ينصرف معظمه إلى طاقة عضلية وعصبية عند غير الفنانين وينصرف أقله عن هذا الطريق عند رجال الفنون بينما معظمه ينصرف على صورة أخرى ، هى الصورة الفنية التى نسمى لونا منها بالشعر ... فكيف يتم هذا فى الشعر خاصة ؟

إن هذا الانفعال يتبلور فى صورة لفظية وإيقاع موسيقى يمتزج أحدهما بالآخر تمام الامتزاج ، ويؤديان فى اتحادهما إلى كلام ذى موسيقية خاصة ، يرمز إلى الخواطر والمشاعر التى صاحبت ذلك الانفعال فى النفس ، ويصور كذلك الجو الشعورى الذى عاش الانفعال فيه . وإذا نحن سمينا جانبا من هذه الخواطر والمشاعر « معانىَ » فإن جانبا منها لا تشمله هذه التسمية ولا تدل عليه ، وذلك هو جانب الجو الشعورى الذى عاشت فيه هذه المعانى ، واكتسبت منه ألوانها ودرجة حرارتها ، ومقدار اندفاعها ، ومدى ما ترمز إليه فى النفس من انفعال مبهم ليست الألفاظ إلا رموزاً له ، تشير إليه ولا تعبر عنه ؛ إنما يعبر عنه ذلك الإيقاع الموسيقى العام ، كما تعبر عنه الظلال الخاصة التى تلقيها الألفاظ بجرسها أو بالصور التى تنبعث منها والتى هى زائدة فى الحقيقة على معناها اللغوى الذى يفهمه الذهن منها .

وكثير من هذا الذى نقول يحتاج إلى تفسير . والمثال هو أقرب أدوات التفسير .

ونبعد مؤقتاً عن الشعر لندل على أن أوزان الشعر ليست وحـدها هي التي تحدد موسيقيته ، وأن الإيقاع الموسيقي الذي يعبر عن الجو العام قد يكون ناشئاً عن بناء الألفاظ ذاتها وطريقة تواليها في النص الأدبي ، ولو لم توجد التفعيلات والأوزان .

نأخذ مثالا من القرآن :

« كلا إذا دُكّتِ الأرضُ دكًّا دكًّا ، وجاء ربُّك والمَلَك صفًّا صفًّا . وجيء يومئـذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنَّى له الذكرى ؛ يقول يا ليتني قدمت لحياتي فيومئذ لا يعذِّب عذابَه أحدٌ ، ولا يوثق وثاقه أحدٌ . . .

« يا أيتها النفسُ المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية ، فادخلي في عبادي ، وادخلي جنَّتي » .

ففي الفقرات الأولى إيقاع موسيقي قوي شديد ، وفي الفقرات الأخيرة إيقاع موسيقي رخيّ مديد . وبينهما إيقاع متوسط كأنه يهيئ للانتقال ! وفي كل مرة يشترك بناء الألفاظ ذاتها ، وبناء التعبير عند اجتماعها في تلوين ذلك الإيقاع ، الذي يصور الجو الشعوري المصاحب للمعاني . وهذا الجو الشعوري زائد بطبيعة الحال عن المعاني التي تدل عليها الألفاظ والعبارات ؛ ولكنه جزء لا يتجزأ من العمل الفني الذي تمثله هذه الآيات .

ومثال آخر نضربه للظلال التي تلقيها الألفاظ ، وتؤلف جزءاً من العمل الفني زائداً على المعنى اللغوي والذهني :

« أذلكَ خير نُزُلاً أم شجرةُ الزَّقُّوم ؟ إنا جعلناها فتنةً للظالمين ، إنها شجرةٌ تخرجُ في أصل الجحيمِ ، طلْعُها كأنه رءوسُ الشياطينِ » .

فليس هناك مدلول ذهني لرءوس الشياطين ، التي يشبه بها طلع شجرة الزقوم . ولكن هناك ظلالا خيالية تلقيها الألفاظ وتشترك في رسم الصورة التي يعنيها النص . وهناك كلمة الزقوم . وهي تلقي بجرسها في الأذن صورة خشنة شائكة تخز الحلق والبلعوم ! وهذه الصورة المتخيلة من جرس اللفظ زائدة بطبيعة الحال عن المعنى اللغوي ، ولكنها جزء أصيل من العمل الفني الذي يمثله النص .

ومثال ثالث من الشعر فى هذه المرة :

للعقاد قصيدة فى الجزء الأول من ديوانه أسماها « سباق الشياطين » تخيل فيها أن شياطين الكبرياء . والحسد . واليأس . والندم . والحب . والكسل . والرياء . قد اجتمعت كلها فى حضرة الشيطان الأكبر « إبليس » فى مباراة ؛ وقام كل منها يعدد مآثره ويعرض مزاياه . والجائزة فى النهاية هى « مقاليد الجحيم » تسلم للفائز العظيم !

وفى هذه القصيدة ، وهى من بحر واحد وقافية متعددة ، يبدو تناسق الإيقاع الموسيقى وجرس الألفاظ ، مع الدلالة اللغوية والمعنوية للمفردات والنصوص ، مع الجو الخاص لكل مقطوعة يقولها شيطان ، فيتم فيها التناسق الفنى بين الجو الشعورى والتعبير اللفظى ، والإيقاع الموسيقى . ولكن شاهدنا فيها هو أن الإيقاع فى ذاته ، وجرس الألفاظ كذلك ، عنصر زائد على المعنى المتعارف للنص ، وهو داخل فى البناء الفنى للقصيدة .

وتبدأ القصيدة هكذا :

يا شياطين الدجى حىّ هلا	وتغنى الآن بالفعل الذميم
أيكم فى الناس أعلى منزلا	فله عندى مقاليد الجحيم

فتحس فى الإيقاع الموسيقى كله وفى بعض مفردات الألفاظ تراقص الشياطين وتواثبها عن الشمال واليمين ! والشطر الأول « يا شياطين الدجى حىّ هلا » يمثل إيقاعه « شقلبة » شيطان رشيق !

ثم يتقدم شيطان الكبرياء — وفى تقدمه تناسق فنى مع طبيعته . ولكن هذا لا يعنينا هنا ، إنما يعنينا الرنين والضجيج والامتداد والتهويل الذى نلمسه فى التعبير على النحو التالى :

رنّ فى الندوة صوت الكبرياء	رائع الصيحة مرهوب الصدى
قال : إنى أنا داء الأعلياء	أنا داء لهمو فيه الردى
مالئٌ بالغيظ قلب الضعفاء	تاركُ النابهِ فيهم أوحدا

... الخ

ثم يتمشى شيطان الحسد ، فنلمح فى الإيقاع كما نلمح فى المعانى صورة أخرى متسقة مع تلوى الحسد وتثنيه :

ومشى الشيطان شيطان الحسد   مِشيةَ الأفعى إلى وكر القطا
شاحب السحنة مهضوم الجسد   خائفاً فى جبنه قد أفرطا
قال : لو شئت لما جاز أحد   منكم السبق وإن جد الخُطا

. . . الخ

•

ثم يستوى للقول شيطان اليأس ، فنلمح فى الإيقاع والمعانى صورة ثالثة فيها التلكؤ والتراجع ، تتفق مع صورة اليأس فى الخيال ، ويساعد سكون القافية على تمثل الوقوف ثم الارتماء !

واستوى للقول يأس مُعضل   كلما همّ تولاه الضجرْ
قال : ما لليأس فيكم مأمل   لا ولا يرجو مقاليد سقرْ
بيد أنى قاتل لا يعقل   ومن القتل حياة للبشر

ثم يبدى الليل شيطان الندم ، الذى لا يتقدم بنفسه ، ولكن يبديه الليل ، فإذا صورة راجفة منزوية لشبح دقيق الكيان مرضوض ، ويبدو ذلك كله فى الايقاع كما يبدو فى المعانى على السواء :

ثم أبدى الليلُ شيطانَ الندم   ضارعا يفرق من خفق الهواء
أخرسَ المقولِ من غير بَكمْ   ولقد ينطق حينا بالبكاء
يمقت الإثم ويغرى من أثم   بذنوب ماله منها وقاء !

. . . الخ

ثم يمشى صوت من جانب شيطان الحب يبدو فى أوله لينا وجيعا ولكنه يلفح كالشواظ ويثير الفزع والصراخ . فنلمح فى الايقاع الموسيقى ، وفى جرس الألفاظ

ما يتسق مع خطوات الحب فى النفس ، من مبدئه اللين الخفى ، إلى نهايته اللافحة الملهبة :

ومشى من جانب الحب أنين كشواظ النار يرمى بالشرار
لفح القومَ فهبوا صارخين وهُو فى الخلق من مارج نار
أنا شيطان الهوى أفرى الوتين كل من أغشاه مسلوب القرار
... الخ

ثم يدعو الداعى بشيطان الكسل ، فما ينهض وحده وما يتقدم بنفسه ، وما يلبى أول دعاء ! وسنلمح فى الايقاع والمعانى ذلك التناسق الذى ذكرناه ، كما نلمحه فى جرس الألفاظ وظلالها المتخيلة :

ودعا الداعى بشيطان الكسل فتمطّى ساعة لا ينطق
قال : لو راودتُ نجما لأفل وثوى فى أفقه لا يشرق
آفة القول جميعاً والعمل وبلاء الله فيما يخلق

ثم يرى شيطانُ الكسل شيطانَ الرياء فيتنحى له ، ويهتف النظارة : ما أجمله ! وهو يزوى عنهم الوجه الدميم . فإذا تحدث لمحنا ذلك التناسق الذى أسلفناه :

قال : إنى أنا شيطان الرياء صاحب الوجهين أملود اليد
وأميت النفس فى طى الخفاء فهى تحيا كالرفات الملحد
... الخ

وهذا المثال يفيدنا — فوق بيان وظيفة الصور والايقاع — فى إيضاح حالة خاصة . فقد لا يكون الانفعال الشعورى ناشئا عن مؤثر خارجى غير إرادى . بل يكون هذا المؤثر صورة استحضرها المؤلف وعاش فى جوّها ، حتى انقلبت كالمؤثر الخارجى . وعندئذ تأخذ طريقها إلى الظهور فى عمل فنى كما لو كانت ناشئة عن مؤثر غير إرادى .

وهذه الحالة تفسر لنا طريقة العمل الفنى عند شعراء الملحمة والتمثيلية ، وعند شعراء المدح والرثاء ، وسائر الأغراض التى يبدو أن المؤثر فيها ليس ذاتيًّا .

مما تقدم نستطيع أن نحدد — على وجه التقريب — عمل الوعى وما وراء

الوعى فى الشعر . فنستطيع أن نقول إن الشعر يستمد معظم مؤثراته وانفعالاته من وراء الوعى ، وأن الوعى إنما يبدأ عمله عند مرحلة النظم التى لا بد فيها من اختيار ألفاظ خاصة تعبر عن معان خاصة ، وتنسيقها على نحو معين لتنشئ وزنا معينا وقافية معينة .

ولكن هذا القول لا يمضى على إطلاقه . ففى حالات شعورية خاصة ، يبلغ فيها التأثر والانفعال درجة عالية ، قد تتم عملية النظم ذاتها بلا وعى كامل ؛ لأن الانفعال يستدعى الألفاظ والعبارات بطريقة شبه تلقائية . وهذه هى أجمل لحظات الشعر بلا جدال .

ولا معنى لأن ينكر أحد هذه الحالة الواقعة لمجرد بناء نظريات منسقة ، ولدينا من التجارب العملية عند الشعراء المعاصرين ما نستطيع الارتكان إليه . فالصنعة على النحو الذى يفسره بها بعض من كتبوا فى الموضوع تكاد تنتفى فى حالات شعورية كثيرة ، وإغفال هذه الحالات لا يكون إلا مجرد انسياق وراء رأى مفتعل لا يتفق مع حقائق التجارب العملية .

ثم إن الايقاع الموسيقى الذى يتألف جانبه الظاهرى من الوزن الخاص - وهو البحر — وجانبه الباطنى من جرس الألفاظ ومن الايقاع الناشئ من توالیها على نحو معين، يستقى فى حالات كثيرة من وراء الوعى ؛ فكثيراً ما يجد الشاعر نفسه ينظم من بحر معين ، وينسق ألفاظه فى تعبير معين ، دون وعى كامل ؛ لأن هذا كله يتسق مع الحالة الشعورية للقصيدة .

وهذا يجعلنا نعيد تقديرنا على أساس جديد لقيمة الإيقاع الموسيقى فى الشعر. بوصفه جزءاً من العمل الفنى يصور أجمل جانب فيه وأصدقه ، وهو تسجيل الجو الشعورى الذى عاش فيه الشاعر حين كان ينظم قصيدته ، وتأديته إلى القارئ أو المستمع بعد ذلك بعشرات السنين أو بآلافها !

ولا شك أن هذه النظرة إلى الإيقاع الموسيقى تختلف عن نظرة المدرسة العقلية فى الشعر العربى ، كما تختلف عن نظرة المدرسة الإيقاعية على السواء . فالمدرسة العقلية أصغرت من قيمة الإيقاع الموسيقى جملة ، فى سبيل تحقيق المعانى ودقة الأداء الذهنى . والمدرسة الإيقاعية عنيت بحلاوة الإيقاع وسهولته ، دون أن تنظر إلى التناسق بين لون الإيقاع والجو الشعورى العام للقصيدة ؛ وهو الجو الذى نحدس أنه كان يحيط بنفس الشاعر

وهو ينظمها ، والذى صاحب الانفعالات التى دفعته إلى النظم للتعبير عنها .

ثم إن لما وراء الوعى دخلا كذلك فى اختيار الألفاظ ؛ فكثيراً ما يجد الشاعر الملهم كلمات وعبارات تقفز إلى منطقة الوعى فى نفسه من حيث لا يدرى وقد لا يكون واعياً لمعانيها بدقة وهو ينظمها ، وقد يعجب بعد انتهائه من النظم ، وعودته إلى الحالة الشعورية العادية كيف انثالت هذه الألفاظ والعبارات عليه انثيالا — كما يقول الجاحظ بحق — ثم قد يدرك فيما بعد أو لا يدرك أن لهذه الألفاظ أو لهذه العبارات ظلالا فى نفسه ، تتسق مع الجو الشعورى الذى نظم فيه قصيدته ، سواء كان هذا الجو من صنع مؤثر خارج عن إرادته ، أو بسبب استحضاره هو له . وحقيقة أن للوعى فى الحالة الأخيرة نصيباً أوفى . ولكن الوعى قد يقف عمله نهائياً عند استحضار الجو وتخيل المؤثر . لأن نفس الشاعر سريعة التأثر بالإيحاء والتخييل ، حتى لينقلبان فيها إلى مؤثرات حقيقية فى كثير من الأحيان ، وبذلك يتحقق الصدق الفنى ، ولو لم يتحقق الصدق الواقعى !

وهذه الظلال المصاحبة للألفاظ والتعبيرات كامنة فيما وراء الوعى لملابسات خاصة بالشاعر ، أو خاصة بهذه الألفاظ والعبارات ذاتها . فللألفاظ أرواح ، ولكل لفظة تاريخ ، وليست الألفاظ إلا رموزاً لملابسات شتى متشابكة فيما وراء الوعى . وقد يختلف هذا بين شاعر وآخر ، ولكن تبقى اللفظة رمزاً على الظلال والمعانى التى حملتها فى تاريخها الطويل . والشاعر الملهم هو الذى يستوحى الألفاظ رموزها العميقة ، ويستدعيها فى اللحظة المناسبة . وإن يكن هذا العمل يتم غالباً فى غيبة عن الوعى عند الشعراء الملهمين .

وهذه الحقيقة تجعلنا نعيد تقديرنا على أساس جديد لقيمة الألفاظ والعبارات ، فنرد إليها اعتبارها الذى أهدرته المدرسة العقلية والمدرسة اللفظية على السواء . فالأولى كان رائدها دقة الأداء المعنوى دون نظر إلى الظلال التى تلقيها الألفاظ بجرسها أو بتاريخها فى عالم اللغة وعالم الإحساس ، مما يفسد الجو الشعورى الذى تعيش فيه القصيدة ، ويحدث نوعاً من « النشاز » الموسيقى أو التصويرى فى السياق . والمدرسة الثانية كان همها عذوبة اللفظ أو جزالة العبارة ، بدون نظر إلى هذه الملابسات التى تختلف فى قصيدة عن قصيدة ، وفى حالة شعورية عن حالة . . . وهكذا .

هذه القضية ليست جديدة فى النقد العربى ، فلقد أثيرت فى العصر القديم . فكان الأصمعى يقول عن زهير وأصحابه إنهم « عبيد الشعر » لأن صناعة النظم والتجويد فيه واختيار الألفاظ وتعديل العبارات قد استغرقتهم وأبعدتهم عن الطبع الذى ينظم فى سهولة ويسر . وكان « الآمدى » يقول عن أبى تمام « شديد التكلف ، صاحب صنعة ومستكره الألفاظ والمعانى ، وشعره لا يشبه أشعار الأوائل ، ولا على طريقتهم ، لما فيه من الاستعارات ، والمعانى المولدة » بينما كان يقول عن البحترى : « أعرابى الشعر مطبوع على مذهب الأوائل ، وما فارق عمود الشعر المعروف ، وكان يتجنب التعقيد ومستكره الألفاظ » .

ومن الحق أن نقول إن القضية لم تعرض لهم إلا من ناحية الكد فى تجويد النظم ، أو اليسر فى الأداء . ومن ناحية الاعتماد على التصورات الحسية ، أو الغوص وراء المعانى الذهنية . وهذا جانب من القضية لا كل جوانبها . ولكننا بهذه المناسبة لا نتردد فى إيثار الصور فى الشعر على المعانى ، وفى إيثار الانطلاق المستمد مما وراء الوعى على التعقيد الذى يصنعه الوعى فى أغلب الأحيان .

ثم عرضت هذه القضية مرة أخرى فى العصر الحديث ، فى معرض الجدل بين مدرسة شوقى وحافظ المعنية بالإيقاع الموسيقى والجمال اللفظى ، ومدرسة العقاد وشكرى ، المعنية بالصدق الشعورى ، والتدقيق المعنوى .

وقيل كلام كثير فى معرض الجدل ليس كله صوابا بطبيعة الحال !

ونحن فى هذه المناسبة لا نتردد فى أن نردّ إلى الإيقاع الموسيقى والجمال التعبيرى اعتبارهما — ولكن على أساس آخر غير الأساس الذى يفهمه الشوقيون والتعبيريون على العموم ، وأن نقول إن الصدق الشعورى لا يبدو كاملا فى الشعر إلا إذا اكتمل فيه الإيقاع الموسيقى ، وإلا إذا اتسقت ظلال الألفاظ والعبارات مع هذا الإيقاع ، وتناسقت جميعاً مع الجو الشعورى للقصيدة . وذلك هو الكمال الفنى الذى يختل حين ينهار أحد أركانه .

وكلما فاض الشعور فطغى على الوعى وانطلق يستمد من الرواسب النفسية ، ويستوحى الظلال الشعورية ، كان يجرى فى ميدانه الأصيل ، وينشئ أجمل آثاره ، وذلك مع عدم إغفال مقوّمات الشعر الأخرى من عمق وسعة واتصال بالحياة ونفاذ إلى الأسرار الكونية الخالدة .

سيد قطب

صفحات مطوية

على النيـــل

ليـلةٌ تلك من ليـالى السُّعودِ أسلَفَتْنا بالحب طعْمَ الخلودِ
ليـلةُ النيـل يحتوينا عليـه زورقٌ سـابحٌ كطَيْفٍ شرُود
نام رُبّانُه الصـغير فأسرى يتهادى طوعَ الطوامى السود[1]
كالحيارَى فى معبد الليـل ، لا نَلـغو بحَرْفٍ فى رَوْقِه الممدود[2]
فى خشوعٍ نُصْغِى إلى الصمت ، والصـمتُ بليغُ الإيحاء والتوليـد
حولنا الكون ساكنُ الحسّ ساجٍ شاحبُ الرسم مُستسرُّ الحدود
نحسب النهرَ حالماً ، والمرائى هِىَ رؤيا فى حلمـه المشهود[3]
وَحْدنا فى الوجود رَحْباً عظيما فلَنَا نحن كلُّ هـذا الوجود
فوقنا قبـة الفضـاء يغيب اللحـظُ فى غورها البهيم البعيـد
وهنا النيـل تحتنـا زاخرَ الصد ر بتاريخه المُعَمَّى التليـد[4]
أذهلتنا عليـه هَـدْهَدَةُ المو ج رَخِىَّ التصويب والتصعيد
فذهلنا عن فلكنا وسَبَحنا كالقُدامَى مع الخيال السـعيد[5]
وسمعنا عرائسَ الجِن تشدو كلما لجَّ موجُه فى النشيـد
وكأنّا فى المـاء منـذُ قـديم بعضُ أربابه الخوالى الصـيد[6]
قد عرفنا الخلودَ ، والحبُّ فى الليـل على النيـل نفحةٌ من خـلود

عبد الرحمن صدقى

---

(١) الطوامى: الأمواج . (٢) الروق كالرواق : السقف . (٣) المرائى: المرئيات .
(٤) المعمى: ماخفى معناه . (٥) القدامى : القدماء .
(٦) الصيد : جمع الأصيد وهو الرافع الرأس من عظمة .

برنارد شو

لبرنارد شو دين فى أعناقنا ثقيل ؛ فهو الذى دافع عن مصر أمجد دفاع أيام محنة دنشواى ، وهو الذى بسط قضيتنا فى مقدمة مسرحيته «جزيرة جون بول الأخرى » فأيقظ الرأى العام الانجليزى إلى مساوئ الاستعمار البريطانى حتى انتهى الأمر بسحب اللورد كرومر من مصر . فما أجدرنا بأن نذكر هذا الصديق الوفى كلما ألمت بنا المحن ! وما أخلقنا بأن نعتز بصداقته ووفائه ؛ فأصدقاؤنا الأوفياء فى الغرب قليلون !

١

ولد جورج برنارد شو فى ٢٦ يوليو عام ١٨٥٦ بدبلين حاضرة إيرلندا لأسرة إيرلندية منحدرة من أصل انجليزى . والمعروف عن آل شو أنهم نزحوا من انجلترا إلى إيرلندا فى أواخر القرن السابع عشر . وقد كان أسلافه من أوساط الناس فى المكانة الاجتماعية ، فمنهم الممولون والقساوسة والسماسرة وموظفو الدولة ، بل حملة الألقاب كذلك ، وقد كانوا جميعاً يعتزون بنسبهم أشد اعتزاز ، حتى إن شو كثيراً مايذكر مزهواً أنه سليل « ماكدف » أحد أشخاص مسرحية « ماكبث » ويفخر بأن جداً من أجداده الأول قد ورد ذكره فى أعمال شكسبير . أما أبوه جورج كار شو فقد كان يملك متجراً للدقيق ، ولكن إفراطه فى الشراب وجهله بأسرار الدقيق أفضيا إلى إفلاسه .

وكانت تنشئة برنارد شو الأولى فى مدرسة ويزلى بدبلين ، دخلها فى العاشرة من عمره ، ولم يمكث فيها طويلا لبلادته من ناحية ولسوء حال ذويه من ناحية أخرى . ويؤثر عن تلمذته أنه كان عزوفا عن الرياضة البدنية متأخراً فى الحساب

واللغات . وهو يذكر تلك الأيام الأولى بشر كثير ، حتى لقد سألته إحدى المدارس ذات مرة أن يأذن لها فى اختيار بعض مناظر من مسرحيته «چان دارك» لإدماجها فى كتاب مدرسى فقال : «كلا . لن أقبل بحال من الأحوال . وأنا أصب لعنتى الأبدية على كل من يجعل من أعمالى كتباً مدرسية سواء فى الحاضر أو فى المستقبل ، فيجعل التلاميذ يكرهوننى كما يكرهون شكسپير . إن مسرحياتى لم يقصد بها أن تكون أدوات للتعذيب ، وكل مدرسة تسعى فى طلبها ستظفر بهذا الجواب ، ولن تظفر بغيره من چورچ برنارد شو . » وقد بلغ من فقر أسرته فى تلك الأيام أن أمه نزحت إلى لندن لترتزق من تعليم الموسيقا للبنات .

ويزعم شو أنه ولد ملمًّا بالقراءة والكتابة ! ودليله على ذلك أنه لا يذكر أنه تعلمهما فى يوم من الأيام . بل هو يزعم أنه كان يعرف كل كلمة فى اللغة الانجليزية وردت فى مسرحيات شكسپير أو فى دائرة المعارف البريطانية منذ أن خرج إلى الوجود ! ودليله على ذلك أن عهد التلمذة لم يضف إلى محصوله اللغوى كلمة واحدة .

مهما يكن من شىء فان ظروف الحياة قد ألزمت شو بأن يقطع دراسته لكسب قوته وهو مايزال فى الخامسة عشرة من عمره . فالتحق بشركة لبيع الأراضى ، وظل بها خمس سنوات كان إبّانها نموذجاً للموظف الجاد الأمين ، ولم يعلم أحد بأنه كان يمقت عمله مقتاً لامزيد عليه حتى استقال منه وهو فى العشرين من عمره ، وقصد لندن كعبة المغامرين ليجرب حظه فى الأدب والحياة .

ولكن تربيته الأولى شكلت حياته تشكيلا قويا . فقد كانت أمه قبل انتقالها إلى لندن تشتغل بالموسيقا الليل والنهار وتشترك فى غناء الأوپرات مع الفرق المحترفة لا مع هواة دبلن وحدهم ؛ فكان من ذلك أن تعلم شو قصارى ما كتبه واضعو الأوپرات وهو بعدُ تلميذ . وقد قال فى ذلك إنه أجدى على الانسانية أن تعلم المدارس تلاميذها كيف يصفرون سيمفونيات بيتهوفن من أن تطالبهم باستظهار أشعار هوراس . هذا ما أخذه عن أمه . أما ما أخذه عن أبيه فهو التشكك فى الدين . ففى الكنيسة وفى مدرسة الأحد تعلم شو أن الله پروتستانتى وچنتلمان ، وأن جميع الكاثوليك آيلون الى الجحيم ، ولكن أباه كان يأذن له منذ صباه بشهود المجادلات الدينية التى تشتبك الأسرة فيها ، وقد سمع خاله ذات مرة يقول إن إحياء يسوع لليعازر بعد موته كان باتفاق

بينهما سابق على أن يتماوت ليعازر ليحييه يسوع شأن الحواة ، وأعجبت الفكرة الغلام شو وشجعته على الاستخفاف بالدين وهو بطبعه هازل . فألحد وهو صبي ، وذهب يبشر بالكفر بين التلاميذ . ومما يروى عنه أيام التحاقه بشركة بيع الأراضي أن صاحب الشركة انتهى إليه أن شو الصغير يجادل الموظفين في دينهم ، فأمره بأن يكف عن التفلسف في ساعات العمل .

ولما نزح شو إلى لندن كانت أمه قد سبقته إليها فأقام معها ، وظل متعطلا بإرادته زهاء عشر سنوات ؛ فقد توسط له بعض أصدقاء الأسرة جملة مرات ليلتحق بالشركات المختلفة ، ولكنه كان يلتمس أتفه المعاذير لرفض ما يعرض عليه من أعمال ، مؤثراً أن تعوله أمه على أن يضطلع بعمل لا يتفق مع مواهبه . غير أن قلمه كان أسوأ مورد للرزق عرفه إنسان ؛ ففي السنوات التسع بين ١٨٧٦ و ١٨٨٥ ربح شو من قلمه ستة جنيهات ، منها خمسة تقاضاها عن صيغة إعلان كتبه لشركة من شركات الأدوية ، وخمسة عشر شلناً تقاضاها عن مقال يحض فيه الناس على اختيار أسماء معقولة لأبنائهم ، وخمسة شلنات تقاضاها عن قصيدة أراد بها المزاح فظنها المحرر عملا جديًّا . وفي هذه الفترة من حياته كتب خمس قصص لا قيمة لها رفضها جميع الناشرين بلا استثناء .

وإلى جانب اشتغاله بالكتابة العقيمة اشترك شو في كثير من جماعات المناظرات التي كانت منتشرة في لندن يومئذ ، كجماعة «الاتحاد الديموقراطي» التي أدارها الثائر الانجليزي المعروف هندمان . وقد حدث عام ١٨٨٢ ، حين كان شو في السادسة والعشرين من عمره ، أن سمع الثائر الأمريكي هنري چورج يلقي بلندن محاضرة في موضوع تأميم أراضي انجلترا ، فامتلأ بالحماسة وأدرك أن المفكر في العصر الحديث لا غنى له عن دراسة علمي الاقتصاد والسياسة . وقصد شو إلى « الاتحاد الديموقراطي » حيث أراد أن يثير موضوع تأميم الأراضي فقيل له إن الإنسان لا يكون أهلا لمناقشة هذا الموضوع إلا إذا قرأ كارل ماركس . فقصد شو إلى المتحف البريطاني لفوره ، وهناك قرأ كتاب ماركس « رأس المال » في طبعة فرنسية ؛ لأن الترجمة الإنجليزية لم تكن قد صدرت بعد ، وفي ذلك يقول : « وكان هذا نقطة تحول في حياتي ؛ فقد وجدت في ماركس إلهامي . ولقد عرفت فيما بعد أن نظرياته المجردة في الاقتصاد خاطئة ، ولكنه مزق لي القناع وفتح عيني لحقائق التاريخ وأسس الحضارة ،

وهدانى إلى فهم لطبيعة الكون جديد ، وزودنى بهدف ورسالة فى الحياة . »
ويقول : « إن من يقرأ كارل ماركس لن يجوز عليه تضليل جلادستون وأمثاله . »
وعاد شو إلى « الاتحاد الديموقراطى » ليجادل أعضاءه فى النظريات الماركسية ،
ولكنه لم يجد بينهم من قرأ ماركس ، اللهم إلا هندمان . ولقد كانت دراسة
ماركس نقطة تحول فى حياته حقًّا ؛ فقد قضى برنارد شو اثنى عشر عاماً بعد ذلك
يخطب ثلاث مرات أسبوعيًّا فى الشوارع وفى الأسواق وفى القاعات وفى الحدائق
العامة داعياً إلى الاشتراكية ، ولم يتناول لقاء ذلك بنساً واحداً . ومن تلك
الخطب التى لا تعد ، خطبتان لم ينسهما شو قط فى حياته ، واحدة استغرقت
ساعة كاملة ألقاها فى هايد پارك على جمهور قوامه ثلاثة من المتسكعين استلقوا
أمامه على الحشيش ، وكلما سكت شو ليسترد أنفاسه الضائعة صاح أحدهم
قائلا : « براڤو ! » . وأخرى تجاوزت الساعة ألقاها فى هايد پارك كذلك ، والمطر
ينهمر مدراراً ، على جمهور قوامه ستة من رجال البوليس كانوا مكلفين
بحفظ النظام .

وكان بين الجماعات اليسارية الكثيرة المنتشرة فى لندن جماعة اسمها « إخوان
الحياة الجديدة » أسسها فيلسوف اسكتلندى صغير اسمه توماس داڤيدسون ،
وانضم اليها بعض عظماء المستقبل من الشباب كرامزى ماكدونالد رئيس الوزارة
البريطانية ، وهاڤلوك إليس الفيلسوف الانجليزى العظيم . وكان أحد أغراض
هذه الجماعة إنشاء مستعمرة اشتراكية فى البرازيل يعيش فيها الأعضاء على قدم
المساواة . ولكن الجماعة انشقت على نفسها لأن فريقاً يرأسه رجل يدعى
هيوبرت بلاند رأى أنه ليس من الضرورى النزوح الى البرازيل لإجراء هذه
التجربة الاشتراكية ووجد أن إجراءها فى انجلترا ممكن ومجد معاً . وبانشقاق
بلاند وأتباعه ولدت « الجماعة الفابية » المشهورة فى تاريخ انجلترا الحديث .
وانضم شو إلى « الجماعة الفابية » عام ١٨٨٤ ثم انضم إليها سيدنى وب وسيدنى
أوليڤييه وجراهام والاس وهم من أذكياء الأرستقراطيين الذين آمنوا
بالاشتراكية . وسرعان ماتولى هؤلاء الأربعة قيادة الجماعة وتوجيهها . وأصدرت
الجماعة أول بحث من بحوثها وعلى غلافه العبارة التالية التى تفسر اسمها : « لابد
أن تنتظر اللحظة المناسبة كما انتظرها فابيوس من قبل فى حربه مع هانيبال
بصبر عظيم رغم لوم الكثيرين ، ولكن حين تحل اللحظة المناسبة لا بد أن

تضرب الضربة القاضية كما فعل فابيوس من قبل ، وإلا ضاع انتظارك أدراج الرياح ولم تجن من صبرك ثماره . »

وفى ١٣ نوفمبر سنة ١٨٨٧ ، المعروف فى تاريخ الحركة العمالية الانجليزية بيوم الأحد الدامى ، مرّ شو و « الجماعة الفابية » فى تجربة مريرة غيرت نهجها تغييراً خطيراً . فقد تزعم الفابيون مظاهرة كبيرة من المتعطلين وأرادوا قيادتها إلى ميدان الطرف الأغر ، فشتت البوليس المتظاهرين بالعنف ، وأخفقت المظاهرة ، وكان شو بطبيعة الحال بين من طلبوا النجاة . وكانت خيبة أمله كبيرة لأنه كان شديد الإيمان بقوة الجماهير ، فلما رأى الجموع المحتشدة تفر أمام نفر من رجال الأمن قليل أدرك أن الشعب الأعزل لا حول له أمام قوة السلاح . ومنذ ذلك التاريخ اتجهت « الجماعة الفابية » اتجاهاً سلمياً ، وقد كانت من قبل تضم من المفكرين أشكالا وألواناً ، ففيها الفوضويون وفيها الثوريون وفيها العدميون وفيها البوهيميون ، فأقصى عنها كل هؤلاء ولم يبق فيها سوى الاشتراكيين الدستوريين الذين يؤمنون بالنور أكثر من إيمانهم بالنار ، ويثقون بالبحوث والنشرات العلمية أكثر من وثوقهم بالمتاريس وقتال الشوارع .

ثم اشتغل شو بالنقد الموسيقى ست سنوات بين ١٨٨٨ و ١٨٩٤ . أولاً فى صحيفة « النجم » ثم فى صحيفة « العالم » ، واشتغل بالنقد المسرحى أربعاً أخرى . وقد لخص نظرياته فى الموسيقا فى كتابه « الفاجنرى الكامل » ولخص نظرياته فى المسرح فى كتاب « خلاصة الإبسنية » . ثم سئم النقد ، وتزوج عام ١٨٩٨ من مليونيرة تدعى شرلوت من تاونشند ، وانقطع لتأليف الكوميديات ولم يكف عن ذلك حتى اليوم . وبدء سنوات النقد فى تاريخ حياته نهاية بؤسه ؛ فقد ارتفع نجمه رويداً رويداً حتى بلغ السمت وسطع فى العالمين وهو ما يزال فى السمت لا يريد أن يتزعزع رغم أنه بلغ التسعين .

٣

كلما ذكر برنارد شو ذكر المسرح الواقعى ؛ لأنه واضع أساسه فى انجلترا ، وقد أخذ هذا الأساس عن هنريك إبسن النرويجى ، وروّج له نظريًا فى كتابه « خلاصة الإبسنية » وروج له عمليًا بمسرحياته العظيمة . فالمسرح اليوم بفضل

شو مسرح إبسن وهو يختلف عن مسرح شكسبير ، مسرح عصر الرنيسانس . وهذا الاختلاف عظيم يتناول الأصول والقواعد ، والبعد بينهما عظيم لا يقل عن البعد بين المسرح اليونانى القديم ومسرح عصر الرنيسانس . أى إن الثورة التى استحدثها إبسن على الأساليب الشكسبيرية لا تقل خطراً عن الثورة التى استحدثها شكسبير على أساليب سوفوكليس . ففيم يتلخص الفرق إذاً ؟

كان مسرح شكسبير مسرح الأشراف ، أما مسرح إبسن فمسرح الرجل العادى . وليس المقصود بهذه العبارة أن شهود التمثيل فى عصر الملكة اليزابيث كان مقصوراً على النبلاء دون أبناء الشعب ؛ فشعبية المسرح الإليزابيثى أمر مقرر فى كل كتاب يؤرخ للأدب ، بل ظاهرة هامة كان لها أثرها فى توجيه الدراما عند شكسبير ومعاصريه . إنما المقصود بهذا القول أن أبطال الدراما عند شكسبير كلهم من طبقة الأشراف ، والدراما الشكسبيرية تصوير للحياة الأرستقراطية دون سواها . فهى تروى لنا سير الملوك الأولين والملكات الغابرات ، وتحدثنا عن الأشراف وسيدات القصور ، وما كان بين هؤلاء وهؤلاء من غرام عاصف أو حقد مكين أو نضال من أجل المطامع أو كفاح لصيانة المثل العليا . ولقد يختلف الزمان من العالم القديم إلى العصور الوسطى ، ولقد يختلف المكان من روما الإمبراطورية إلى فيرونا ، ولكن الملوك والأشراف لا يتغيرون .

وقد ظل فن الإنشاء التمثيلى يسير على هذا النسق ثلاثة قرون كاملة لا فرق فى ذلك بين الكوميديا والتراجيديا ، فلا يتعرض المؤلفون فيه إلا لأهل النبالة ولا يرون بطولة إلا فيهم ، حتى استكشف إبسن الرجل العادى وصور حياته وسجل بطولته . وقد كان شكسبير معذوراً فى النهج الذى نهج ؛ لأنه عاش قبل الانقلاب الصناعى بزمان ، وتاريخ المجتمع حتى أيامه لم يكن سوى طائفة من قصص الملوك والنبلاء ، أما الطبقة المتوسطة فلم يكن لها وجود تاريخى فعال ، وأما الشعوب فلم يكن لها وجود تاريخى أصلا . كانت الأمم يومئذ تعيش فى رؤسائها ، لا اقتصاد لها إلا اقتصادهم ولا ثقافة لها إلا ثقافتهم ؛ فلا عجب أن كان الفن أرستقراطيًّا فى مبناه ومعناه . فلما كان الانقلاب الصناعى تغير حال المجتمع ، وأصبحت الطبقة الوسطى طبقة يحسب لها حساب ، ومن بعدها اشتد ساعد الطبقة العاملة بفضل الخبرة الفنية والتضامن الاجتماعى

والوعى الطبقى الذى اكتسبته فى عصر الآلة ، وظهر الرجل العادى بعد أن لم يكن موجوداً ، أو بتعبير أدق أصبح الرجل العادى قوة فى المجتمع لا يستهان بها ، وأصبحت مشاكله اليومية ومشاكله الدائمة من مسائل الحياة الكبرى . فكان طبيعياً أن تجدَّ فى المجتمع ثقافة جديدة هى ثقافة الرجل العادى ، وكان طبيعياً أن يجدَّ فن طريف هو فن الرجل العادى أى الفن الذى يصور حياة الكثرة المطلقة من أبناء الشعب ويعبر عن آلامهم وآمالهم ، ويبحث فى أهدافهم العامة والخاصة وفيما يخضعون له من عوامل . ولكن الدراما الأوربية رغم ذلك ظلت محافظة على طابعها القديم بقوة القصور الذاتى ، ودأبت على التماس أبطالها إن فى الكوميديا وإن فى التراجيديا بين أبناء الطبقة الأرستقراطية المنقرضة ، كما دأبت على تصوير حياة السادة النبلاء ومعالجة مشاكلهم القلبية والاجتماعية والأخلاقية . فلما جاء إبسن خرج على هذا التقليد الذى فقد مسوغاته فى الحياة ، والتمس أبطاله بين رجل الشارع ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وبذا وضع أساس المسرح الحديث .

وعلى إبسن العظيم تتلمذ شو العظيم . ولقد راع شو فى صدر حياته ما وجده من عبادة مسرفة لشكسبير ، فهاجم شكسبير فى قوة وعناد ، ودعا إلى إقامة مسرح واقعى دعائمه حوادث الحياة لا خيالات الكتاب ، وأبطاله لحم ودم لا نماذج نقرأ عنها فى القصص وكتب التاريخ .

فأبطال شو إذاً ليسوا مارك أنطونيوس ولا القائد كريو لانوس ولا الأمير هاملت ولا الملك رتشارد الثانى ، ولكنهم « مستر » چاك تانر و « الكابتن » بلنتشلى و « الأستاذ » هجنز و « العبد » أندروكليس وبائعة الزهور إليزا والبنت الفلاحة من دومريمى . والمشكلات التى يعالجها شو ليست مشكلات شخصية خاصة بأصحابها ، كعنت الآباء الذى قتل چولييت ، أو كيد القضاء الذى صرع روميو ، أو الانتقام الذى أهرق الدماء غزارا فى قصر إلسينور ، أو الحماقة التى عصفت بعرش لير وأردت ابنته الوفية ، أو الغيرة التى أزهقت بيد سوداء سرديدمونة الطهور ، أو الجشع الذى حطم ماكبث الأمين ، أو الكبرياء التى أودت بحياة كريولانوس حامى الذمار ، ولكنها مشكلات اجتماعية تتناول العام قبل الخاص كالجندية وشرفها المزعوم (الإنسان والسلاح) والزواج وقدسيته التقليدية (مهنة مسز وارن) والدين ونفاق المتدينين (الميجر باربارا)

والاستعمار وتعميره الكاذب (جزيرة جون بول الأخرى) وفصل الطبقات ومظاهره الزائفة (بيجماليون) . والعواطف التي يشرحها شو في كوميدياته ليست العواطف المشبوبة الفذة التي لا يملكها إلا صفوة الناس في المجتمع ولا تحدث إلا مرة في كل جيل ، بل العواطف المألوفة التي لا تضيق عنها قلوب الرجال العاديين وأشخاص شو لم يكونوا في يوم من الأيام من أصحاب الشخصية الجبارة وذوى التفرد الذين تكمن عظمتهم في تفردهم ، بل كانوا دائماً نماذج اجتماعية يمكن أن تتكرر ولا يصعب العثور عليها في الشارع وفي المقهى وفي المصنع وفي النادي . والدراما في هذا الانتقال من تصوير الحياة الخاصة إلى تصوير الحياة العامة قد نحت من التراجيديا وما يلازمها من عاطفة وخيال إلى الكوميديا وما يلازمها من فكاهة ونقد. كذلك ماتت الدراما الشعرية وحلت محلها الدراما النثرية . ولا شك في أن هذا التحول نتيجة من نتائج ظهور الرجل العادي وانقراض الرجل غير العادي ؛ لأن ثقافة الرجل العادي وظروفه لم تترك في حياته شعراً أو في حديثه سحرا أو في رأسه خيالا ضخماً أو في قلبه عاطفة كبيرة . ولا شك كذلك أن في هذا خسارة على الفن لا تعوض . ولكن المجتمع يدخل منذ الانقلاب الصناعي في طور حضاري جديد خطير من شأنه أن يرد للقطعان البشرية إنسانيتها ، ويعنى بمشكلات الكناسين والغسالات عناية المجتمع القديم بمشكلات الفرسان والأميرات ، وفي سبيل هذه الغاية تهون كل تضحية . وإذا كانت أوربا الزراعية الإقطاعية المسيحية قد استطاعت أن تعيش خمسة عشر قرنا متصلة بغير تراجيديات أو كوميديات أصلا ، فلأوربا الصناعية الحق في مثل هذه الحقبة تجرب فيها ماتشاء من ألوان الفن وتجنى فيهـا على الأدب ما تحب أن تجنى . وليس لنا أن نبتئس لأن شكلا حيًّا من أشكال الأدب قد اختفى ولأن شكلا آخر من أشكاله قد أوشك أن يختفى ، فلعل محنة الأدب فيهما مؤقتة ، ولعل لهما بعثاً جديداً بعد أن تستتب أصول الحضارة الجديدة وتفرغ البشرية من مشكلاتها الاجتماعية ويسترد كل فرد فرديته .

والانتقال من أدب الخاصة إلى أدب الجماهير قد نحا بالمسرح وبفن الإنشاء التمثيلي من الخيالية إلى الواقعية . فمسرح شكسبير كان مسرحاً رمزيًّا بسيطاً لا يعرف أساليب الإخراج والإضاءة والديكور التي نعرفها اليوم . وقد استلزم نقص هذه الأشياء جميعاً أن يُكثر صاحب المسرح وصاحب المسرحية من

الافتراض وأن يكثر الجمهور المشاهد من التسليم . فلورنزو وچسيكا فى « تاجر البندقية » يتناجيان فى نور القمر ، ولا سبيل إلى معرفة أن الليلة جميلة قمراء إلا بالإصغاء إلى ما يتبادلان على المسرح من قريض . ولقديرى الجمهور المشاهد ممثلا يحمل مصباحاً فيفهم أنه يرمز للقمر ، أو يحمل غصناً فيفهم أنه يرمز لغابة . وعلى الجملة فقد كان عليهم أن يستخدموا خيالهم لاستحضار الجو الذى تجرى فيه حوادث التمثيلية بمجرد سماعهم للشعر الذى يروى على المسرح ، وكان عليهم أن يسلموا بحقيقة ما يشاهدون من رموز ويكتفوا بها عن مشاهد الحياة الواقعة . بل كان عليهم أن يسلموا بما هو أخطر من ذلك كله : كان عليهم أن يسلموا بأن للفن منطقاً غير منطق الحياة ، وبأن منطق الفن سليم متماسك رغم تعارضه مع منطق الحياة . ففى الحياة ، يتحاور الناس نثراً أما فى الفن فالناس يتحاورون شعرا . وما هذا بمستغرب ؛ لأن أشخاص المسرح أبطال وليس كثيراً على الأبطال أن يتحدثوا بلغة الشعر . ومن سلّم بهذا التقليد الخطير لم ترعه بقية التقاليد الشكسپيرية ، فهى جزئية ومتفرعة كلها من هذا التقليد الخطير . نعم ! لم يجد حرجاً فى أن يحدّث هاملت نفســه على انفراد حديثاً مرتباً متصلا بصوت عال يسمعه كل موجود ، وهو أمر لو أتاه إنسان فى الحياة الواقعية لقيل إنه مخبول . كذلك لم يجد حرجاً فى أن يرى إياجو منتحياً من المسرح أحد طرفيه محدّثاً نفسه بصوت عال يسمعه آخر من بالقاعة ولا يسمعه عطيل الواقف إلى جواره ! كذلك لم يجد بأساً فى أن يتوقف الممثل بيربيدج أو الممثل هيمنج عن التمثيل ليرد على ملاحظات الجمهور أو ليتبادل النكات مع الجمهور بما يمليه وحى اللحظة ، أو ليرتجل إضافات من عنده إلى نصوص شكسپير .

أما المسرح الواقعى الذى أنشأه إبسن ودعمه شو فيختلف عن ذلك كل الاختلاف ؛ لأنه يقوم على ما يسمونه بنظرية الحائط الرابع . والأصل فى هذه النظرية أن المشاهد لحظة أن يبتاع تذكرة الدخول يفترض أنه أخذ من صاحب المسرح وصاحب المسرحية عهداً بأن يعرضا عليه جوانب من الحياة كما هى فى الواقع لا كما يتخيلها الفنانون . فالمشاهد الحديث إذاً رجل فضولى يريد أن يستطلع أخبار الناس ، أو رجل عملى يريد أن يدرس أحوالهم ، وهو لذلك ينظر إلى خشبة المسرح نظره إلى غرفة حقيقية فى بيت حقيقى بداخلها أناس حقيقيون يتجادلون فى مشاكلهم الحقيقية ، لا إلى ممثلين مدربين يزيفون له أحداث الحياة .

فلا يبقى إذن إلا أن يرفع صاحب المسرح وصاحب المسرحية الحائط الرابع الذى نعرفه بالستار ، ذلك الحائط الذى يحول بينه وبين رؤية ما يجرى فى بيوت الناس ، وهما يفعلان ذلك لقاء ما تناولا من أجر . فينبغى أن تكون المناظر متقنة ومستمدة من الحياة لا أثر للخيال فيها ، وافية لا تعتمد على الرمز ؛ حتى تخدع المشاهد فيتوهم أنه إزاء منظر من مناظر الحياة الفعلية ، وكذلك الإخراج وكذلك الإضاءة وكذلك الممثلون . وأهم من هذا وذاك أن تكون المسرحية ذاتها واقعية فى موضوعها وصياغتها . فالناس فى الحياة الواقعية لا يتحادثون شعراً ولكن يتحادثون نثراً ، والدراما الشعرية من أساسها زائفة ولا محل فى الفن إلا للدراما النثرية . ولقد يكون للشعر مقامه العالى فى الغنائيات وفى الملاحم ، ولكن لا مجال له فى أدب المسرح . ومن الناس من لا يتحدث نثراً وإنما يتحدث بلغة ملتوية مهشمة فى النطق أو فى النحو ، فلا بد أن يحتفظ كلٌّ على المسرح بلهجته وعاداته فى التعبير وطريقته فى الإشارة والتنغيم التى يستخدمها فى الحياة . وفى المسرح الواقعى بطلت سائر التقاليد الشكسبيرية كالحديث المنفرد والحديث الجانبى والاتصال بالجمهور ؛ لأنها لا تتفق مع الأمانة فى تصوير الحياة .

٣

أدب شو أدب النقد الاجتماعى ، وأسلحته فى هذا النقد الفكاهة والسخرية والتعريض . وبين برنارد شو وأوسكار وايلد مواطن شبه قوية ، إلا أن الاختلاف بينهما جوهرى . هما يشتركان فى المولد ، فكلاهما من إيرلندا ، وكلاهما ضاق بدبلين الصغيرة وهاجر إلى لندن الكبيرة ، وكلاهما اتجهت مواهبه إلى التأليف المسرحى وإلى الكوميديا بوجه خاص ، وكلاهما صاحب أسلوب فى النثر الانجليزى قل أن يبارى ، وكلاهما سيد فى طرق الحوار ليس له نظير ، وكلاهما عرف بالتمرد على الأوضاع المألوفة ، وكلاهما هاجم المجتمع عامة والمجتمع البورجوازى خاصة ، وكلاهما صاحب ثقافة أصولها فى القارة الأوربية إلى حد بعيد .

أما الاختلاف بينهما فجوهرى ؛ لأن وايلد يمثل الفنان الفردى الذى يقدس شخصية الفنان ويدعو إلى تحريرها من قيود المواضعات والتقاليد ، وهو يعلن

أن الفنان نسيج وحده لأنه خلاّق له جميع الحقوق وليس عليه واجب واحد، وينادى بالفن للفن، ولا يكتفى بذلك بل يطالب بأن يصبح الناس فنانين يتذوقون الجمال ويخلقونه، وأن تصبح الحياة ذاتها فناً جميلا . أما شو فيمثل الفنان الاجتماعى الذى يقدس المجتمع، ويطالب الحرية لا للفنان ولكن للمجتمع. وهو يعتقد أن الفنان ليس نسيج وحده بل ظاهرة اجتماعية هامة؛ وهو لهذا عليه من الواجبات أكثر مما على الفرد العادى . وبمقدار ما أوتى من عظمة تزداد واجباته نحو الجماعة . أما نداء الفن للفن الذى بلغ مسمعيه فى أواخر القرن الماضى فيقول فيه : « ولو كنت أنتج من أجل الفن وحده لما أضنيت نفسى بكتابة سطر واحد » . ويقول : « إن الفنان الفيلسوف هو بين الفنانين الطراز الوحيد الذى أهتم به اهتماما تاماً » . وهو لذلك يطالب بأن يصبح الفنانون أناساً يحسون إحساس الناس ويضطربون لما شا كلهم . وإذا كان وايلد قد دعا إلى تحرير الفرد من نير الجماعة فقد دعا شو إلى تحرير الجماعة من نير الفرد . وقد كان وايلد لاهياً ماجناً لا يجد فى الحياة ما يستحق التضحية من أجله . أما شو فجاد متعصب لأفكاره محب للجهاد . لذلك قصّر شو فى ميدان الفكاهة الخالصة حيث تفوق وايلد، وقصّر وايلد فى ميدان النقد الاجتماعى حيث تفوق شو . ولذلك كانت الصالونات والمآدب منبر وايلد، وكانت أركان الشوارع والميادين والحدائق العامة منبر شو . هاجم وايلد الرأسمالية لأن الفقر يفسد جمال الحياة، وهاجم شو الرأسمالية لأن الفقر يسمم ينابيع الحياة . وفيما يلى نموذج من سخريته بالنظام الرأسمالى ورد فى مسرحيته عن إيرلندا التى يسميها « جزيرة جون بول الأخرى »، وهو يصوّر فيها كيف يثرى رجال الأعمال باستغلال الضعفاء، ويفضح تمجيدهم للكفاية فى الانتاج وهو المبدأ الذى يسوّغون به استعمار الدولة للدولة والفرد للفرد :

برودبنت : — لن تندم على هذا يامستر كيجان . أقسم لك بشرفى أنك لن تندم عليه . سوف أنثر المال فى هذا المكان . سوف أدفع الأجور . سوف أقيم المؤسسات . سوف أبنى مكتبة ومدرسة للصناعات يدخلها الجميع بلا تمييز بين الملل والأديان بطبيعة الحال . سوف أنشىء معهداً رياضيًّا وناديًا للكريكيت وربما أنشأت مدرسة للفنون . سوف تتحول بلدة روسكولن بفضلى إلى حديقة

غناء . وسوف أتولى إصلاح البرج المستدير إصلاحا تامًّا فأعيده إلى ما كان عليه فى أيامه الأولى .

كيجان :— نعم ! وسوف يصبح محل التعذيب فى بلدنا نظيفاً ومرتباً كأحسن ما رأت عينى فى إيرلندا ، فنحن نسميه بلغة الشعراء سجن النعيم . . .

برودبنت :— سأضرب صفحاً عن تهكمك يامستر كيجان ، ولكن لأرى قد أصاب فى جوهر الموضوع ، فالعالم لايتسع إلا للأكفاء .

كيجان [بتهكم مؤدب] :— أطلب الصفح منكم أيها السادة ، ولكن صدقونى حين أقول إنى أقدر كفايتكم وكفاية نقابتكم . ولقد تبنون الفندق كذلك على أكمل وجه إذا وجدتم حاجتكم من البنائين الأكفاء والنجارين الأكفاء والسباكين الأكفاء ، ولكنى أشك فى أنكم واجدون ما تطلبون . [يكف عن تهكمه] وحين يفلس الفندق سوف تضمنون إنجاز التصفية بكفاية لانظير لها جرياً على عادتكم معشر الانجليز الأكفاء . ثم تبنون المشروع على أساس جديد يقوم على الكفاية ، ثم تشرفون على تصفيته بكفاية بعد إفلاسه للمرة الثانية [يتبادل برودبنت ولارى النظرات لأنهما يجدان فى كلام القس كيجان إيحاء جميلا ولا يخيفهم إلا أن يكون القس خبيراً فى شئون المال يمكر بهم .] نعم سوف تتخلصون من حملة الأسهم القدامى بكفاية بعد أن تسكتوا الدائنين بشلنات قليلة عن كل جنيه ، وبذلك يؤول الفندق اليكم . . . وسوف لاتنقصكم الكفاية لإرغام هافيجان على الرحيل إلى أمريكا ، أما بارنى دوران ذو اللسان السليط والأساليب الإرهابية فسوف يسوق لكم عما لكم سوق العبيد بكفاية لا نظير لها [ينخفض صوته ويعبر عن المرارة] نعم ، سوف تصير هذه الناحية الريفية الجرداء إلى أتون صاحب نكدح فيه جميعاً لنأتيكم بالمال ، وفى مدرسة الصناعات نتعلم الكفاية فى الكدح . وفى حاناتكم ينطفىء ذكاء أذكيائنا ، فمن نجوا منها أطفأت المكتبة ذكاءهم . وسوف تجبون ستة بنسات عن كل زائر للبرج المستدير وسوف تزينون الناحية بأسباب اللهو وتبيعون المرطبات فى كل مكان . وحين يتم لكم كل ذلك سوف ينفق حملة الأسهم فى انجلترا وأمريكا ما أتيناهم من مال

بكفاية فائقة فى الصيد والقنص وفى عمليات السرطان والزائدة ، وفى الولائم وفى المقامرة . أما ما يدخرونه فسوف تستثمرونه فى مشروعات جديدة لإصلاح الأراضى . إن العالم ظل أربعة قرون إجرامية يحلم بالكفاية ، وياله من حلم سخيف لا يريد أن ينتهى ، ولكن النهاية آتية لا ريب فيها .

ولكن أقوى تصوير للطبقة الرأسمالية ومساوئها جاد به قلم شو تجده فى « ميجر باربارا » . فبطل هذه المسرحية أيدر شافت ، رجل من كبار رجال الأعمال يملك مصانع للأسلحة ويبيع الموت للصديق والعدو على السواء .

شيرلى [غاضبا] :— من أتاك بملايينك ؟ أنا وأمثالى . إنما غناك من فقرنا . أنا لا ارضى أن يكون لى ضميرك ولو أوتيت كل دخلك !

أندر شافت :— وأنا لا أرضى أن يكون لى دخلك ولو أوتيت كل ضميرك يا مستر شيرلى .

وأندر شافت ليس رجلا بسيطاً يشتغل بجمع المال فحسب ، بل هو رجل حصيف ذو فلسفة فى الحياة واضحة منظمة . والفقر عنده ليس نقصاً بل جريمة ، وهو ليس جريمة كالجرائم المألوفة بل هو الجريمة الكبرى فى الحياة .

أندر شافت :— إن الجرائم الأخرى بلا استثناء تعد فضائل بالنسبة إليه . الفقر يعصف بالمدن ويزيلها من الوجود . الفقر ينشر الطواعين المهلكة . الفقر شبح يهوى بمعوله على كل شىء فى متناوله . . . إنما يخشى الجريمة السفهاء ، أما الفقر فيخشاه الجميع .

وهو إلى جانب ذلك رجل صريح لأنه قوى بماله وعتاده ، وهو لهذا لا يتحرج من ان يتحدث إلى ولده الساذج ستيفن عن الحكومة البريطانية فى احتقار لا مزيد عليه ، وحين يغضب ولده لما يسمع يكشف له أندر شافت عن أسرار لم تدر بخلده من قبل .

أندر شافت : أنت تحدثنى عن حكومة بلادك . إذاً فاعلم هذه الحقيقة :

«أنا» الحكومة . نعم ، أنا وزميلي لازار ! أتحسب أن قبضة من أمثالك
الأغرار يثرثرون في جماعة المناظرات التي تسمونها البرلمان يستطيعون أن يحكمو
أندر شافت ولازار ؟ كلا يا صديقي . سوف تعملون ما يعود علينا «نحن
بالربح . سوف تعلنون الحرب حين تناسبنا الحرب ، وسوف تصونون السلم حين
يناسبنا السلم . ويوم نرى أن الإنتاج بحاجة إلى قوانين معينة سوف تنادو
بضرورة تلك القوانين . ويوم أحتاج إلى شيء يصون نصيبي في الأرباح سوف
تعلنون أن حاجتي ضرورة قومية . فاذا أراد غيري أن ينتقص من نصيبي في
الأرباح دعوتم البوليس والجيش لنجدتي . وفي مقابل كل ذلك تطبل لكم
صحفي وتكيل سخي الثناء . وفي مقابل ذلك تتوهمون أنكم ساسة دهاة وتسعدو
بهذا الوهم ! هيا امض يا ولدي واعبث بافتتاحياتك وأحزابك العريقة وزعمائك
الأقطاب ومشكلاتك الخطيرة وبقية ألعابك الصبيانية . أما أنا فراجع إلى
مصنعي لأدفع أجر الزامرين وآمرهم بما يزمرون .

ولكن شو الذي مزق الطبقة الرأسمالية إرباً إرباً لم يصفح عن غباوة الطبقة
العاملة ، وكثيراً ما عرّض بها في كتاباته . وجميع مسرحياته تدور حول فكر
اجتماعية ، وهذه الفكرة الاجتماعية هي في الأغلب الأعم استغلال الأغنيا
للفقراء . ولكنه كذلك يهزأ بالأفكار الاجتماعية الكبرى هزءاً متصلا
فيقول : «أنتم أيها البسطاء تتحدثون عن قدسية الزواج . أما أنا فأقول لكم إن
الفقراء يتزوجون لأنهم لا يملكون أجر خادمة ، وأوساط الناس يتزوجون لأنه
لا يملكون أجر عشيقة ، والأغنياء لا يتزوجون أصلا ، فان تزوجوا فلأنهم بحاج
إلى وريث . أنتم أيها البسطاء تحسبون أن الرجل يقهر المرأة في معركة الحب
أما أنا فأقول لكم ما قاله جاك تانر لعاشق آن : أقرأت كتاب مترلنك عن
النحلة ؟ إن فيه عظة للناس أي عظة . أنت تحسب أنك تطلب يد آن . أنت
تحسب أنك المطارِد وأنها المطاردة ، أنت تحسب أنك تلعب دور المتودد ثم المقن
ثم المتغلب ثم المسيطر ، فيالك من غر أحمق ! وإنما أنت المطارَد وإنما أنت
التضحية ، وإنما أنت الفريسة المرموقة . » وهكذا دواليك .

هذه إلمامة عن الأديب الاشتراكي برناردشو روعي فيها الحياد الدقيق
ولا شك أن بعض ناقديه من الأدباء يتهمونه باستخدام مسرحياته أدوات

للدعاية ، ويصمونه لذلك بالركاكة الفنية ؛ لأن الضمير الفنى يأبى على الفنان أن يفرض آراءه على جمهوره أو أن يأذن لشخصيته بالظهور فى فنه . ولا شك أن بعض ناقديه من الاشتراكيين يتهمونه بالبورجوازية ؛ لابتعاده عن التيار الماركسى الأصلى ، ويصمونه لذلك بالذبذبة السياسية التى تلازم أكثر المفكرين بحكم موقفهم الاجتماعى المتوسط بين الرأسماليين والعمال . ولكن لعل أثره العظيم فى تنوير الرأى العام شفيع له عن جنايته الفنية . ولعل انتسابه إلى دولة إمبراطورية قد جعل من العسير عليه أن يتجاوز فى اشتراكيته الحدود التى يمكن لبريطانى أن يكون فيها اشتراكيًا .

لويس عوض

قضية العلم

بين الغزالى وابن رشد

موضوع القضية

هـذه قضية خطيرة حقًّا كان لها أعظم الأثر فى حياة المسلمين ومستقبل حضارتهم ، إذ عليها تتوقف الأسس التى تقوم عليها العلوم المختلفة ، فيتسنى بذلك أن يُرَسَم الطريق الذى يسلكه العلماء فى بحوثهم المختلفة ، ويمضون فيه فيجدونه مفتوحاً أمامهم مذللاً مؤدياً إلى أهداف يمكن تحقيقها ، أو ينصرفون عنه لأنه طريق وعر شائك مملوء بالعقبات التى تصدهم عن البحث ، وتلويهم عن النظر إلى الظواهر الطبيعية التى تؤلف بنيان العلم .

فإن سلمنا بوجود أسس يقوم العلم عليها أمكن التقدم العلمى ، وإن أنكرنا هذه الأسس وقف العلم عن التقدم .

ولقد أخذ المسلمون بالرأى الذى ينكر على العلم اسسه فكان ذلك علة التأخر فى ميدان العلوم ، وأخذت أوربا بالوجهة الأخرى من النظر فسار العلم شوطاً بعيداً فى سبيل التقدم مما نلمس أثره الآن .

وكان على رأس المهاجمين للعلم أبو حامد الغزالى المتوفى ٥٠٥ هجرية ، الذى ألف كتابه « تهافت الفلاسفة » يعترض فيه على الفلاسفة والمتكلمين ويبين فساد آرائهم جملة وتفصيلا ، ويبطل قولهم بقدم العالم وأبديته ، وأبدية الزمان والحركة ، والقول بأن الله لا يعلم الجزئيات ، والقول بضرورة الأسباب والمسببات ، وغير ذلك من المسائل .

ولم يسكت الفلاسفة على هذه الدعاوى فكتب ابن رشد فيلسوف قرطبة المتوفى ٥٩٥ هجرية كتاب « تهافت التهافت » يقرع الحجة فيه بالحجة والدليل بالدليل .

وكان الجمهور هو القاضى أو الحكم فى هذه الخصومة الفلسفية ، فانتصر للغزالى وخلع عليه لقب حجة الإسلام ، وغضب على ابن رشد ، فاتهم بالكفر والزندقة وحرقت كتبه . ولسنا نتعرض لأسباب هذا الاضطهاد ففيه أقوال كثيرة مذكورة فى التاريخ ، ولكننا نرجح أن ميول العامة كانت تعارض آراء الفلاسفة عموماً ، وتسخط على ابن رشد على وجه الخصوص .

وترجمت كتب ابن رشد إلى اللاتينية ، وظلت آراؤه تدرس فى جامعات أوربا حتى القرن السادس عشر الميلادى ، بل أبعد من هذا .

لقد اصطنعت الحضارة الأوربية آراء ابن رشد الفيلسوف فى العلم فنهضت نهضتها العلمية التى نشهد ثمرتها فى العصر الحاضر ، وسار المسلمون وراء الغزالى فتأخروا علميًّا مما هو واقع أمام بصرنا .

وإذا كان المسلمون خاصتهم وعامتهم قد اقتنعوا بأدلة الغزالى ، فلهم أعذار كثيرة . فالغزالى من أئمة الجدل دون نزاع ، برع فى المناظرة ، ورسخت قدمه فى المنطق ، وملك عنان الموضوع الذى يجادل فيه الخصوم . وهو لا يخاطب العقل وحده ، بل يتجه إلى القلب فيلعب على أوتار العاطفة الدينية ، وهى أقوى العواطف فى ذلك العصر الذى كان الدين آخذاً فيه بالقلوب فى كل ناحية من نواحى الحياة . وإلى جانب ذلك نجد أنه يحسن عرض الموضوع ويضرب الأمثلة الكثيرة المنوعة ، ويتخذ فى الكتابة أسلوباً بسيطاً يفهمه صاحب الثقافة اليسيرة .

وموضوع النزاع هو الأسباب والمسببات : هل بينهما صلة ضرورية حتى إذا ما وُجد السبب نشأ عنه المسبب بالضرورة ، أم أن هذه الصلة غير ضرورية ؟ ويرى الغزالى أن هذه الصلة غير ضرورية ، وفى ذلك يقول : « فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر ، ولا من ضرورة عدم أحدهما عدم الآخر مثل : الرى والشرب ، والشبع والأكل ، والاحتراق ولقاء النار ، والنور وطلوع الشمس ، والموت وجز الرقبة ، والشفاء وشرب الدواء ، وإسهال البطن واستعمال المسهل ، وهلم جرا إلى كل المشاهدات من المقترنات فى الطب والنجوم والصناعات والحرف . »

فأنت ترى أنه ينفى مبدأ السببية ، ويسوق لذلك مثالاً بعد مثال من المشاهدات العامة ليؤكد المسألة تأكيد لا يقبل الشك . ولكن هذا النفى الحاسم لا يضطرب له جنان ابن رشد الذى يبادر فيقول : « أما إنكار وجود

الأسباب الفاعلة التى تشاهد فى المحسوسات فقول سفسطائى ، والمتكلم بذلك إم
جاحد بلسانه لما فى جنانه ، وإما منقاد لشبهة سفسطائية . »

فالغزالى وابن رشد على طرفى نقيض ، الأول ينكر مبدأ العِلّية وينكر
أن المسببات مستمدة من الأسباب ، والثانى يقرر هذا المبدأ أو يثبته .

سخرية الفلاسفة ورد الغزالى

ولما رأى الفلاسفة إنكار الخصوم للمشاهدات المحسوسة ، ردوا عليه
ساخرين ، إذ متى انعدمت الصلة الطبيعية الضرورية بين الأشياء ، لم تثبت عل
حال ، وجاز أن يقع كل شىء . ومن وضع كتاباً فى بيته فمن الجائز أن يكون قد
انقلب عند رجوعه إلى بيته غلاماً أمرد عاقلاً متصرفاً أو انقلب حيواناً ، ومن
ترك غلاماً فى بيته فليُجَوِّز انقلابه كلباً ، أو ترك الرماد فليجوِّز انقلابه مسكا
وانقلاب الحجر ذهباً والذهب حجراً . وإذا سئل أحد عن شىء من هذا فينبغى
أن يقول لا أدرى ما فى البيت الآن ، وإنما القدر الذى أعلمه أنى تركت فى البيت
كتاباً ولعله الآن فرس ، أو أنى تركت فى البيت جرة من الماء ولعلها انقلبت
شجرة تفاح .

فماذا كان رد الغزالى على هذه السخرية ؟

قال : لم نَدَّعِ أن هذه الأمور واجبة بل هى ممكنة يجوز أن تقع ويجوز ألا
تقع . واستمرار العادة بها مرة بعد أخرى ترسخ فى أذهاننا جريانها على وفق
العادة الماضية ترسخاً لا تنفك عنه .

وأجاب ابن رشد : ما أدرى ما يريدون باسم العادة ، هل يريدون أنها عادة
الفاعل ، أو عادة الموجودات ، أو عادتنا عند الحكم على هذه الموجودات ؟
ومحال أن يكون لله تعالى عادة ؛ فإن العادة ملكة يكتسبها الفاعل توجب تكرار
الفعل منه على الأكثر والله تعالى يقول : « ولن تجد لسنة الله تبديلا » . وإذ
أرادوا أنها عادة الموجودات فالعادة لا تكون إلا لذى نَفْس ، وإن كانت
فى غير ذى نفس فهى فى الحقيقة طبيعية . . . وإما أن يكون عادة لنا فى
الحكم على الموجودات فإن هذه العادة ليست شيئاً أكثر من فعل العقل الذى
يقتضيه طبعه ، وبه صار العقل عقلا .

الله هو الفاعل

ثم اختار الغزالى مثال النار والاحتراق وناقشه قائلا : إن الخصم يدعى أن فاعل الاحتراق هو النار فقط ، وهو فاعل بالطبع لا بالاختيار فلا يمكنه الكف عما هو طبعه . ولكن هذا غير صحيح إذ أن فاعل الاحتراق هو الله تعالى بواسطة الملائكة أو بغير واسطة ، وأما النار فهى جماد لا فعل لها . وليس للفلاسفة من دليل على قولهم إلا مشاهدة حصول الاحتراق عند ملاقاة النار ، والمشاهدة تدل على الحصول عنده ولا تدل على الحصول به .

هذا الرأى قريب الشبه من مذهب مالبرانش صاحب مذهب المناسبات المشهور occasionalisme . وحاصل هذا المذهب الذى يقول به تلميذ ديكارت هو أن كل شىء يحدث بواسطة الله ، أما الأسباب الظاهرة فهى « مناسبات » الإرادة الإلهية .

وهو رأى جميع الذين يردون كل شىء إلى الله لا رأى الغزالى و مالبرانش وحدهما .

ونعود إلى الجدل بين الغزالى وابن رشد . فقد أنكر الفلاسفة وقوع سيدنا إبراهيم عليه السلام فى النار مع عدم الاحتراق وبقاء النار ناراً ، وزعموا أن ذلك لا يمكن إلا بسلب الحرارة من النار ، أو بانقلاب ذات إبراهيم وبدنه حجرا أو شيئاً لا تؤثر فيه النار . ويرد الغزالى عليهم بأن صفة الإحراق فى النار غير ضرورية بل ممكنة ، كما أن فى مقدورات الله تعالى غرائب وعجائب ، ونحن لم نشاهد جميعها ، فلا ينبغى أن ننكر إمكانها ونحكم باستحالتها .

ويبدو أن التعرض للإلهيات كان مثاراً لخوف شديد من جانب الفلاسفة ؛ إذ تكفى تهمة الزندقة أو إنكار ما جاء فى الشرع أن توقع بصاحبها شرًّا عظيماً . لهذا السبب بادر ابن رشد بنفى هذه التهمة بما يفصح عن الخوف الكامن فى نفسه من نسبة الكفر إليه ، وهذا ما يرجح عندنا أن محنته كانت لهذا السبب دون غيره ، فقال يرد على الغزالى : « أما ما نسبه من الاعتراض على معجزة إبراهيم عليه السلام فشىء لم يقله إلا الزنادقة من أهل الإسلام ، فإن الحكماء من الفلاسفة ليس يجوز عندهم التكلم ولا الجدل فى مبادىء الشرع . وفاعل ذلك عندهم محتاج إلى الأدب الشديد » .

معجزة النبى

ولعل الغزالى كان مضطراً إلى فسح المجال للممكنات ونفى ضرورة الظواهر الطبيعية ليتسنى له تفسير معجزات الأنبياء تفسيراً يتلاءم مع المذهب الذى يتصوره . وحاصل هذا المذهب أن الظواهر الطبيعية ليست ثابتة بحيث يمكن القول بوجود الأسباب والمسببات ، بل هى ممكنة وقد تتغير ، والله تعالى هو الذى يغيرها ، وفى مقدورات الله أن يدبر المادة بما ليس معهوداً لنا . ولما كانت نفس النبى من الصفاء والاتصال بحيث يطلع على الممكن من الغيب ، وقعت المعجزة ، مثل جواز نزول الأمطار والصواعق وتزلزل الأرض بقوة نفس النبى .

بل أكثر من ذلك فإن فى مبادىء الاستعدادات غرائب وعجائب لم نشهدها ولم نعرفها ، ولهذا توصل أرباب الطلسمات بمعونة الطوالع ومزج القوى السماوية بالخواص المعدنية ، أى بمزج علم خواص الجواهر المعدنية وعلم النجوم ، إلى إحداث أمور غريبة فى العالم ، « فربما دفعوا الحية والعقرب عن بلد إلى غير ذلك » . ومن استقرأ عجائب العلوم لم يستبعد من قدرة الله ما يحكى من معجزات الأنبياء بحال من الأحوال .

واظنك فى غير حاجة إلى معرفة الجواب الذى سوف يدلى به ابن رشد عن هذه المسألة الجديدة ، فقد سبق ان أجاب عنها حين تعرض لمعجزة إبراهيم ، وهو أن الكلام فى المعجزات ليس فيه للحكماء من الفلاسفة قول . غير أن ابن رشد بعد سوق هذه المقدمة التى يدافع فيها عن نفسه وعن الفلاسفة ، ما عدا ابن سينا الذى يثبت له الكلام فى المعجزات على النحو الذى يحكيه الغزالى ، عاد إلى تعليل المعجزة بأنها مستحيلة على سائر الناس ، ممكنة للنبى لأنه يأتى بالخوارق . ومعنى ذلك أن الأشياء الطبيعية متصلة اتصالاً ضرورياً مع استثناء الخوارق للعادات ، وعلينا تصديقها بالتسليم . ومع ذلك فمعجزة المعجزات وهو كتاب الله العزيز ليس معجزاً وخارقاً من طريق السماع ، كانقلاب العصا حية ، بل ثبت كونه معجزاً بطريق الحس والاعتبار لكل إنسان وجد ويوجد إلى يوم القيامة . وبهذا فاقت هذه المعجزة سائر المعجزات .

الطبيعة والعقل والله

يتصور ابن رشد أن الأشياء الطبيعية متصلة بعضها ببعض اتصالاً ضرورياً بأسباب محسوسة مشاهدة ، وأن الأسباب فاعلة والمسببات منفعلة . والدليل على ذلك أن لكل موجود فعلاً يخصه لأن له طبيعة تخصه . ومعرفتنا بهذه الطبيعة وهذا الفعل هو الذى يسمح لنا أن نطلق على كل شىء اسماً واحداً يخصه . ولو لم يكن لكل شىء اسم يخصه لكانت الأشياء كلها شيئاً واحداً أو لا شىء . وإذن فإطلاق الأسماء على الأشياء إنما نشأ من وجود طبيعة واحدة ثابتة تخصها ، ولكل طبيعة فعل خاص . فما دام اسم النار باقياً لها وحدها فليس ما يوجب أن نسلبها صفة الإحراق ، وإلا فلنطلق عليها اسماً آخر .

والعقل هو الذى يدرك أسباب الموجودات الطبيعية ، فمن رفع الأسباب فقد رفع العقل . وإذا رُفع العقل ، ورُفعت الأسباب والمسببات فقد بطل العلم ؛ إذ لن يكون هناك شىء معلوم علماً حقيقياً بل ظنياً فقط .

هل يريد ابن رشد أن يقول إن الفاعل الحقيقى والسبب فى إحداث الأشياء العقل أم الأشياء الطبيعية ؟

أعتقد أننى لا أعدو الصواب حين أقرر أن رأى ابن رشد هو العقل لا الطبيعة ؛ فقد ناقش هذه المسألة بصدد ما يقولونه عن جريان الأشياء بالعادة ، وأنكر أن تكون عادة الله لأن العادة ملكة مكتسبة ، وأنكر أن يكون الطبيعة عادة لأنها لا تكون إلا لذى نفس ، بقى أن تكون هذه العادة عادتنا فى الحكم على الموجودات ، وليست هى « شيئاً آخر أكثر من فعل العقل الذى يقتضيه طبعه وبه صار العقل عقلا . »

وسوف نعرض فى إيجاز فيما بعد لمذهب « كانْت » ، ولعلك تجد كثيراً من الشبه بين رأيه فى حكم العقل على الأشياء وبين رأى ابن رشد .

ويذكر ابن رشد أنه يتفق مع سائر الحكماء فى أن الموجودات المحسوسة ولو أنها فاعلة بعضها فى بعض إلا أنها ليست مكتفية بأنفسها فى هذا الفاعل ، بل تحتاج إلى فاعل خارج عنها فعله شرط فى فعلها . وقد اتفق الحكماء كما يقول ابن رشد على أن الفاعل الأول برىء عن المادة ، وأن فعله شرط فى وجود الموجودات

وفى وجود أفعالها . وظاهر أن ابن رشد يريد أن يقول إن هذا الفاعل الخارج عن المادة هو العقل .

والله هو واهب العقل ، وعنده علم أزلى بطبائع الأشياء ، فيستطيع أن يعلم منذ الأزل بما سوف يقع لأن للموجودات طبائع ثابتة .

وطبيعة الموجود تابعة للعلم الأزلى . وعلم الخالق هو السبب فى حصول تلك الطبيعة للمخلوق ، وليس الوقوف على الغيب شيئاً أكثر من الاطلاع على هذه الطبيعة .

نقد هيوم وكانت

وقد يبدو لك أن هـذه المناقشات الطويلة بين الغزالى وابن رشد عقيمة ، ما كان ينبغى أن يصرف فيها العقلاء وقتهم دون جدوى . غير أن هيوم فى القرن الثامن عشر الميلادى ، أى بعد وفاة ابن رشد بستة قرون ، تناول هذا الموضوع نفسه وأفاض فيه بما لا يخرج عما كتبه الغزالى وابن رشد ولكن بشكل آخر . ذلك أن هيوم ينظر إلى المسألة محللاً العناصر التى يتألف منها عقلنا خاصاً بمبدإ السببية ، أى إنه ينقد العقل البشرى ، على حين أن الغزالى نظر إليها من وجهة نظر الدين ، وابن رشد من وجهة نظر الفلسفة .

وقد كان لنقد هيوم الموجه إلى الدين والفلسفة جميعاً أعظم الأثر فى حياة فيلسوف من أعظم فلاسفة القرن الثامن عشر خطراً ، قيل إنه أحدث انقلاباً فى الفلسفة شبيهاً بالانقلاب الذى أحدثه كوبرنيق فى علم الفلك ، ونعنى به كانت الذى قال : « لقد أيقظنى هيوم من سبات الاعتقادات » .

ويرى هيوم أن الحواس مصدر فكرة السببية وجميع الأفكار الأخرى . فالتجربة الحسية هى التى تعلمنا أن كرة البلياردو حين تصطدم بكرة أخرى تحركها وتدفعها إلى اتجاه معين . ونحن لا نعرف بالفطرة أنها تتحرك ولا نعرف اتجاه حركتها . وليس بين ما نسميه علة وما نسميه معلولاً أية صلة ضرورية توجد بالفطرة . كل ما نعرفه هو أن الأشياء تتابع على نسق معين . فنحن نرى الحرارة تصاحب اللهب ولكننا لا نعلم ما العلاقة بينهما . هل هذه العلاقة مستمدة من الأشياء الخارجية أم مستمدة من التأمل الباطنى لعمليات النفس ؟ الواقع لا هذا

ولا ذاك ، بل معنى السببية لايدل على شيء ، فهو من الألفاظ الفلسفية التى اخترعناها وجرينا وراءها . وكل ما نستطيع أن نقوله هو أن السببية عادة نشأت بتوالى النظر إلى شيئين بينهما علاقة تتابع دائمة .

ونظر كانت إلى المسألة من زاوية أخرى ؛ إذ بدأ يحلل العقل نفسه وما فيه من أحكام . والأحكام أساس التفكير . نقول : الحرارة تمدد الأجسام ، وهو حكم علمى ؛ لأنه ضرورى ينطبق على الماضى والحاضر والمستقبل .

بأى حق نثبت أن هذه القضية ضرورية عامة صادقة فى جميع الأحوال ؟ هل هى التجربة التى تعلمنا ذلك ؟ ليست التجربة لأنه من الجائز أن الحالات التى لم نشاهدها تختلف عما شاهدناه . فالتجربة وحدها لا تكفى فى بناء العلم أو المعرفة العلمية .

ولكى تكون الأحكام ضرورية أى علمية يجب أن تستند إلى مبادئ عقلية أصولها موجودة فى العقل كما هى موجودة فى الحس بالمشاهدة . فالحواس تقدم مادة الأحكام ، والعقل يقوم بربطها ، ويطبعها بطابعه ، ويضفى عليها من صورته .

فى العقل عناصر يضيفها إلى المعرفة الحسية التى يستقبلها من الخارج ، فتكون كعصارة المعدة التى تختلط بالطعام لتهضمه .

هذه العناصر الفطرية التى ينكرها الحسيون والتى يحاول « كانت » فى نقده للعقل الخالص أن يبين وجودها هى المكان صورة الإحساسات الخارجية ، والزمان صورة الإحساسات الداخلية .

وإذن فالحواس تقدم لنا الأشياء فى قالبين هما الزمان والمكان ؛ ولذلك لا نعرف الأشياء فى ذاتها ، بل كما تبدو لنا خلال هذين المنظارين ، وإليهما يرجع مبدأ السببية العلمى .

احمد فؤاد الأهوانى

النفس المغتربة

يا سارى الليل ، هلا استصبح السارى أم ضلّ مسراه فى بيداء مقفار ؟
قضى الحفاظ على حبى ومقتبلى واستهدف اليأس آمالى وأفكارى
فلست أعجب من شعرى وهاجستى ولست أطرب من لحنى وقيثارى
ذابت أمانىّ فى نفسى وما برحت نفسى رهينة أحباس وأغمار
يومى كأمسى ، ولا أصبو إلى أمل ضافى البريق ، وإقلالى كإكثارى
وكم تمرست باللأواء وانخدعت نفسى بمستقبل كالآل غرار
سئمت ظل حياتى جاهداً لغبا مرنّحاً . بين إقبال وإدبار
وما أسفت على إفلات سانحة ولا فرحت ، إذا استجليت أوطارى
وقد بكيت لإنسانية نفقت هوناً ، وساوم فيها البائع الشارى
أنا الهزار تغنّى ، ثم أخرسه شؤم الحياة ، وبؤس الأهل والدار
هجرت روضىَ لامستبدلا عوضا عنه ، وغادرت بين الدوح أوكارى

يا سارى الليل ، خذنى فى غياهبه واضرب بنا فى غيابات وأقفار
فما الحياة سوى أشجان مغترب وما النعيم سوى إدلاجة السارى
ويلمّها ! برّت الأعلاث معلية سود الضمائر ، وانحطت بأحرار
صوت النهى فى رباها خافتٌ وهنٌ وفى معالمها ترديد ثرثار
وقد تشابه لوناً فى مساربها لمح من النور أو لفح من النار
إن الصحارى محاريب تنوف على مرابع حفلت بالإثم والعار !
وما « السعادة » فى رأيى سوى شبح من الظنون ، تراءى خلف منظار

ألوم نفسى ولا ألنى لها خطأ | فأنطوى بصباباتى وأسرارى
كأننى وحياتى حين أبصرها | خوّاض معركة . جواب أسفار
فان شكوت فشكوى ضيغم أنفٍ | ورب منتحب فى بأس زآر
وقيمة النفس أغلى فى النهى ثمناً | من أن تباع بدينار وقنطار

سعيت ، لم أدخر عزما لنافلة | وُجدت لم أتنظّر خوفَ إعسار
وقد قضيت ، وما كفى بجارمة | على دمى . فمن المطلوب بالثار ؟

[مكة] حسين عرب

LE POUVOIR DES MOTS

ROGER CAILLOIS

سلطان اللفظ (١)

٤ — المذاهب المتزمتة

والواقع أنه طبيعي جداً أن يحتل المشعوذون الميادين العامة ؛ فهي خير الأماكن التي يعرضون فيها أعمالهم البطولية . فلا يحتم فيها أن يتبع التفكير نهجاً منتظماً ، وليس المهم فيها أن يلتزم الانسان الدقة في تعبيره ، بل المهم أن يكون له حظ كبير من التهويش . فكل يعرف أن التأثير في الجماهير لا يكون عن طريق المنطق ، بل خير من ذلك الضجيج والعجيج وترديد صيحات معينة عالية ، حتى ينتهي الأمر بهذا الترديد إلى أن يحدث بطريقة آلية الانفعالات التي يتوقعها رجل ماهر أو رجل معتوه يخضع هو نفسه للهذيان الذي ينشره . نعم إن العلماء والفلاسفة يدّعون أنهم في ذلك أشد تحرجاً . ولكن كلاً من المفكر والمؤرّج يستعير من اللغة أشراكها . فكلاهما يتملق حاجة مختلفة ، أحدهما يصف تأثير عقاقيره أو سياسته في شكل مغرٍ خلاب . والآخر يعرض مذهباً يزعم أنه ينطوي على حل لكل مشكلة وعلى تفسير لأحداث العالم جميعاً . وحسب هذا أن يستهوي معظم الناس . وللخطباء أن يختاروا ما يعنّ لهم من الوسائل ، فهي كثيرة . فريق منهم يفسّر كل شيء بالصراع بين الطبقات وبتطور الأحوال الاقتصادية . وفريق ثان يفسّره بالتنافس بين الأجناس ، وبجهود أقلها موهبة للتغلب على الأجناس الممتازة الخليقة بالسيطرة العالمية . على حين يردّ فريق ثالث جميع الأمور إلى النشاط الجنسي الذي يبدو تأثيره القوي في كل شيء . وكان قوم من قبل يفسرون الأحداث بظواهر النجوم ، يسلكون نفس الطريق

---

(١) الكاتب المصري عدد ٧ (ابريل ١٩٤٦) .

ويصيبون نفس النجاح . فأساس المبدأ واحد ، والوسيلة لا يمكن أن تخفق . وهى تطبق فى كثير من الثقة والاطمئنان . ويكفى وجود أداة مرنة لكى توصف الأشياء بألوان متناقضة فى آن واحد ، فتعرض على أنها بيضاء وعلى أنها سوداء فى الوقت نفسه ، وسرعان ما تنجح الحيلة . ويسير جداً أن نلحق أية نتيجة بالسبب الذى نكون اخترناه . فيكفى أن يكون بهذا السبب بعض العموم والإبهام . ولا يبقى بعد ذلك إلا أن نظهر أثره بالالتجاء إلى بعض الألفاظ الرئيسية الرنانة التى يقدّر أنها تشع الضوء من نفسها . فبعضهم يذكر « المنطق » أو « ارتفاع القيمة » ، وبعضهم الآخر يذكر « الاندفاع » أو « العقدة النفسية » أو « التمجيد » ، وفريق ثالث يذكر « طول الجمجمة » . فإذا كل شئ قد استضاء . فمثلاً يرى أحدهم أن فى لوحات مصوّر نزح إلى تاهيتى تعبيراً عن روح التوسع الاستعمارى الفرنسى . ويفسر ثان الاتجاه الرأسمالى فى الاقتصاد بتأثير الميول نحو نوع من الشهوات الجنسية الآثمة ، ويقرر فى جد أن هذه الميول قد انقلبت من الأفراد إلى الجماعة ، على حين يستكشف ثالث أن فى مذبحة سان بارتيليمى أو فى الثورة الفرنسية تآمراً من الأجناس الدنيا ضد الأجناس الآرية المصطفاة . وفى كل مرة يكفى الالتجاء إلى لفظ معيَّن ، فإليه وحده يستند ما للتفسير من حظوة واعتبار . وهذا اللفظ يتحدى اللفظ ويعضله ؛ لأنه لا يمكن مناقشة مثل هذه التأكيدات الجازمة القائمة على غير أساس لها . فلم تنشأ إلا من استعمال آلى للفظ عام يصلح استعماله لجميع الحالات الواقعية أو التى يمكن تصورها . والأسباب التى يمتنع لأجلها إثبات أن هذه التأكيدات صحيحة هى نفسها التى تقف فى إثبات أنها باطلة . وطابعها التعسفى ذاته يحميها ويجعلها غير قابلة للتفنيد . فليس فى وسع أحد أن يثبت أن رسم جوجان ليس حتما تصويراً للتوسع الاستعمارى ، أو أن الاقتصاد الرأسمالى مستقل عن الميول الجنسية الآثمة ، أو أن لعبة الشطرنج ليست تمجيداً لعقدة « أديب » (فمن الواضح أن الملك الذى يجب قهره فى احترام ودون إزالته رمز للأب) . كما أنه ليس من دليل حاسم يمكن الاستناد إليه لاستبعاد الفرض الذى يقضى بأن الاستيلاء على سجن الباستيل مرجعه مؤامرة دبرها رجال سمر اللون ليقاوموا بها سيطرة الشُّقر ، أو مرجعه اقتران كوكب نبتون بأورانوس فى برج ساجيتير . وعسير أن نلغى أية علاقة تصل بين مبدأ عام وحدث خاص . ولنفرض أنه أمكن

تحقيق ذلك عن طريق معجزة ، أو على الأقل بشكل غير مباشر أى بإيضاح
صلات أدق وأوثق بين الأشياء ، فى هذه الحالة نفسها لن يوافق هؤلاء العلماء
على أن فى هذا انهزاماً لهم . فسيتهمون خصومهم بأنهم ضحية مظاهر خدعتهم
وأنهم يقفون عند الأشكال الخارجية للأشياء ، على حين أنهم إذا تعمقوا لخصو
وحللوها تحليلا دقيقاً فسيستكشفون أن الدوافع التى بينوها هى التى أدت إلى
وجود كل شىء . ولا يمكن بحال أن يتعرضوا للخطأ .

وبطبيعة الحال تطغى بعض تعليلاتهم على بعض . ولا ينتهون من التنازع
فيما بينهم ، بل أكثر من ذلك فهم يحاولون أن يقهر بعضهم بعضاً فى نظرياتهم
المختلفة ، فيفسر كل منهم تسلسل الأسباب التى أدت إلى إيجاد المذهب الذى
يناهضه . وينجح فى ذلك دون عسر بفضل حديثه السحرى وحده ، هذا
الحديث الذى يعتبره الآخر بحق جدلا لفظيا أجوف ، ولكن دون أن يتبين
أن حديثه نفسه فى هذا الموضوع لا يفضل فى شىء الحديث الذى ينقضه
وكثيراً ما سمعت هؤلاء العلماء يحرّم بعضهم بعضاً . لا يُقدمون على ذلك بعد
مناقشة حجج الخصم ، بل يسرعون إلى إدراج هذا الخصم بين الذين يستنكرو
مذهبهم الخاص . فالبسيكولوجى يدرجه بين هؤلاء التعساء الذين يسميهم
المكبوتين ، ورجل الاقتصاد يدرجه بين أولئك الذين ينعتهم بالبورچوازيين
الذين لا تقوم حججهم إلا على أساس من مصالحهم الخاصة ، ودارس الأجناس
البشرية يدرج المتمرّد بين الطبقات الدنيا ذات الذهن الهدّام (كما يعلم ذلك
كل إنسان) ، والمنجم مقتنع أنه حين يقرأ طالع الرجل البائس سيستكشف أنه
ولد فى ظل نجم سيئ ذى أثر خبيث يمنعه حتى من أن يعترف بما للتنجيم من
أساس قوى ودعامة وطيدة .

لذلك فسرعان ما يبت فى الموضوع بطريقة حاسمة ؛ لأن مدار الأمر ليس هو
مناقشة الآراء والنظريات ، وإنما هو استخلاص الحكم على هذه الآراء
والنظريات من أشخاص أصحابها . فلا يضطرب صاحب النظرية بسبب مثل هذا
الحادث التافه الحقير الذى كان فضلا عن ذلك متوقعاً ، والذى يدخل على كل
حال فى النظام العام للعالم على الصورة التى يصفها المذهب الذى يقدّسه . فيمر
دون أن يلوى عليه ، ويواصل فى يسر تأويل أحداث العالم على المنوال الذى يرا
مذهبه . ألم أقل لك إنه معصوم من الخطأ ، وإنه ثابت الجنان لا يتزعزع .

ولست أعرف شيئاً أشد احتقاراً للواقع من مثل هذه السيرة . إن تلجأ إليها العقيدة الدينية ، فلا غبار على ذلك ، فهى تقوم فى هذا بمهمتها . وأفهم حق الفهم أن رجل الدين يستند على الحقائق التى نزل بها الوحى فلا يتكلف إدحاض منطق الملحدين ، فهذا المنطق جاءهم من الشيطان . ورجل الدين يترك أمر الإقناع إلى النعمة التى يمنحها الله ، أو إلى النار التى يحرق فيها الملحدون . أما أن يحذو محترف التفكير هذا الحذو ، وفى غير وعى ، فهذا ما يزعجنى ويقلقنى . فلا بد من أن يكون للألفاظ متى أطلقت سلطان غير محدود فى ألاّ تعنى شيئاً واضحاً معيناً . وإذا قصرت هذه الألفاظ على وظائفها باعتبارها علامات تحكمية ، وإذا جمع بعضها إلى بعض ولم يجمع بينها وبين الأشياء ، فسرعان ما تقوى ويشد بعضها أزْرَ بعض ، وتنفى ماعداها ، فتكوّن مذهباً منظماً لاسبيل إلى قهره مهما يكن تافهاً . نعم تصبح ذات بأس ، وكأنه بأس لا حدّ له . فهى تمحو العالم ، ولا يقف فى سبيلها شئ ، لا المعلومات البديهية التى تلمسها الحواس ، ولا العلاقات الحتمية التى يوجدها العقل بين الأفكار ، ولا الحقائق المؤكدة الأدق التى يشعر القلب أنها أشد ثباتاً وأقرب إليه من سواها جميعاً . وكأن العالم كله قد غشيته ظلمة وأُقصى إلى مرتبة ثانوية مبهمة غامضة بسبب هذا الستار المضطرب المرن الذى تسدله الألفاظ حين يُتقن تأليفها فى تركيب عظيم شامل .

وليس ينقضى عجبى من اتساع الخدعة ؛ فهى مستمرة عامة تشمل كل شئ ، لذلك لاتلحظ بسهولة . وهى تنجح فى أن تغرّ أشد الأذهان حذقاً وأن تجتذب لنفسها حتى المقدرة فى التعبير عن الآراء فى دقة ، فتخدر بذلك يقظة الأفكار الحذرة بطبيعتها . وأخطارها أشد حين تصوّب نحو أذهان أقل سموّاً ، حين تتجه على العكس من ذلك إلى قوات فظة سريعة الالتهاب ، لا يقيها من الضلال شئ ، تهاج إذ يلوّح لها بخرقة من القماش الأحمر وتهدأ فى مثل هذا اليسر . وتنشأ أضرار جمة من مثل هذا الاضطراب الذى قد يستتبع آثاراً بالغة فى السوء . ولو أنى اندفعت إلى تعدادها لوقعت فى الخطأ الذى أنقده . على أنى ألتمس معذرة فى أن أعرض عبارة ذكرها كونفوسيوس ، وقد صادفتها فى بحث قصد به أيضاً توجيه النقد إلى إساءة استعمال لفظ معين وهو لفظ « متصوف » فقد سئل كونفوسيوس عما يوصى به الأمير لنج دى فى من إجراء يتخذه لاستعادة السلم ولرفع مستوى الخلق فى مملكته حيث بلغت الفوضى أقصاها .

أجاب كونفوسيوس : « وضع الألفاظ موضعها . » ثم شرح فكرته قائلا
« حين لاتوضع الألفاظ فى موضعها تضطرب الأذهان ، وحين تضطرب الأذهان
تفسد المعاملات ، وحين تفسد المعاملات لا تدرس الموسيقا ولا تؤدى الشعائر
الدينية ، وحين لا تدرس الموسيقا ولا تؤدى الشعائر الدينية تفسد النسبة بين
العقوبة والإثم ، وحين تفسد النسبة بين العقوبة والإثم لايدرى الشعب على أى
قدميه يرقص ولا ماذا يعمل بأصابعه العشر . » ولست أدرى أكان مثل هذا
الدوران ضروريا ، ولكنى أرى فى هذه الحكمة كثيراً من الصدق والعمق

٥ — الخطر المهدد بالحرية

حين تفقد اللغة وضوحها وتستعمل بعض الألفاظ محل بعضها الآخر ، فـ
المقياس العام الذى يتيح للناس أبسط أوجه التبادل التى لايشوبها سوء التفاهم
وحين يتعدى كل واحد اختصاصه باستعمال حديث خلاب ، ولكنه حديث يخلو
من الدقة ومن المغزى ، فلا يمكن التمييز بين الحكيم من القول وسفيهه ، أو بين
الغث والسمين ، ولا يمكن أن ينقل أى تعليم أو أن يفسر . وكأن الأمر متعلق
ببابل حديثة لا تخرج منها لجاءة لغات مختلفة ، بل حتى حين تستعمل لغ
واحدة فلا بد للتفاهم من الالتجاء دائماً إلى الترجمة ، والترجمة مستحيلة لأن
لا توجد علاقة وثيقة أكيدة بين ألفاظ مضطربة غامضة لا توحى بنفس الصور
إلى الأشخاص المختلفين .

لا تبقى بعد ذلك إلا علامات لا ينتظر منها إلا أن يكون لها آثار الطلاسم
وهى على أى حال إشارات أكثر منها بيانات موضحة . ويفوز ذلك الذى يعرف
كيف يستعمل أغلظ الوسائل لاستغلال هذه الألفاظ ، لا باعتبار ما تعنيه بل
باعتبارها طعماً مغرياً ، من شأنها أن تلهب الشهوات وتثير ما يمكن أن يوجد
أكبر كم من النشاط النافع لغرض معين ، وفى أقل زمن ممكن . ويتولى فى
معامل البيان إخصائيون مجدون صياغة أشد الوسائل تأثيراً ، ويضعون التراكيب
والأوصاف التى ينبغى استعمالها للحصول على هذا الانفعال أو ذاك فى ثقة
وتأكيد . فى مثل هذه الأحوال من ذا الذى لا يوافق على أن ألفاظاً تختار فى
مهارة ، وتردد ترديداً عاماً ، ونقرن باستمرار بمشاعر معينة ، لا تصل فى جميع

الأحوال تقريباً إلى أن تحدث الانفعالات التى يراد إحداثها. وليس مايدعو إلى العنف للإمعان فى الترويض وحذقه ؛ فالعلم وحده كفيل بذلك. ويخيل لكل واحد أنه مندفع اندفاعاً طبيعيا ومن تلقاء نفسه، على حين يدفعه غيره فى هذا الطريق الذى مهده له فى حساب ماهر حاذق. هذا هو السبيل الذى يسلكه الانسان. وإن لم يحتط لنفسه فسرعان ما يخضع خضوعاً مطلقاً للانفعالات المنظمة. واستقلال الرجل المفكر آخر الأمر لا سبيل إليه إلا إذا اتبع حكم عقله. أما الألفاظ فينبغى أن ينفذ خلالها فيصل إلى الواقع ليطبق حكمه عليه. وحريته تكون عندئذ فى القرار الذى يتخذه بعد الإلمام بجميع الظروف. ولكنه إذا قصر اهتمامه على الألفاظ وحدها، فأهمل الرجوع إلى تجاربه الشخصية ليحقق ما تعنيه هذه الألفاظ، فالويل له، لقد هلك! وهناك تستعمل الألفاظ لحمله على عمل ما يراد منه، فيدفع إلى العبودية دون خشية من أن يحس ذلك. وفى وسع الطاغية الخبير المالك لأدوات الطغيان أن يملأه كما تملأ الساعة، وأن يضبطه كما يروق له. والدعاية ما تزال فنًّا فى مهده، ولكنها ظفرت من النتائج بقدر يجعلنا نشك فى أن الدولة ستعدل عن استعمال مثل هذه الوسيلة الناجحة الفعالة لتحصل من الناس على الطاعة، بل على الحماسة، وستعدل عن حرمان الفرد حريته بحبسه محتقرة مثل هذه الوسائل، إذا استطاعت أن تنظم شهواته.

وهذا التصوير القاتم ليس وهميًّا، فانه يصف حالة لا خيال فيها، وفى وسع كل فرد ملاحظتها إذا ما استطاع أن ينظر بعينيه. فبالقياس إلى كثير من الناس توجد هوّة يزداد اتساعها بين تجربة غير كافية وبين مجموعة من الألفاظ تفوقها بكثير لا من حيث الاتساع فقط، بل من حيث التعقد. وحين يكون الأمر متعلقاً بالألفاظ التى تدل على أشياء تقع تحت الحواس أو على حالات نفسية أولية بسيطة، فليس ما يدعو بعد إلى الانزعاج. ولكن حين تجمع الألفاظ يبدأ الابهام ؛ لأن بعض الفروق تمحى ويظهر الميل إلى المطابقة بين أشياء لا يمكن أن تكون مطابقة إلا من نواح معينة. وقد لفت إلى ذلك كاتب شديد الحساسية إذ قال : « كيف يمكن أن يقال « الأطفال » ؟ فان لفظ طفل لا يمكن أن يجمع، وإنما هو مفرد له مفهوم لا يحصر. ». وكذلك الأمر حين

يجمع لفظ « الرجل » . فليس من الممكن أن نتحدث عن الرجال حديثاً دقيقاً
صادقاً إلا إذا اقتصرنا على ما يمتاز به نوعهم ، واستبعدنا مايتفاوت فيه الأفراد
ومن ذا الذى يأخذ نفسه بمثل هذه الدقة !

وأقل لفظ من الألفاظ المجردة أشد خطراً من ذلك ؛ إذ يفترض عمليات
شاقة لا ينبغى القيام بها فى خفة . واللفظ فى براءته الظاهرة ينقلها جاهزة إل
أذهان لا تتصور كنهها بأى حال من الأحوال . فهى تستخدم هذه الإشار
فى سذاجة تامة دون أن تتنبه إلى ما فى ذلك من خطر إذا لم تبدأ بتحدي
معناها وباستعادة العملية الذهنية التى يدين هذا اللفظ لها بوجوده . وبه
الشرط وحده يمكن اقتناء اللفظ ، وإلا فانه لا يزيد على كونه مستعاراً . وهذ
هى مع الأسف حال أغلب الألفاظ بالقياس إلى معظم الناس . لم يزيدوا على أ
سمعوها أو قرأوها فرددوها على الشكل الذى يبدو لهم أقرب إلى التصدي
والاحتمال . ومثل هذه الألفاظ لا تشتمل على زيادة فى التعليم والتحصيل ، ب
تعتبر على العكس من ذلك خطراً داهماً . فهذه الحال تجعل الإنسان أعزل وتفس
حكمه ، وتجعل من هذا المخلوق المضطرب فريسة سهلة يستغلها الداعية مهر
كان أو ماهراً . ولست أنكر أن أحدهما يحاول التغرير ، وأن الآخر يريد
الخير فيما يقال . ولكن الواقع أن كلا منهما ينزله إلى مرتبة الدمية التى يحر
كيف يشاء .

وقد يشق على الناس أن يقبلوا أن هذا المصير محتوم على الإنسان . وق
يشق عليهم أيضاً أن يجدوا خير الوسائل التى تعينه على التحرر من هذا الر
الخبيث . ولكنى لا أشك فى أن من الخير له أن تزيد مقدرته على الحكم ع
الأشياء حكما سليما ؛ فهذا يحفظ عليه حريته الشخصية كاملة . فإنى لا أس
ترديد القول إنه لافائدة له فى الحرية التى تترك له فى ظاهر الأمر إذا عرفت الوس
التى تسخر بها إرادته . لذلك أرجو أن يعتاد الاحتراس من الألفاظ ؛ فعن طر
الألفاظ يمكن الوصول فى يسر إلى مفاجأته وإخضاعه .

بل أرجو ، ولكنى أخشى أن أرجو المستحيل ، أن يفحصها جميعاً فح
دقيقاً فيستبعد تلك التى تلقاها على سبيل المصادفة والتى يعجز عن أن يطا
بينها وبين حقيقة من الحقائق الواقعة . ليلغها إذا ما اضطر وهو يفحصها إ
الاعتراف بأنه يجهل ماتدل عليه وما تشير إليه . وفى هذا مطاردة للأشباح مما

لتلك التى كان يوصى بها القاص . هنالك نرى كثيراً من الألفاظ والعبارات والتراكيب الجوفاء تنحل وتزول . وربما تركت هى أيضاً فى الذاكرة بقعة من العفن كتلك التى تتركها على الجدران الحشرات التى تخيلها ، تلك الحشرات التى لم يعد لها حق فى الوجود ، فلم تكن تستطيع الظهور إلا وسط الجماهير بفضل غفلة عامة ، ولكنها تضطر إلى الزوال حين تطارد ويتبين أنها غير ذات غناء .

ولا إخال هذه المطاردة تروق الكثيرين ، أو أنهم يقدرون عليها . ولاشك أن الحديث يستتبع ، ثمناً لا سبيل إلى تجنبه ، هذا العدد العظيم من الألفاظ الهائمة الجوفاء . وطبيعى أن يلتقطها كل واحد فيستعملها دون كثير من التقيد كما يعن له . ولكن بعض الناس يبذلون جهدهم فى أن يكون استعمالهم لهذه الملكة الثمينة فى الحديث على خير الوجوه وأكملها ، بل يفخرون بذلك . وأظن أن عليهم أن يكونوا قدوة لغيرهم ، وأن أبسط الأمانة تقضى عليهم بألا يسيئوا استعمال السلطة الخطيرة الموكولة إليهم . وهم بلا شك لا يتعرضون لعقاب لو أنهم خانوا الأمانة ؛ بل قد يجدون فى ذلك مزايا مختلفة ، أولها تصفيق أولئك الذين يخدعونهم . ولكنهم بذلك يقصرون فى القيام بالواجب الذى تفرضه عليهم مكانتهم .

ويروى أن الصينيين لم يكونوا يملكون فى سالف الزمان للتعبير عما يريدون الا قطعاً صغيرة من الخيط يحدثون فيها عقداً معينة على أوضاع خاصة وفى أوقات متراوحة مناسبة . وكان موضع العقدة وشكلها يبينان فى عسر عما يريدون التعبير عنه . ثم اخترعت الكتابة . وظهرت مجموعات ضخمة من الكتب لم تراع فيها الدقة فى أداء الفكر . فلم يكن هنالك مايدعو إلى التفكير كثيراً للتعبير قليلا . بل كان الأمر على العكس من ذلك فى معظم الأحوال . وقد قلق أحد الحكماء من هذه الحال وصاح بهم قائلا : « سأردكم إلى التعبير بعقد الخيط » . وطبيعى أن هذه الصيحة لم تكن إلا مجرد رغبة لا يمكن تحقيقها . على أن هذا الحكيم كان مع ذلك يوصى أتباعه بالتفكير الصامت . والصينيون يكرمون ذكراه لأنهم يرونه أكبر الحكماء .

ردمى ثابرا

نقله عن الفرنسية الدكتور توفيق شحاته

مسرحيات أندريه چيد

من العبث أن نحاول فى مقال واحد حصر هذه الآفاق البعيدة التى تبسطها
مسرحيات أندريه چيد ، وإنما ننتهز مرور أندريه چيد بالقاهرة ، ونتأثر دار
« الكاتب المصرى » التى نشرت ترجمة عربية للباب الضيق وتوشك أن تنشر تراج
أخرى لثلاثة من كتبه ، فنكشف للقراء عن ناحية من نواحى الانتاج الفنى
لأندريه چيد ، لم تُتعمَّق بعد ، وهى أدبه المسرحى .

ولن نتحدث إلا عن قصص أربع وهى : « شاول » سنة ١٨٩٦ (وكان
عمر چيد وقتئذ ٢٧ سنة) و « فيلوكتيت » سنة ١٨٩٩ و « الملك كوندول »
سنة ١٩٠١ و « أوديپوس » سنة ١٩٣١ ؛ لأن هذه القصص أهم محاولاته التمثيلية .
والنية أن نستخلص من هذه المسرحيات ، لا أقول علماً متسعاً متماسك الأطراف ؛
وإنما أقول بعض ملاحظات نفسية وخلقية . فإن جميع الأبطال الذين سُميت القصص
بأسمائهم يُثيرون استطلاعنا لا من حيث إنهم يخضعون لقوة تقهرهم وتقودهم
إلى حيث لا يريدون فحسب ، بل من حيث إن كل واحد منهم على عكس ذلك
يحمل فى طيات نفسه ضرورته الصارمة ، ومأساته الخاصة التى لا يشاركه فيها
غيره . وقد لاحظ چيد فى محاضرته التى ألقاها سنة ١٩١٩ ، فى الأساطير
اليونانية : « أن كل بطل من هؤلاء الأبطال يحمل سلاحه المقصور عليه » .
ونستطيع أن نضيف إلى ذلك أن كل واحد منهم يحمل سلاحه وموقعته وميدان
هذه الموقعة .

وقد استعار چيد موضوع قصة « شاول » من التوراة (سفر الملوك) وهو
معقد إلى حد ما كأنه صورة مطابقة لما فى نفس هذا الملك من تعقيد وغموض .
فإن الستار يرفع عن تحزب مروع وتحالف شيطانى ، ولا يكاد الناظر يشهد هذا
المنظر حتى يشعر بأن الصراع سيكون عنيفاً ، وأن الثبات لهذه المصاعب العسيرة
يقتضى رجلا فذا ؛ فقد اصطلح الغضب والجنون والإثم والخوف والتسلط
والغرور والفجور على أن تقتحم شخص الملك لتستأثر بنفسه ، والملك معذب قد

عكف على الشراب دون أن يظفر بالسكر ، وقد قتل السحرة جميعاً وهو يريد أن ينفذ إلى المستقبل ، وإلى مستقبله خاصة ، وهو يسأل السماء عن ذلك عبثاً . يحتفظ الملك بسر أو يحاول أن يحتفظ به ، ولكن خاصته فى قصره (والمثل يقول : من مأمنه يؤتى الحذر) وهم الملكة ونابال الكاهن الأعظم وجويل الفراش والحلاق قد ائتمروا أن ينفذوا إلى ضمير الملك ، وقد همس الحلاق فى أذن الملكة متنبئاً أو موحياً باسم داود ، فلم يكد الكاهن يسمع هذا الاسم حتى اهتم له وإذا داود يُدعى إلى القصر . ولا يكاد يوناتان بن الملك وولى عهده فى أكبر الظن يرى الفتى حتى يكلَف به ، وإذا هو يدعوه كما يدعى فى أسرته باسمه المصغر دويد والحرب قائمة بين الفلسطينيين وبنى إسرائيل ، وبطل الفلسطينيين جالوت يتحدى فى كل يوم أولى البأس من بنى إسرائيل . وإذا داود يدعوه إلى المبارزة فيقدم على ذلك وحيداً أعزل .

فاذا كان الفصل الثانى فقد استكشف جويل والحلاق سرًّا وهو أن صموئيل قد رسم داود فى بيت لحم ، وقد ارتفعت الأصوات وصيحات الفرح من كل صوب تهتف باسم الفتى المنتصر ، فيغضب الملك لذلك لكنه لا يكاد يرى داود حتى يسقط غضبه كما يسقط النقاب . فهو يحب الفتى ويريد أن يتخذه لنفسه مغنيا . وقد أقبلت الملكة وهى سعيدة لأنها وصلت داود بالقصر ، وهى تثنى على منقذ بنى إسرائيل وتوصيه بأن يلاحظ الملك ويحمل إليها أنباءه . وقد ملكها عطفها عليه حتى دفعها إلى أن تمس خدّه . والملك مستخف وراء أحد العمد يسمع الحديث ويتبعه (كما يتسمع أوديپوس وكِريون لحديث ايثيوكليس وبولينيس) وإذا هو ثائر قد هجم على الملكة فأرداها . ولا يكاد يخلو إلى نفسه فى أثر ذلك حتى يحيط به الشياطين ويأخذوه من كل وجه .

فإذا كان الفصل الثالث فالحلاق وجويل على ما بينهما من ريبة (فلا أمن فى ظل ملك تدفعه الغيرة إلى قتل زوجه) يحاولان أن يستكشفا سر شاول .

وقد ظهر يوناتان فى شارة الملك التى ينوء بها والتى يفرضها عليه أبوه يهيئه بذلك للنهوض بأعباء الملك يوماً ما ، والفتى يتخفف من المعطف والتاج يلقيهما إلى داود فيحملهما دون أن يجد لهما ثقلا . والملك يلحظ ذلك من مخبئه . فإذا سمع داود يقول لابنه : « تعزَّ عن ضعفك بين ذراعيَّ » وسمع ابنه يدعو الفتى دويد لم يملك نفسه أن يدخل بينهما . وقد هم الملك أن يخفى نفسه على الناس ، ولعله همّ

أن يسترد شيئاً من شبابه ، فأزال لحيته وسعى إلى الساحرة وهى الوحيدة التى أفلتت من الموت ، وهو يطلب إليها أن تستحضر روح صاموئيل فتجيبه إلى ما أراد . فيالها من نبوءة يتبين منها الملك أن العرش صائر إلى داود وأنه وابنه مقتولان . وهو يثور لهذه النبوءة فيقتل الساحرة . ولـكنه حين يعود إلى القصر يرى داود ويسمع لإيقاعه فيستسلم لأحـلامه الحلوة ويدعو الفتى باسم دويد ، فاذا سمع الفتى ذلك ألقى قيثارته فتحطمت وانصرف .

والفصل الرابع أقسى فصول القصة ، ففيه يودّع داود صديقه يوناتان لأنه سينضم إلى الفلسطينيين . ولـكنه على ذلك يضرب له موعداً فى كهف يعينه ليلتقيا فى اليوم الثانى من أيام الموقعة . وقد اعتزل شاول فى الصحراء حيث تسلطت عليه المغريات التى لا تحصى ، وهو يُرَدُّ إلى القصر أشعث مختلط العقل . والشعب يسخر منه ولا يسمع لهذيانه أحـد الإساقيه الذى يحبه ؛ فإنه يرثى له ويبكى لما صار إليه من الوحدة ، والملك يسأله عن الصديقين فلا يعرف منه شيئاً ، ثم هو يشهد اجتماع الصديقين فى الـكهف ويسمع حديثهما .

فإذا كان الفصل الخامس فقد انتهى سقوط شاول إلى غايته . فهو فى سرادقه حريص على العزلة . ولـكن شيطاناً فى صورة طفل يرتعـد من البرد قد أخذ يغريه ، ومع أن ابنه يوناتان يدعوه إلى أن يتبعه ، فان الملك يعرض عن ابنه ويتلقى الصبى وقد أخذت شياطين أخرى تقبل مرتعدة من البرد والملك يقاوم شيئاً ثم يستسلم ، وقد أبى وأصر على الإباء أن يتبع ابنه . وإذا جويل يقتل الملك ثم يرى نفســه وقد قضى داود عليه الموت . وقد قتل يوناتان كذلك . وتنتهى القصة إلى هذه الخاتمة الفاجعة .

وهذه القصة التى توشك الحركة فيها أن تخفى القيمة النفسية لا تعنينا من الناحية التمثيلية وحدها ؛ فالحوادث فيها كما فى غيرها من المسرحيات تصوّر الحياة وتعطى كل شخصية سياها المميزة لها ، ولـكنها ليست غاية فى أنفسها وإنما هى كالخصائص الخلقية وسائل إلى قضايا عامة تستنبط منها . وقد استطعنا بفضل محاضرة ألقاها جيد فى بروكسل فى ٢٥ مارس سنة ١٩٠٤ عن تطور المسرح أن نفهم فيم تجاوزت قصـة شاول التوراة بل تجاوزت إطار المسرحية نفسها وأصبحت مشخصة لبؤس فردى . فقد أراد جيد أن يتخذ من شاول صورة الملك المعذب الضارع الذى لا يستجيب الله له على حين أنه فى أشد الحاجة إلى الله . ومصدر

عذابه الذى يؤرق عليه ليله ، بما يبعث فى نفسه من هموم النهار، ليس حاجته إلى أن يعرف اسم ولى عهده ، وإنما هو شعوره بأن فى قلبه سرًّا يجهله «وهذا السر يضطرب فى قلبه كما يتخبط الطائر بجنبات قفصه» . ولكن بؤس شاول أشد من هذا خطراً ؛ فخاصته الذين يحيطون به من زوجه إلى حلاقه لا يعينونه على ما يسمو إليه من يقين مطلق، وإنما هم يوسعون أمامه هوة الوحدة التى تدعوه إلى نفسها كلما خطا خطوة . وهو يرتاب بامرأته أكثر مما يرتاب بأى شخص آخر . يقول عنها : « إن هذه المرأة تمقتنى وإنى لها لمبغض » . ويقول لها : « حسبك يا سيدتى وقد استمعت لك وقتاً كافياً » . فاذا أقرت اختيار عازف على القيثارة قال : «أما وقد اختارته هى فيجب أن يكون مصدر شر لى» . ولكن لمَ يترنح شاول كما يترنح الشيخ الهرم ؟ فإذا اختبر نفسه فى الفصل الخامس لم يجد فيها قدرة على المقاومة ، وإذا بطش به جويل لم يصادف منه إلا رجلا محطما متهدما . لماذا يقول لداود إن نفسه تذوق عذاباً لا يقاس إليه شىء ؟ إن خلاصة سره هى ما تنبئ به الساحرة ، ولكنها حين تنبئ به لا تجد من يسمع لها من الذين كانوا يحرصون على أن يتعرفوا هذا السر : « أيها الملك الذى أعده الشقاء لاستقبال كل طارق : أغلق بابك » . إنما هلك شاول لأنه فتح بابه . . . لأنه استقبل داود ولأنه استقبل الشياطين ولأنه لم يفهم « أن كل ما كان يعجبه قد كان له عدوًّا » .

لم يكن بد لليونان من أن يحصلوا من فيلوكتيت على قوس هرقل وسهامه لينتصروا على الطرواديين . هذا هو منشأ القصة الثانية وموضوعها . وهذه القصة تتألف من خمسة فصول كالقصة التى سبقتها وإن كان الفصل الخامس لم يتجاوز مشهداً واحداً قد صيغ فى سطرين. ويصفها فرنسوا اليبير بأنها «مأساة الحاذقين» وأحداثها قليلة جدا . فقد لدغت حية قدم فيلوكتيت، وكانت آلامه العنيفة تشيع فى نفوس المحاربين إشفاقاً يلينها كما يقول جيد ؛ ومن أجل ذلك ترك الجيش فيلوكتيت فى جزيرة خالية. وقد أوحى الآلهة أن لابد من سلاح هرقل لإحراز النصر ، فانتدب أوديسيوس ونيوبتوليم بن أخيل ليأخذا هذا السلاح من فيلوكتيت . ولكن نيوبتوليم يرى فى سيرة اليونان مع فيلوكتيت ظلماً فيرفض أن يعين عليه أوديسيوس . غير أن أوديسيوس ماكر وهو يمكر برفيقه الفتى، فيصور له الواجب والوطن تصويراً يضطره إلى الصمت لأنه يقطع حجته .

فإذا انتهيا إلى الجزيرة ولقيا فيلوكتيت أخذ هذا يقص عليهما كيف استكشف وحدته، فقد بدأ ذلك باستكشاف نفسه، ثم اهتدى إلى معنى الشكوى ثم عرف صفة الألفاظ التي لا تستعمل إلا لتؤدي إلى غاية، ثم تبين آخر الأمر ما في الأعمال البريئة من ثراء. بعد عن الناس فاتسع قلبه ونسي نفسه وأصبح مغني الطبيعة. وأوديسيوس يسمع لهذا كله فلا يطمئن إليه لأنه لا ينتظر منه خيراً، فيحاول أن يعطف قلب فيلوكتيت على اليونان ولكن في غير طائل. على أن فيلوكتيت قد كان في بعض الأوقات مستخفياً وراء كثيب من الثلج (وفي كل مسرحية من مسرحيات جيد من يستخفي) فيسمع حوار الرفيقين ويعرف ما يقصدان إليه. وهو مع ذلك يحنو على الفتى ويدفع إليه القوس ليشدها. وإذا الفتى ينحرف عن أوديسيوس ويتهمه بأنه لم يفهم دخيلة فيلوكتيت، بل يتجاوز ذلك فيخون أوديسيوس ويظهر فيلوكتيت على الزجاجة التي أعدت لتخديره حتى يمكن أن يسرق منه السلاح. وقد عرف ذلك فيلوكتيت وقدر نتائجه، وأقدم مع ذلك على شرب ما في الزجاجة فأخذه النوم، حتى إذا أفاق في الفصل الخامس لاحظ أنهما قد أخذا السلاح فلن يعودا إليه وأنه سعيد بهذا العمل الذي أقدم عليه لا ينتظر منه نفعاً.

فأنت ترى أن موضوع القصة ليس مقصوداً لنفسه، وإنما هو وسيلة إلى تجربة إنسانية لاتحد بزمان. ونحن نقرأ في قصة أوديبوس (التي سنتحدث عنها بعد حين) قول الملك لابنيه: «تعلما يا ابني أن كل واحد منا يلقى في شبابه وحشاً يعرض عليه لغزاً يمنعه من أن يمضي الى أمام.»

فنحن نشهد نيوبتوليم الشاب يمر بهذا الطور الفاجع من حياته وهو في مفرق الطرق يدعوه كل طريق إلى نفسه، ويود لو استطاع أن يختار وأن يتبين وجه الحق ويتمنى أن يعينه معين على هذا الاختيار. هو قابل لا فاعل لأنه شاب، وهو يسأل أوديسيوس عن الفضيلة لأنها هي الموضوع الذي يعنيه الآن، كما يسأل بعد حين فيلوكتيت عن معنى الاخلاص، فلا يصادف جواب هذا ولا ذاك منه قلباً جدباً. لقد سافر إلى تلك الجزيرة الغريبة وهو يجهل المهمة التي سافر من أجلها، ولكنه كان يشعر أنه مستعد للتضحية. لقد ترك كل شيء غير آسف ليبحر مع أوديسيوس. لقد كان يذكر بنوع خاص دروس أخيل. وهو يقول لأوديسيوس: «لقد علمني أبي ألا أستخدم الكيد أبداً، كلفني ما شئت إلا

خيانة الصديق » . أما مذهب أوديسيوس وخلاصة تفكيره فيمكن إيجازه فى كلمتين : « إن الكيد أقوى من القوة » .

ولكن نيوبتوليم شديد الظمأ إلى الوضوح، فاذا طلب إلى أوديسيوس فضلا من التفصيل طلب إليه أن يهدئ من جموح عواطفه وأن يذعن لوحى الآلهة وأمر الدولة، وأن يهب نفسه آخر الأمر لليونان. أما الآلهة فإن نيوبتوليم يكبرهم ويؤمن بسلطانهم، وهو يطلب إلى أوديسيوس أن يؤكد له أن ذوس إله الغيب إذا رضى فسيقدر النصر لليونان . ولكن إيثاره للحرية يأبى عليه أن يؤمن بأن الآلهة يملكون إكراهنا على الفضيلة كما يصورها له أوديسيوس ؛ لأنه يرى أن لا قيمة للفضيلة إذا أجبر الناس عليها . ولكن أوديسيوس يفجؤه بهذا الجواب المروع : « ألا ترى يا نيوبتوليم أن المهم قبل كل شئ أن تنفذ إرادة الآلهة وإن لم يرض الناس عن نفاذها ؟ » ومن قبل ذلك سمعه يقول : « إن أوامر الآلهة قاسية لأنها تصدر عن الآلهة » .

أما الإخلاص فى خدمة اليونان فلا غرابة فيه. إنه يعرض نفسه للموت فى غير خوف فى سبيل إنقاذ اليونان . وهل صنع أخيل شيئاً إلا أنه مات فى سبيل الوطن ؟ وهو من أجل ذلك يقول فى آخر القصة : « ويحك يا فيلوكتيت ليس من السهل أن يفلت المرء من طاعة اليونان . » على أن فى تصور أوديسيوس لسلطان الوطن-كما فى تصوره لسلطان الآلهة نوعاً من الإطلاق والسعة لا يطيقه نيوبتوليم . فأوديسيوس يرى أن كل شئ يهون فى سبيل اليونان ، وهو يبين لرفيقه الشاب أن فيلوكتيت إنما ترك وحيداً لأنه لم يعد قادراً على خدمة اليونان. وهو من أجل ذلك لا يفهم موقف نيوبتوليم . فكيف يمكن أن يفكر الإنسان لحظة فى إنقاذ فرد وإن أضاع ذلك أمة كاملة . فلا سبيل إلى الموازنة بين فيلوكتيت واليونان ، وإنما الوطن أقوم من الصداقة كما أن الوطن كان أقوم عند أجاممنون من ابنته ايفيجينى. طاعة عمياء للآلهة وإخلاص كامل للوطن، ألا يمكن أن يوجد فى عالم أقرب إلى الانسانية أوامر أقل من هذه الأوامر صرامة ؟ وفيلوكتيت ماذا يرى فى هذا كله ؟ أليس لديه هو أيضا سر من أسرار الحياة يستطيع أن يهديه إلى الفتى نيوبتوليم ؟ فقد أجاب أوديسيوس حين سأله الفتى بالأجوبة الملقنة والآراء الموروثة والأفكار المقررة . أما فيلوكتيت فقد رأى نفساً ناشئة تسأله وعقلا يقظاً يتفتح له ، فأخذ يعرض الثروة التى اكتسبها من

التجربة فهو يقول له مثلا : « لم أفهم ما يسمى الفضيلة إلا منذ اعتزلت الناس . » ويقول : « أيتها الفضيلة ، أيتها الفضيلة كم آثرتك منذ كنت وحيداً . » قد علمته عزلته التى فرضت عليه أول الأمر ثم اطمأن إليها على مهل أن الإنسان الذى يعيش بين الناس لا يستطيع أن يأتى عملا بريئا خالصا من الغرض . وانتهت به إلى هذه الحكمة البالغة ، وهى أن يكون الإنسان كما هو دون أن يحفل بالمظاهر. والذى يكشفه فيلوكتيت لنيوبتوليم أنه فى وحدته قد كف عن الأمل والأنين والأحلام والتمنى ، وهو يعوده قليلا قليلا أن يغير نظرته إلى الأشياء كما تعود هو بحيث تظهر الحقيقة مغايرة لصورتها المألوفة . بفضل هذه النظرة الجديدة أصبحت شكاته رائعة وتعبيره ممتازاً ؛ لأن أحداً لم يكن حاضر أمره ليسمع له ، فليس شئ مما يصدر عنه بضائع بل كل شئ فى نفسه ومن حوله ثابت مستقر ثم راجع إليه يرمقه بهذه النظرة التى تنفذ إلى أعماق الأبد . بون بعيد بين فيلوكتيت وأوديسيوس ؛ ولذلك يقول نيوبتوليم : « إنى أشعر بأن الفضيلة ليست واحدة بالقياس إليك وإلى أوديسيوس . » وقد سمى جيد قصته « رسالة المذاهب الثلاثة فى الأخلاق » : الآلهة والوطن ، أما المذهب الثالث فلم يوجد بعد ، وقد مارسه فيلوكتيت فى جزيرته ، فهو يعلم أن هناك فضيلة عليا لا يرقى إليها الانسان إلا قليلا قليلا . وهو يقول لنيوبتوليم : « إنما الفضيلة هى أن يتكلف الانسان ما فوق طاقته ». وهو يفضى بسر المذهب الخلقى الثالث إلى نيوبتوليم ولكن الفتى لا يفطن له . وذلك حين يقول : «إن هناك شيئا فوق الآلهة وهو شخصية الانسان» .

أما قصة الملك كوندول فهى الوحيدة التى مهد لها جيد بمقدمة يستأنف فيها بعض آرائه فى التمثيل ، ويعلن أن من الحق على الكاتب التمثيلى أن يتقاضى أبطاله حقائق لا تستطيع الجماعة أن تقبلها فى حياتها اليومية . فاذا فرضت الأخلاق والعادات والقوانين نقابها على الانسانية (كما يرى ذلك فى شخص كريون المحافظ فى قصة أوديبوس) وجب على صاحب الفن أن يصطنع من الذكاء والشجاعة ما يمكنه من أن يحرر أشخاصه من هذا النقاب .

دعا الملك كوندول حاشيته ، وهى مكونة من فيليب وسيباس وأركيلايوس وفرناس وسيفاكس إلى وليمة فى القصر . ولأول مرة تشهد الملكة نسيا هذه الوليمة وتشهدها حاسرة ؛ فالملك يريد أن يعلم الناس جميعا أنها رائعة الجمال وأنه

سعيد . وقدم السمك إلى الطاعمين ، وإذا أركيلايوس يجد فيما قدم إليه منه خاتما عليه هذا النقش الغريب « إنى أخفى السعادة » وقد أحضر چيچيس الصياد البائس الذى حمل السمك إلى القصر والذى امتحن من ليلته بحريق ذهب بكوخه وشباكه . وقد كان هذا الصياد البائس يعتقد أنه لايملك إلا امرأته تريدو وبؤسه ، ولكن سيباس يلمح بأنه مخطىء حتى فى هذا ؛ لأنه داعب تريدو حين كانت تساعد على تهيئة الوليمة . ولا يكاد چيچيس يسمع بذلك حتى يقتل امرأته . والملك يعطف عليه ويؤويه فى قصره . وقد أزمع أن يبدله من بؤسه نعيما وأن يتخذه لنفسه نديماً .

ونحن نراه فى الفصل الثانى قد خلا إلى چيچيس ويتحدث إليه فى تبسط وقد تغيرت حاله ، فهو يرفل فى ثوب فخم وقد أدار حول عنقه عقداً ملكيا ليكبره أهل القصر فلا يردّوا له أمراً . ولكن ثقة الملك بچيچيس قد بلغت أقصاها ، فهو يلحّ عليه فى أن يرى الملكة ، وهو يتحدث إليه بأمر هذا الخاتم الذى يخفى حامله عن الأنظار وهو حاضر يرى كل شىء . وهو يكره چيچيس على أن يحمله . وقد أقبلت نيسيا واثقة بأنها بمأمن من الرقباء فهى تفيض حناناً على الملك ، وهى تتجرد من ثيابها ، وقد ثار فى نفس الملك صراع عنيف فهو يرد نفسه إلى الحزم ويأخذها بما أزمع من هذه المؤامرة . « من ذا الذى يستطيع أن يقدم على هذا آخر الدهر إن لم تقدم عليه أنت ، تشجع إذن . » وهو ينسل فى رفق ويأمر چيچيس بالبقاء .

فإذا كان الفصل الثالث فإن الحاشية التى رأيناها تشهد الوليمة تختصم حول لغز الخاتم الذى وجد فى السمكة : فالملك فيما يظهر يطلب هذا الخاتم وهو قلق ؛ فقد اعترفت له نيسيا بأنها فى الليلة الماضية قد ذاقت أعذب الحب الذى تطمع فيه امرأة . وقد سمع چيچيس هذا الاعتراف فينتزع الخاتم وينبىء الملكة بأنه صاحب تلك الليلة الرائعة .

والملك الذى يمتاز بكرم لايعدله عند جيد إلا استعداد شاول لتلقى كل إنسان يتحدث إلى أصحابه بأنه منذ الآن حريص على أن يحتفظ لنفسه بامرأته وثروته ، وفى أثناء ذلك تصدر الملكة أمرها إلى چيچيس بأن يقتل زوجها . فيتردد ثم يقدم ، ثم تتخذه نيسيا لها زوجاً ، وينتقل الملك إلى الصياد البائس القديم .

موضوع خطير كما ترى يشبه قصص ألف ليلة وليلة . يسيطر عليه القضاء كما هى الحال فى مسرحيات جيد كلها . ورمز القضاء هنا هو خاتم چيچيس ، كما

أن رمزه فى قصة شاول هو الاستطلاع ، ولكن قيمة الموضوع هنا شيء آخر .

فأمام هذا المنظر الذى يمثل هذه الحاشية المستهترة وقد عنى كل واحد منها بمكانه على المائدة وأخذوا يتضاحكون من حياء الملكة ويأسفون لغيبة تريدو ويسكرون حتى يتساقطوا تحت المائدة ، أمام هذا المنظر ينفرد شخصا كوندول وچيچيس ، وقد أخذهما چيد من أقصى طرفى السلسلة الاجتماعية : أحدهما بائس يرى أن من الخير أن يجد الإنسان قليلا وأن يحتفظ بهذا القليل لنفسه ، رجل قنوع يسأله الملك : « أتشرب الخمر أحيانا ؟ » فيجيب : « لا أكاد أذوقها » ، ولكنه فوق كل شيء رجل أبى يدعو نفسه قائلا : « هلم ياچيچيس الأبى » فاذا دعاه الخدم إلى أن يشاركهم فى شرابهم لأن الملك قد أمر أن يسكر الخدم جميعاً أجاب بأنه ليس خادماً للملك . ونحن نعلم مع ذلك أنه يحب الملك ويألم حين يراه محاطاً بهؤلاء الأغرار المتملقين . وهذا الإباء الذى يمنعه من أن يستغل كرم الملك يدفعه إلى قتل امرأته ، وهو مصدر هذه الحرية التى تشاهد فى مظهره وتفكيره والتى تتيح له أن يقول للملك : « أيها الملك لست خادماً لك » والملك يقبل منه هذه اللهجة فهو عظيم الثراء ولكنه عظيم الحظ من الفلسفة . وإذا كان چيچيس حريصاً على أن يحتفظ بشيء لنفسه فان الملك حريص على ألا يحتفظ بشيء ، فهو الكرم نفسه وهو يضيف فى قصره كل من يمر به لا عن التماس للمنفعة ولا عن حماقة ، بل كما يقول چيد عن كرم متردد غير مستقر . وليس فى حبائه شيء من التعالى المهين فان ميوله كلها رفيعة ، وهو من أجل ذلك يؤثر سيباس بالتين الأبيض ، ويثنى على فرناس لذكائه ويهنىء سيفاكس بشعره ويداعب أركيلايوس لأنه يسرف فى حب اللاعبات . وهو حين يزدرى المتملقين إنما يصدر فى ذلك عن تقديره للمودة . وشيء واحد بالضبط هو الذى يحرمه السعادة ، وهو أنه لا صديق له . ولكن كوندول كشاول يحمل فى أعماق نفسه مصدر هزيمته . فهذه المبادىء التى تدبّر أمره تعطى الحياة معنى لا تلبث أن تفقده . وهو يقول لحاشيته إنه يعتقد « أن البهجة تضاعف حين يقتسمها المرء مع أصحابه » وان البهجة التى يستأثر بها الفرد توشك أن تكون مسروقة . وهو على الجملة لا يريد أن يسير سيرة البخيل المحتكر فيستأثر وحده بالنور » . والخاتم هو الذى يثير القلق فى نفسه . يثور حين يشرب الناس نخب كوندول أسعد أهل الأرض ، يثور ثم يحاول أن يفسر ثورته ، « فما السعادة ؟ أيمكن أن يرى الانسان

سعادته ؟ أهى فى أن يملك الإنسان شيئاً ؟ » فقد رأينا فيلوكتيت سعيداً حين لاحظ أنه قد تجرّد من كل شىء ، أما كوندول فلا يستطيع أن يعرف هذه التجربة لأنه عظيم الثراء ولكن الملك بالقياس إليه ليس احتيازاً وإنما هو تجربة . فسيظل قلقاً ما دام چيچيس لا يحيط بكل ثروته . فقد كان شديد الالم لأنه كان يعرف وحده جمال الملكة ، وقد بلا نفسه بتجربة أولى حين أظهر الملكة للحاشية ، وهو منطقى مع نفسه ، فلا بدّ من أن يظهرها لچيچيس . وقد رأينا عاقبة ذلك ؛ فقد مات كوندول لأنه أراد أن يعطى كل شىء فكان أشبه بهذا الطائر الذى يتحدث عنه فيلوكتيت والذى « مات لأنه همّ أن يطير » .

هذا الصراع الذى شهدناه بين صورتين من السعادة يعرضه علينا جيد فى صورة أشمل حين يعرض علينا قصه أوديپوس. وأنا أمر مسرعاً بخلاصتها. فالشعب ممتحن بالطاعون، وليس من شك فى أن هذا عقاب من الآلهة فلا بد من أن يهلك مَنْ جرّ هذا الشر على الأبرياء، يجب أن يثأر للايوس (ملك ثيبة الذى قتل) حتى يحوّل الإله هذا الوباء عن المدينة . وأوديپوس يريد أن يلتمس القاتل ولكن الكاهن الأعظم تريسياس يلحّ فى لوم أوديپوس على تهاونه فى الدين . وفى نفس الملك شىء من قلق . ومع أنه كان يكره الحديث عن الماضى فقد أخذ يشرف على البحث بنفسه ، وهو يلحّ فى المسألة على كريون ويوكاستيه يريد أن يعرف كل شىء وأن يصل إلى الأطمئنان ولكن إلى الأطمئنان المشرق الصريح لامساومة فيه . لماذا تؤجل الحقيقة ؟ إن الحقيقة لا تحب الأنتظار . وقد رأى كريون يتنصل ويوكاستيه تراوغ فيستبين له أنه هو الذى قتل لايوس . هنالك تقتل يوكاستيه نفسها ، ويفقأ أوديپوس عينيه ، وقد أراد كريون وأرادت معه الجوقة أن ينفى أوديپوس نفسه عن المدينة ، وهو يهمّ أن ينصرف ولكن تريسياس يعلن أن الآلهة قد قضوا بالبركة للأرض التى يستقر فيها جثمانه إذا مات . فما أسرع ما يتحول كريون وتتحول معه الجوقة وإذا هم يلحون على أوديپوس أن يبقى بينهم ولكن فى غير طائل .

هذه القصة تعرض علينا رجلا تضطهده الآلهة ويدفعه القضاء إلى مصيره ولكنه مع ذلك حريص أشد الحرص على أن يبقى كما هو، فهو يضحى بنور عينيه فى سبيل نور آخر أعظم منه بهاء وأشد إشراقاً وهو نور الحياة . كان يحمل على

رغمه نقاباً يخفى عليه الحق ، ولكنه لم يزل يجدّ ويلح في الجد حتى يضعه عن
نفسه لأنه يبغض الكذب ولا يعدل بالحق البين شيئاً. له شخصية عنيفة ،فهو من
أجل ذلك سعيد لأنه ليس مديناً لأحد بسعادته، وهو لايتردد في إعلان ذلك بل
هو لايتردد في أن يعلن ألواناً من الشعور لا تباح للناس إلا في كثير من الاحتياط
والاستخفاء. كان له رأى خطير في كرامة الإنسان، وكان يرى أن شيئاً لا ينبغى أن
يقف الانسان الطامح عن النظر إلى بعيد، وهو من أجل ذلك لا يتردد في أن يشيد
بمعنى الرجولة، وهو لا يعرف غير هذا جواباً لكل المسائل التي تثار له من كل
وجه . هذا الإيمان بشخصية الفرد الذى نلحظه عند فيلوكتيت نجد رجع صداه
عند أوديبوس، وهو يقول « إن هذا الرجل الوحيد ، بالقياس إلى كل منا ، هي
شخصيته هو ». ومن هنا هذه الحرية الفاجعة التي تثبت للخطوب حين يخيل أن
كل شيء من حولها ينهار ، وأن العالم لا يظهر إلا اعداء ، وأن السعادة ليست إلا
سخرية ، وهو يقول : « إنما أضحى بنفسى عن رضا » ويقول مشيراً إلى أبنائه :
« إنما أترك لهم عن رضا مملكة لم يخضعها الفتح » . وإذا كانت الآلهة قد أرادت
أن يكون النور خاطفاً للأبصار فقد أراد أوديبوس حرًّا أن يخطف بصره
هذا النور .

فما أشد الشحوب الذى تمتاز به حكمة يوكاستيه وكريون أمام هذا الإصرار
الذى نجده عند أوديبوس ! إنهما يقودان إلى عالم من التردد والتوهم والتماس
المنافع . وكريون يرى أن الخطر أن يلفت الشعب إلى مقتل لايوس، ويوكاستيه
لا تريد أن يغض من قدر الكاهن أمام الشباب . ولماذا ؟ لأن من المقرر أن
تجهل الشعوب مشكلات الملوك، ولأن الناس جميعاً يعرفون أن الكاهن الأعظم
يجب أن يحترم. فهما يكبران كل مايحتقره أوديبوس، وهما على أقل تقدير يعترفان
بذلك . يقول كريون لأوديبوس : « إنك تعلم حرصى على الشعور بواجبات
الأسرة » . ويردد الملك : « لقد تجدد كل شيء ». ويعترف كريون بأن الماضى
يقيده فلا يستطيع ألا يكون محافظاً ، وهو على إذعانه وموافقته للأصول المقررة
قادر على أن يخرج من المآزق .

وليس أوديبوس حريصاً على أن يظل كما هو بالقياس إلى يوكاستيه وكريون
وحدهما، فهناك تريسياس وهو أعظم خطراً من سائر الناس بالقياس إلى الذين يقدرون
التقاليد والعادات والقوانين المرسومة ، هو ينبئ عن الإله الحق الذى يعرف

سرائر النفوس ، وهو فى الوقت نفسه يدبر حرباً خفية على اوديپوس ، وهو لذلك يذكرنا بنابال فى قصة شاول ، ولكن نابال كان يريد أن يستكشف الملك لينقذه من القلق على حين يريد تريسياس أن يقلق الملك ليستكشف السر . خطته ألا يطمئن الملك على سعادته الفاجرة وأن يصدع ابتهاجه ويزعزع ثقته .

من هذا الاختلاف بين هذه الأفكار ، وبين هذه العقليات ، وبين هذه العقائد ، مضافاً إليها الضرورة المحتومة ، تنشأ مأساة أوديپوس التى يتقبلها چيد فى فنه التمثيلى محاطة بهالة من النور مقصورة عليه .

وقد كتب چيد سنة ١٩١٩ : «إن الأسطورة اليونانية أشبه بجرة فيليمون التى لا تغيض مهما يشرب منها الظامئ حين ينادم چوبيتير » . ولذلك استطاع أن يصنع سنة ١٩٣١ أوديپوس جديداً خلق من ظمئه . ويقول چيد : « إن الأثر الفنى يمتاز بهذه المعجزة ، وهى أنه يدل دائماً على أكثر مما أراد مبدعه ، وهو يتيح دائماً تفسيراً جديداً . » فلكل قارئ إذن أن يتلقى فى قصص چيد ما يمنحها القوة ، وأن يفهم ما فيها من الدروس الانسانية فهماً يلائم طاقته ومزاجه الخاص .

ولنقل من الناحية الأدبية الخالصة . إن المحاولات التى يبذلها كثير من أصحاب القصص ليجربوا أنفسهم فى فن غير الفن الذى ألفوه ، فيخرجوا من القصص إلى المسرح ، هذه المحاولات ليست فى حقيقة الأمر الا خلاصة الفن عند چيد . أريد أن التمثيل هو الأساس لأدب چيد . فنحن حين نقرأ كتاباً من كتب پروست نتخيل حديثاً بين الكاتب وبين نفسه ، تمضى فيه الجمل متتابعة على خط واحد ، فهو ليس فى حاجة إلى من يرد عليه رجع الحديث لأنه يتبع خاطره . أما فن چيد فشئ آخر : يقتضى ثنائية ، ويتغذى من كل المناقضات ، ويقتضى عالماً لا « تتجاوب فيه الأصوات والعطور » وحدها بل تتجاوب فيه ألوان الشعور ، وضروب الحس ، وفنون الأفكار . فآثار چيد كلها حوار وهى تمثيلية بالمعنى اللغوى لهذه الكلمة ؛ لأنها تنشئ حيزاً لكل الممكنات ، وكل شئ ممكن بالقياس إلى چيد فى حدود الطبيعة .

فليس غريباً أن يكون التمثيل قد قدم إلى چيد صيغة بسيكولوچية عظيمة الخطر موفورة الغناء .

ريمون فرنسيس

رجع الصدى

[كاتبة هذه القصة — وقد أرسلتها خاصة لهذه المجلة ، هى مارى مكارثى الاديبة الأمريكية المعروفة التى تقيم فى بلدة ولفليت . وقد اشتهرت بقصتها الطويلة المسماة « أصدقاءها الذين تعاشرهم » ونشرت لها قصص كثيرة فى أمهات المجلات الأمريكية الأدبية مثل مجلة نيسن وبارتيزان وسنشرى .]

ظنها كل من رآها لأول وهلة فى ردهة المسرح إحدى راعيات الحفلة ، وبما كانت إحدى الجدات اللاتى يرعين هـذه الحفلات ، وإن كانت هيئتها الزرية بقبعتها الملتصقة غير المتناسقة وأقراطها القديمة الطراز ، وقد وقفت بلا سترة ، قلقةً مرتبكةً متصنعة ، مما ينبئ عن حالتها . فهى الداعية إلى الحفلة ، أو بالأحرى إحدى أولئك النفعيات المستغلات اللائى يتسترن فى ثوب المنظمات ، واللائى تقترن أسماؤهن دائماً بأوساط الخير وحفلات الأندية السنوية والمحاضرات وحفلات الشاى العلمية ، وكل الاجتماعات التى لا ترمى لمجرد التسلية .

كان وجودها خروجا على المألوف فى المسرح فى هذا الصباح المطير من يوم الاثنين . ففى نيويورك فى جوار ميدان التيمس تـكون العلاقة بين الادارة والعملاء فى المسرح ذات صبغة مهنية صرفة يسلم بها الجميع .

ولذلك أثار تدخلها فى الأمور على الباب دهشة كل أب وطفل ، ودعا إلى تحويل انتباههم قليلا .

كانت تسأل كل طفل داخل : « ألم نرك من قبل ؟ » فـكان الوجه الذى يستدير إليها فى كل مرة ترتسم عليه علائم دهشة وسرور . منـذ لحظة كان الطفل مجرد متفرج آت إلى مسرح سيعج بالمتفرجين . ولـكن هذا السؤال السحرى كان يرد كل طفل إلى ذاتيته الآدمية فتحمر وجنتاه ، مالم يكن الطفل

جامداً تماما . وإذ واصلت السيدة أسئلتها سائلة كل طفل عن اسمه ، فان الحديث كان يتطرق إلى الأب الذى يبتسم فى دعة ويشاطر لبرهة قصيرة هذه السيدة المجهولة الملهمة القبيحة الشكل ، الشعور بالمعجزة المباركة فى إبراز شخصية طفله .

وكان الأطفال يجيبون أحياناً على أسئلتها ، ويرددون أسماءهم فى صوت خافت وفى احترام ، ولـكن فى أغلب الأحايين كان الخجل والسرور يعقدان ألسنتهم فيتولى الأب الإجابة عن طفله . وحينئذ تميل السيدة على الأب تغمزه هامسة : « هذا من أجل صانى » . وهو إيضاح وإن كان لا يبين عن شئ ، فمن يدرى ؟ من يكون هذا الصانى مثلا ، إلا أنه يدله على عدم فطنته ، فقد كان حريا به أن يستشف القصد النفسى لهذا السؤال . وعلى كل فقد كان الأب يدلف واجماً مخيباً إلى داخل الصالة الشبيهة بالمعتمة وعلى وجهه بقايا الابتسامة العذبة المحيرة تترجح على ثنايا فمه .

ولا تلبث رؤية أكثر الأماكن خالية — إذ لم يكن هناك جلوس أكثر من عشرين شخصاً — أن تبعث شعوراً من الرثاء للمرأة الواقفة فى الخارج . لابد أن حالة هذه الفرقة كانت ألمية . فلم يكن المطر ولا يوم الاثنين ولا حتى أجر الدخول الباهظ ليفسر أو يبرر قلة عدد الحضور . كان جو الإخفاق يخيم على الحفل كله وتمتد عدواه إلى الحضور فيسرى إلى نفوسهم عبق السقم المالى الجاثم . كان ذلك حتى بدا أصح الأولاد والآباء وأغناهم ، وقد جلسوا جماعات متفرقة فى الضوء المعتم ، وقد انتشرت حولهم رائحة كرائحة صوف مبلل أو بقايا سجائر . . . بدوا كحطام سفينة جمع معاً .

كان البؤس صارخا مجسما . وأحس بعض الآباء الذين لهم حظ من الحساسية بشعور دافع لأن ينسحبوا وأبناءهم من منزل الموت هذا . ولم يقف أمامهم أولا سوى صعوبة التنفيذ « كيف يبررون خروجهم ! » ثم هذه الفروسية التى منحناها كعادة نحو الفقراء والتعساء . والفأر إذا لم يغادر السفينة الغارقة فان ملجأه الوحيد هو أن يربط مصيره بمصيرها . ومادام الآباء قد تورطوا فى هذا المشروع المتداعى فقد أحسوا على الفور بأعراض تضامن ، وأخذوا يقنعون أنفسهم بأن الأشياء ليست حقا على هذا القدر من السوء . (وعلى كل فاليوم مطير ، وهو يوم الاثنين) . وأصبح قدوم أحد جديد يبعث فى نفوسهم لوناً من الإحساس بالفوز الشخصى . بل أخذوا يستديرون فى مقاعدهم ويقابلونهم بنظرات تشجيع ، تماما

كما يفعل الركاب فى سيارة متعثرة حين يميلون إلى الأمام كأنما هم يشجعونها على صعود طريق طويل .

وقطع هذه التمرينات فى السحر التى كانوا يمارسونها جميعاً ، وتدل عليها عيونهم المغمضة وأيديهم المنقبضة — قطعها ظهور امرأة أخرى أصغر سناً ، ولكن أقوى شخصية ، وهى أقرب ما تكون إلى مدرسات المدارس العصرية إذا لم تكن منهن . فهى معتادة على إصدار الأوامر فى قالب الرجاء . وأخذت تربت على أكتاف بعض الآباء الدهشين قائلة : « هل تتكرمون بالجلوس على الكراسى الجانبية ؟ »

وامتثل بعض الآباء والأمهات لما طلبت على الفور ، وفعلوه فى شىء من الاعتذار ، وأبطأ آخرون وأبدوا شيئاً من الضيق لأن ينزلوا عن حق لهم . على حين تجاهل البعض من ذوى النعمة واليسار الطلب وأولوها ظهورهم التى لم تبد حراكا لتقول لها : « إن هذا شىء لا ينطبق على » .

ولما وضح لها أن أمرها لن يطاع إلا إذا أردفته بمسوغ له ، وأن لهجة الأمر التى خاطبتهم بها قد أثارت تحديهم ، هم الذين يشفقون عليها ولكن لن يذعنوا لأوامرها ، مشت خلال صف طويل خال من المقاعد ثم أمسكت بظهر أحدها فى أسلوب الحاضر المتبسط ، وقالت فى هدوء مفرط يوحى بأنه هدوء متكلف لايستدعيه الموقف ، ولكنه نزول منها لتنوير الأغبياء : « إننا نريد أن يتجمع الأطفال فى وسط القاعة . إن روايات الدمى هذه مقصود بها الأطفال ونحن نريد أن نعرف أثرها فيهم متجمعين ومتحررين من تأثير الكبار . نريد رد فعل صادق » .

وقد كان فى هذا ما مس كلاً منهم حتى أبلدهم حسًّا ، فقد اشعر كل كبير فى القاعة أن وجوده غير مرغوب فيه ، وأنه عبء على الحضور ، بل إنه من المخجل حقًّا أن يكون كبيراً .

وعلت ضوضاء الانتقال ونقل القبعات والستر والحقائب ، وسقطت من الأمهات لفائف الحلوى على الأرض ، وبكت البنات الصغار ، وأخيرا تم التعديل وفصلت الأغنام عن الخراف .

وأخذ الحضور فى نوع من الخبث الاجماعى ، فكلما وفد قادم جديد — لاسيما إذا كان أماً أو جدة — تركوها تستريح إلى مقعد فى الوسط قبل أن ينبهوها إلى

وجوب الانتقال ، وساد الجميع هذا الشعور ، وعاودهم ثانية شكهم المطبق فى القائمين بالحفلة . ومجّت نفوسهم هـذا التحكم فى توزيع المقاعد ، فكانوا يغتبطون لهذا الارتباك الذى يقع فيه كل قادم جديد ، وقد تركوا أمر تنبيهه إلى القائمين بالنظام ، وظلوا لا يحركون هم ساكناً كأنما سادهم نوع من حب الشغب السلبى مما يجعلهم يشغفون بمجرد رؤية شغب هم بعيدون عنه . ولقد كان بين هؤلاء الحاضرين غير المكترثين لشئ هذه الأقلية الحتمية فى الحفلات من الأنصار المتحمسين الذين يغتبطون للانصياع فوراً وفى زهو لأى أمر . هؤلاء الذين يركعون لكل إشارة أو منع أو تحذير ، والذين يقيمون أنفسهم متطوعين نيابة عن كل شخص ذى صفة رسمية يكون قريباً منهم . هؤلاء الأنصار أخذوا يهمزون ويربتون على الأكتاف ويهمسون فى الآذان ويشيرون ويبعثون برسائلهم همساً عبر الصفوف الطويلة من الأطفال للبعيدين . وذلك حتى أشعروا كل كبير جلس فى غير محله بخروجه عن المألوف لينسحب مرتبكا إلى المقاعد الجانبية .

وما حان وقت رفع الستار حتى كان الكبار جميعاً يحفون بثلاثة من جوانب القاعة التى توسطها جمع من الأطفال لا حاجز أمامهم لتلقى أثر المسرح .

وبمجرد هذا اتضح علة ما طلبته السيدة الأولى فقد ارتفعت الستائر رويدا عن دمية صغيرة جداً ارتدت ملابس صبى وأخذت تنحنى وترقص إفراطاً فى الترحيب بالأطفال .

كان هذا صانى وبدأ قائلا : « هالو ! أصدقائى وصديقاتى .. لقد شرفتم مسرحنا » . قالها فى صوت مبحوح كعادة الدمى .

ورد طفل جرىء لابد أنه من أبناء أحد الأنصار قائلا : « هالو ! صانى » . هذا طفل ممن كانوا هناك من قبل ! وقد فعل ما كان ينتظر منه .

وردت الدمية صائحة « هالو ! جون . كيف حالك اليوم ؟ » ثم أخذت تنتقل من طفل لآخر مخاطبة كلاً منهم باسمه الخاص .

ونظر أغلب الأطفال إلى بعضهم فى دهشه واستغراب لا يدرون كيف تعرفت الدمية إلى أسمائهم ، ولم يربطوا المقدمات بالأسباب ؛ فقد نسوا بلاشك السؤال الذى سئلوه وأجابوا عنه فى ردهة المسرح .

وما زال عنهم تهيبهم حتى أخذت إجاباتهم للدمية تعلو وتطرد ، واندمجوا

فى الحفل وأخذ كل منهم يتسابق فى التعرف إليها، ثم سرعان ما ارتفعت الكلفة بينهم وبينها الأمر الذى شجعه صانى مقابلا كل نكته جريئة من طفل بضحكات عالية مصطنعة، وما لبث صانى أن احتوى الأطفال جميعا فى جو من الانطلاق لم يستثن منه إلا أصغرهم سناً أو أشدهم خجلا .

وسرى بين الآباء شعور بالارتياح وتخلصوا مرتاحين من شكوكهم الأولى: يكفى أن الأطفال قد اندمجوا فى روح الحفل . وهـذا التآلف بين الممثل وجمهوره الذى فقدناه منذ الروايات الدينية فى العصور الوسطى والذى أسف لفقده كل أساتذة الدراما قد استعيد . ماذا يهمّ لو كانت النكات تافهة غير مستملحة ؟ وماذا يهمّ إذا كان التمثيل قائما على استغلال سذاجة الأطفال وأن الدمية التى تدعى أنها تعرفهم لاتعرف سوى مجرد أسمائهم ؟

وفيما يتعلق بنظام الجلوس ربما كانت الأمور الطبيعية فى العالم الحديث لابد من أن تمتد إليها يد التنظيم تماما كما فى الزراعة أو فى الحياة الجنسية . إن التأثير الصادق لم يأت من تلقاء نفسه، بل كان نتاج سلسلة من المناورات .

وأسدلت الستائر على صانى بين صياح الأطفال : « وداعا » .

وقبـل أن يرتفع الستار عن الرواية الرئيسية وهى رواية « الصغيرة ذات القلنسوة الحمراء» بقليل، إذا بجماعة تحضر متأخرة وتظهر عند مدخل القاعة، كانوا فى مجموعهم نحو ثمانية أو عشرة أطفال تصحبهم معلّمة شابة بدا عليها الخمول . واختار الأطفال مقاعدهم فى أول صف بالذات وجلسوا فى بطء ثم أخذوا يتبادلون مقاعدهم مع بعضهم البعض . ولا بد أن المعلّمة كانت إما غير مسموعة الكلمة بينهم أو من المتحررات كلية من النظام؛ إذ لم تبذل أى مجهود حقيقى لتمارس سلطتها فى ردهم . وتحركت الستائر فوق المسرح شبه قلقة، ثم ظهرت يد إنسان ووجه ضخم أضخم مما تعودت الدمى أن تكون، ثم اختفيا بسرعة . وكان ظهورها هذا مخيفاً للجميع ماعدا أولئك الذين ظهر ليخيفهم وهم التلاميذ الذين فى الصف الأول . فقد استمروا فى تهريجهم لم يؤثر فيهم حجم الوجه، فهم لا يعرفون الفروق بين الأحجام . وقد ظهر الوجه واختفى سريعاً حتى أن أحدا لم يستطع أن يتبين ما إذا كان وجه رجل أو امرأة وإن كان قد ترك فى نفس الجمهور شعورا بأن شخصاً ما غاضب، كأنه إله غير راض .

تساءل الآباء متعجبين :

— أيمكن أن يكون هذا صانى ؟

أخيرا هدأت الجماعة التى تحتل الصف الأول فى مقاعدها وأزيحت الستائر عن « الصغيرة ذات القلنسوة الحمراء » بسلتها ، وفتح صندوق صغير فى يسار المسرح وخرج منه صانى مجهزا بخطبة تحث الأطفال على مشاهدة « الصغيرة ذات القلنسوة الحمراء » والنظر إليها كأخت لهم . ثم أغلق الصندوق عليه وبدأ التمثيل وامتثل الأولاد لنصيحة صانى .

كانت الصغيرة تخرج من منزلها وتتبعها من الأطفال التحذيرات والتنبؤات بما سوف يصيبها ! وأخذ الأطفال يصيحون : « احذرى ! لا تتبعى أوامر أمك . كلى أنت ما فى السلة ! » وبين كل هذه التحذيرات لم يكن هناك أكثر صياحاً ممن كانوا فى الصف الأول . لقد كان هؤلاء الأطفال خير جمهور لصانى وفرقته . فكان الأثر الصادق متجسما لحما ودما . وبينما كان بعض الأطفال يتهامسون بتعليقاتهم أو يرددون كالببغاء صيحات الأطفال الأكثر جراة . كان الذين فى الصف الأول أغزر ابتكاراً وتنوعا حتى لقد بدا متعذراً أن تستمر الرواية بغير أن يلبى الممثلون ما يطلبه الصغار .

صار من الواجب أن تخرج الصغيرة ذات القلنسوة الحمراء عما حفظته من عبارات لتخترع عبارات أخرى على طريقة الروايات الهزلية الايطالية التى تعرف باسم كوميديا الفن . ولكن الدمى استمرت فى التمثيل محافظة على نص القصة متجاهلة المقاطعات والاقتراحات ، ولذا انقلب الموقف وأصبح الممثلون هم الذين لا يتجاوبون مع الجمهور لا العكس .

وما قارب التمثيل منتصف المنظر الثانى حينما يظهر الذئب حتى كانت القاعة كلها تموج بالانفعال . بعض الأطفال يناصر الذئب ويحثونه على تهيئة غذاء طيب لنفسه ، والأخرون المحافظون لا يزالون على اخلاصهم للفتاة . وبذا انتقل النضال القائم على المسرح إلى ظهور المشاهدين .

وفى نهاية الفصل الثانى خرج صانى مرة أخرى وعادلت جرأة الأطفال هذه المرة حركاته التى كان يبغى بها تحريك شعورهم ، فكانت الأسئلة الجريئه منهم تقابل بإجابات ماكرة وقد بلغ صانى اقصى مبلغ من نفسه . فمن وقت لآخر كانت نكتة من الجمهور تقضى على توازنه فيرتمى على المسرح وهو يلهث ويخرج من فيه آخر

نبرات صوته المتعب وهو يقهقه : « ها ! ها ! ها ! » وعمت الحرية والمساواة بين الحضور إلى حد أن صعود طفل من الصف الأول إلى خشبة المسرح ليتحادث رأسا مع صانى مَرَّ كأمر عادى راقبه الحضور بغير شعور بخروجه على المألوف، ولكن الدمية تراجعت إلى الصندوق كلما اقترب منها الولد وأخذ جسمها المصنوع من القماش يهتز ويتعثر فى ضيق واضطراب وخوف . ولما مد الولد يده ليلمس الدمية ظهرت بها حيوية لا شك فيها ، وكأنما سرت فيها رعشة فتدافعت إلى الخلف فى اتجاه الستائر ولفت نفسها حتى لا تترك ملمسا تمتد إليها منه يد المعتدى . ولكن يده تقدمت وبدا أن شيئاً لن يصده عن كشف حقيقة الدمية فصرخت صرخة انسان حقيقى لا دمية وصاحت امرأة من خلف الستائر فى صوت منزعج « إن صانى لا يحبّ هذا . » وكأنما نفذت صيحتها العصبية إلى نفس الولد فعدل عن تفكيره ورجع أدراجه ولكنه اصطدم بالسلم فوقع فى مكان الموسيقا .

واندفع أبواه نحوه وانضمت إليهما المعلّمة ، وقد أطلت منزعجة من الحاجز ، ولكن الطفل أخرج سليما لم يصب بأذى ، وردوه إلى مكانه حيث أجلسوه ثانية .

فى خلال هذه الضجة كان صانى قد اختفى ، ولحسن الحظ لم يحس باختفائه الأطفال ، فقد شغلوا ساعتئذ بمعرفة الطريقة التى وقع بها زميلهم أكثر من اهتمامهم بالوقوع نفسه ، وأخذوا يسألون أمهاتهم : « ما هو مكان الموسيقا ؟ » وقام البعض منهم قاصدا إليه ليتحقق بنفسه بين صيحات الأمهات : « دعوا هذا الآن ! دعوا هذا الآن ! إن التمثيل سيبدأ حالا ثانية . »

ولكن هل التمثيل سيبدأ حقيقة ؟ لقد عجب الآباء وهم يتبادلون النظرات مع بنيهم ألم يروا بأعينهم الآن إحدى هذه السقطات التى لا قومة منها ولا إصلاح لها تلك التى لا يعالجها الوقت ، أو تداخل أصدقاء أو إقناع أو رجاء .

وكضيوف جلسوا إلى مائدة قامت عنها المضيفة منفعلة . تململ الآباء انتظاراً لشئ يحدث فيبرر بقاءهم ، فلا يخرجون عائدين إلى بيوتهم ليواجهوا أمام أنفسهم فشل تدبيراتهم . كانوا على ثقة فى قرارة أنفسهم أن لا شئ أمامهم سوى أن يذهبوا ، وأن يذهبوا فوراً قبل أن يحدث حادث آخر ، ولكن التراخى هذا المثبط الأعظم ، أمدهم بالمبررات المعتادة ، فأخذوا يقولون لأنفسهم : « إنهم يطلقون العنان لخيالهم ، وما حدث ليس على أى خطورة ، معلمة مهملة أتاحت لتلميذها فرصة ليسئ السلوك . »

وكلما مرت الدقائق ولم تتحرك الستائر انقلب شعور الحاضرين بحدة ضدهذه

المعلمة، وهمس أب أحد الأطفال إلى إحدى الأمهات الرشيقات وكانت تصحب ابنتها : « ما أغبى هذه المرأة الحمقاء ! » ، وردت المرأة وقد أشرقت أساريرها : « لو كنت أنا لما أرسلت طفلى إلى مدرسة هى فيها . » وكأنما أحست المعلّمة بما يقال فيها ، فتشبثت بمقعدها وركزت نظرها إلى الأمام متجاهلة الموضوع .

وكان الأطفال فى وسط القاعة يقلبون هم الآخرون أوجه الموضوع محاولين بسذاجتهم تحديد اللوم . وإذ لم يكونوا ذوى بصيرة وخبرة كآبائهم ، فقد علت وجوههم أسارير غضب .

وقالت فتاة صغيرة : « هل كان هذا ولداً شقيا ؟ » وردت أمها على الفور : « بالطبع . »

فقالت الفتاة « أوه » وإن بقيت نظرتها تائهة غير مستقرة .

وظهر صانى مرحا كالعادة صائحاً : « والآن يا أصدقائى وصديقاتى إن الفصل الثالث على وشك الابتداء » وما من شك أن الدمية كانت هى هى .

فقد انحنت وصفقت بيديها ورقصت وزعقت زعقاتها المرحة .

كان ما حدث قدمات وانتهى كل شئ ، وغاض مرة ثانية فى مرح الطفولة .

على أن الأطفال كانت على وجوههم مسحة من الحذر وأخذوا يلتفتون نحو آبائهم منتظرين تعليماتهم ، فقد أصبحوا لا يعرفون ما ينبغى عليهم أن يفعلوا .

ولما ظل الأطفال برهة مترددين لوى الآباء وجوههم ليضحكوهم حتى توزعت نظراتهم بين آبائهم والمسرح الذى وقفت عليه ابتسامة منشرحة عريضة تدعوهم لأن يمتعوا أنفسهم .

وأخذ الأطفال الرقيقو الحس يضحكون وقد يكون هذا الضحك افتعالا ، ولكن مالبث الآخرون أن انضموا إليهم . وخلال لحظات قلائل كانت الأزمة قد فاتت وعمت ثانية روح التبسط ورفع الكلفة ، واستمر التمثيل ، وما لبث الأطفال أن أخذوا يتصايحون ويتعاوون كالذئاب وأخذت الصغيرة ذات القلنسوة الحمراء ترتجف هلعاً من الخوف . وسرى الارتياح فى نفوس الآباء فجلسوا فى هدوء وقد سرهم أن صباحا آخر قد انقضى بغير أن يقع شئ للأطفال يثقل على عواطفهم .

وانزاح آخر وسواس من نفوسهم حينما أنقذت الصغيرة وانتهت الرواية بأمان . وأسدلت الستائر ولكن الأطفال لم يتأهبوا للقيام بل ظلوا فى مقاعدهم يصفقون ويهتفون بينما كان آباؤهم يجمعون قبعاتهم ومعاطفهم .

وفى هذه اللحظة التى زال فيها أى خطر وبدا أن كل مخاوفهم كانت ظنونا وربما كانت شذوذاً ، وثب الطفل الصغير نفسه من مقعده وألقى إلى معلمته بسؤال ، فردت عليه بصوت رن فى أذن الجميع قائلة : «أى نعم أظن أنك تستطيع الآن أن تذهب إلى كواليس المسرح » واستوقف الجميع شئ فى لهجة المعلّمة وشعر الآباء الذين أرادوا أن يسحبوا أولادهم ، ووقفوا برهة يراقبون هذه الجماعة التى أخذت تصعد سلالم المسرح فى شبه موكب — أن الرواية لم تنته وأن لابد من ترضية من الدميـة للطفل ، ولا بد أن يمسك الطفل بالدمية وأن يتصافحا فى احتفال خلف المسرح وبرضاء الدمية .

وبعدم اكتراث انتظر الحضور حتى وصل الموكب إلى المسرح ووقف بعض الأطفال المتحفزين يتبعون الموكب بأنظارهم ، وإذ بالستائر تنفرج ، وإذا بالسيدة التى التقى بها الجميـع فى ردهة المسرح ، وقد تشعث شعرها الأبيض وعلت تقاطيع وجهها سمات الغضب ، كأنما هى السخط المجسم ، تطل بوجهها هذا من بين الستائر صارخة : « ارجعوا ارجعوا من هنـا . . . ارجعوا » ووقفت فى طريق الموكب صائحة : « أيها الأطفال الأشقياء الفظاع » .

وكان الصوت الصائح مألوفاً ، بالطبع كان صوت صانى . ولقد أخـذت تكرر : « أنتم أيها الأطفال الفظاع . . . الفظاع » فى لثغة ، واستدار الأطفال وجروا وهى تتبعهم حتى سلالم المسرح وترتجف فى حنق شديد وفى هيئة يتبين فيها الانسان بقايا مضيفة ودمية .

وجاء من خلف الستائر شخص أمسك بها ، وهرول رجل من المقصورة إلى المعلمة يهدئ منها وقد أخذت ، وقد رأته قادماً ، تكرر القول : « هذا ليس أسلوبا تخاطبين به طفلا » .

ولم ينتظر الحضور ليروا ما سوف يحدث ، بل تسللوا خلال المطر فى صمت وخزى ، ولا تزال ترن فى آذانهم أصوات بكاء تختلط بكلمة «طفل» كما نطقتها المعلمة فى رنة وعطف وتجلة ، وقد أخذت تذوب كما تذوب نغمات المرتلين .

مارى مطارنى

نقلها عن الانجليزية محمد عوده

من هنا وهناك

رسالتان عن المعذبين فى الأرض

١

روت لنا قصة جماعة من الناس يعدون بالملايين فى مصر ، صورتها فى شخص صالح الذى تجسم فيه الشقاء والحرمان ، وهى فى الوقت نفسه قصة الانسانية فى كل العصور ، وعند جميع الأمم .

فالشقاء يصيب الكثرة المطلقة من الشعوب ، والحرمان يلازم سواد الناس ، فلا يظفر بالنعيم إلا خاصتهم ، وما أقلهم .

على أنى أرجو ألا تنسى فريقاً آخر ينتظمهم سلك المعذبين فى الأرض ، وإن كانت حياتهم المادية سهلة ميسرة ، وإن كانوا ينعمون بملذات الحياة ويسعدون بمبهجاتها فى ظاهر الأمر ، وهم فى الواقع حقيقون بالرثاء والاشفاق .

فليس المعذبون فى الأرض ، عندى ، هم وحدهم أولئك الذين عاشوا فى البؤس وانغمسوا فى حمأته ، فهم ينظرون إلى ما فى أيدى الناس وفى أعينهم عبرة وفى قلوبهم حسرة .

وليسوا هم أولئك الذين لفظتهم أمهاتهم ونبذهم آباؤهم ، فأصبحوا عالة على المجتمع ، مشردين فى الطرقات ، تنتابهم العلل والأمراض ، حتى استحقوا رحمة الانسانية وعطف المحسنين .

وليسوا أولئك الذين أضناهم الشقاء فضويت أجسامهم وذبلت نضرة شبابهم واقتحمتهم الأعين وتقززت من منظرهم النفوس .

ليس واحد من هؤلاء وأمثالهم — وإن كانوا يعدون بالملايين — بأشد عذاباً وأكثر بؤساً من جماعة أخرى ، وإن كانت قلة وفى نظر الغير سعيدة .

فليس الحرمان المادى والعذاب الجسمى بأشد أنواع العذاب وأقوى مظاهر الشقاء ؛ فان شقاء أساسه الحرمان ومادته الحاجة قد يصبح مع الالف عادة ، وكلما طال الأمد بالمحروم ألف الحرمان ونسى بؤسه وغفل عن شقائه .

وغير بعيد منك هؤلاء الأطفال الذين يتسكعون فى الطرقات ، وأولئك الكبار الذين لا يجدون الكفاف ، ومع ذلك قلما شعروا بحالهم . . . تجدهم يسرحون ويمرحون ، لا يعبأون بشىء ولا يفكرون فى شىء ، مات حسهم ، وتبلد شعورهم ، بل قد لا نبالغ إن قلنا إن كثيراً منهم فقد إنسانيته أو كاد ، فأصبح لا يشعر بنفسه ولا يدرك وجوده كانسان ، إنما الذى يحس وجوده ويأسى لحاله هو ذلك الغير ممن لم تنزع الرحمة من قلبه ، ذلك الذى

يرى أن من حق ذلك المخلوق الشارد أن يعيش إنساناً كما خلقه الله ، يشعر بانسانيته ويحرص عليها ويدافع عنها ، فلا يفقده المجتمع ليسلكه فى عداد جنس آخر من المخلوقات .

إنما المعذبون فى الأرض — وعذابهم أشد — هم أولئك الذين ابتلوا بالحس المرهف والشعور الدقيق والقلب الرقيق .

هم أولئك الذين منوا بالضمير الحى واليقظة الحادة والانتباه القوى .

هم أولئك الذين يذكرون غيرهم وينسون أنفسهم ، يضحون براحتهم فى سبيل إسعاد الآخرين ، يذكرون الواجبات ويسرفون فى أدائها ، ويغفلون أو يتغافلون عن حقوقهم والمطالبة بها .

هم أولئك الذين يؤرقهم الفكر ، فهم يستعرضون بالليل ما قدموا بالنهار ، يحاسبون أنفسهم على الجليل والحقير ، ويحصون ما ارتكبوا من أخطاء ، ويتجاوزون عما قدموا من حسنات ، فكل همهم تسجيل ما عليهم لا ما كان لهم .

هم أولئك الذين يصادفهم سوء الطالع ، يسعون للاحسان جاهدين فتسبق إليهم الاساءة ، ويحرصون على حسن الصنيع فينكبون بالجحود .

يفرضون على أنفسهم واجبات لم يطالبها منهم أحد ، وقد لا يفكر فيها أحد ، تأسرهم الكلمة الطيبة والمجاملة الرقيقة ، فتصبح ديناً فى أعناقهم تجب المبادرة إلى أدائه والتفانى فى سبيله ، وهم لا يهدءون إلا إن ساروا فى الشوط إلى نهايته ، لا يبغون من وراء ذلك جزاء ولا شكوراً .

يحملون أنفسهم تبعات قد لا تجرى على خاطر غيرهم ، ولكنهم يعدونها فريضة ، يبررونها طوراً بحق الصداقة ، وآناً بدافع المودة ، وحيناً هى واجب قوى ، فان أعوزتهم الحيلة ، فلا أقل من شعورهم بأن هذا واجب إنسانى !

وهل أسمى من الشعور بأنك تؤدى واجباً إنسانياً ؟ ولن تنتظر طبعاً أن تجزيك الانسانية على صنيعك . . . وهل تجسمت الانسانية شخصاً تقتضيه الجزاء ؟

فلست تفكر فى شىء إلا أنك تلبى نداء الضمير وتستجيب لدعاء الواجب .

كل هاتيك الخواطر والصور تمثلتها حين قص على صديق قصته ، ولعلها واحدة من صور مختلفة الأشكال متعددة الألوان ، ينعكس عليها فى آخر الأمر مظهر من مظاهر عذاب النفس وحيرة الضمير .

قال صديق :

« ضمنى وبعض الصحب مجلس ، فدخل زائر تربطه بالحاضرين صلة الصداقة ، فكان طبيعياً أن يتم التعارف . . . على أنى تذكرت أنا التقينا مرة منذ سنين . . . اتصل الحديث فترة ثم افترقنا على غير موعد أو تفكير فى لقاء . . . فما كانت إلا زيارة عارضة .

« سمعت بعد أيام أن فلانا معتكف ، وتداعى الصحب لزيارته . . . أما أنا فاعتذرت ، فليس بيننا من الصلات ما يجيز الزيارة ، ولا يصح أن أدخل بيتاً لا عهد لى بأهله . . . وكان تصرفى سليما فى رأيى .

« ولكنى علمت فى اليوم التالى أن فلاناً هذا مريض ، عند ذاك تنازعتنى عواطف مختلفة وانتابنى شعور غريب ، دفعنى إلى التفكير والمساءلة : ألا ترى أن الزيارة واجبة وأن المرض يقتضيها ؟ ولكن ! كيف تزور من لم تلقه إلا مرة قريبة وأخرى طواها النسيان ؟

وبأى حق تستبيح السؤال عمن لا يعرفك إلا بالاسم ؟ وهل جرى العرف أن يهتم الانسان بمن لا يعرفه ؟ ثم على أى نحو تؤول الزيارة ؟ وأى فضول هذا حتى تقتحم عليه عزلته ؟

« إذاً . . . من الخير ألا أذهب ، فما من سبب يرجح الزيارة بل إن الموانع كثيرة .

« ولكنى أعود فأقول : هل يليق بك أن تحجم وقد عاده جمع من أصدقائك ؟ ألست تعرفه من زمن بعيد وإن لم تلقه إلا قريباً . . . وإن لم تجالسه إلا مرة أو مرتين ؟ ألم تحمل إليه يوماً رسالة من صديق عزيز أنفذتها إليه من بعيد فكتب إليك ينبئك بوصولها ؟ ألا تعلم أنه يدين لذلك الصديق بالحب والاعجاب ؟ بلى !

« لقد اجتمعتما ، إذاً ، على إكبار ذلك الصديق والوفاء له . فهل من رابطة أقوى من هذه وأمتن ؟

« كل هذه العوامل جعلت شخص فلان قريباً إلى قلبي ، ماثلا فى خاطرى ، أضمر له الصداقة الخالصة وإن لم أعلنه ، وأنظر إليه بنظرة الأخوة الصادقة وإن لم أصارحه ، فما كان هذا إلا شعوراً داخلياً لا يتعدانى إلى سواى ، فمن الحمق إظهاره ، إن لم يكن تصوره نوعاً من الوهم قد تجسم حتى خلته حقيقة . وهل يجوز أن أخلق من الوهم حقيقة ؟ أليست هذه خواطر جالت بذهنى وحججا قد أكون انتحلتها لأبرر بها الزيارة ، ولا ظل لها فى الواقع ولا صدى فى نفس غيرى .

« اختلط على الأمر ، وحرت بين الموانع والدوافع حتى اهتديت إلى حل خلته موفقاً !

« وماذا على لو ذهبت فتركت بطاقة؟ وبذ فعلت ، على أنى ما هممت بالانصراف حتى دعيت للدخول .

« كان لقاء كريم واستقبال حسن بددا ما علق بذهنى من الأوهام ، وأحسست بالغبطة لأنى وفقت لأداء واجب دفعتنى إليه فطرتى . . .

« اتصل الحديث بعض الوقت ، ثم استأذنت وكأنهم لم يكرهوا زيارتى أو يضيقوا بها ، فلقد تفضلوا ودعونى إلى ألا أقتصر على واحدة . . . على أنى وأنا أتهيأ للانصراف عرضت عليهم التطوع لقضاء أمر فلم ينكروه ولم يروا مانعاً من إنفاذه ، ولعلى ابتهجت لهذه الموافقة . . .

« وكذلك عدت فى اليوم التالى لأداء ذلك الواجب الذى التزمته . . . ويا ليتنى لم أفكر فى واجب ولم أسع إلى فعله . . . ولكن الطبع غلاب !

« كانت الساعة قد قاربت الثانية والنصف حين دخلت ، وقد وجدت من أنس فلان ولطفه ما جعلنى أرسل نفسى على سجيتها وفى غير تكلف أو احتياط ، فتشعب الحديث وتنوعت الموضوعات وتناقشنا واستعرضنا الأشخاص وأبدى كل رأيه فى صراحة المطمئن ولا حرج . . .

« كنت أعرف منه كمال العقل وصفاء الفكر ، إلى خبرة بالحياة وبصر بالأمور . كذلك كنت أعتقد — مبالغة منى فى حسن الظن — أنى أتحدث إلى أخ كريم وصديق قديم . فلا بأس من التحلل من المجاملات !

« ألهانى الجدل والمناقشة المنطقية آنا ، والمعتمدة على المغالطة حيناً والاستطراد من موضوع إلى آخر ، عن الوقت ، فلم أذكر أنى نظرت إلى الساعة أو حدست الزمن ، ولم أتنبه لذلك إلا بعد أن هممت بالخروج . . . حين ذاك أدركت أنى أسرفت على القوم فأطلت الجلوس . . . بل عرفت أكثر من هذا . يقيناً — أو ظناً — أنهم لم يتغدوا بعد . . . لقد شاهدت ، وأنا فى طريقى إلى السلم ، مائدة مهيأة !

« فمن تنتظر إلى تلك الساعة ؟ ولمن تكون إلا لهم ! ازعجتنى الملاحظة وكدت أعود لاعتذر ولكن كيف ألقاهم بعد أن أجهدتهم وكلفتهم ذلك العناء ؟

« فهل نسيت أنى أعود مريضاً هو أحوج ما يكون إلى الراحة ؟وأنى فى حضرة شيخ مسن يسئمه المكث الطويل ؟ أبلغت من سوء التقدير هذا الحد ؟ أينعكس على الغرض ؟ أسعى لقيام بواجب أعتقده فأتنكب عن سبيله ؟ وأهل البيت ؟ أكانوا قد تناهوا فى الأدب وحسن الذوق ، فلم يشعروا الغريب بضجر أو ملل ؟ نعم لقد أحس بعد فوات الوقت أنه غريب فقد تبخرت من رأسه كل الفروض والأوهام . . .

« أكنت من الغفلة بحيث لم ألمح قسمات الوجوه ولم أفطن إلى نبرات الصوت فأستشف ما تكنه ضمائرهم أو تخفيه سرائرهم ؟

« أهمنى ذلك بقية يومى وأرقنى طول ليلى ، فأصبحت ولا هم لى إلا الاصلاح . . . ولم أطق العودة إلى منزلى قبل أن أعمل على محو ما قد أكون سببته من مشقة ومضايقة ، فان ضميرى قلق ونفسى مضطربة .

« ولكن علام القلق والحيرة ؟ ولم لا تدع ما كان ولا تلق بالا إلى ما يكون ؟

« لا . . . لابد من الاعتذار فذلك أكرم . . . انتحيت ناحية من مقهى ، وكتبت ما ظننته اعتذاراً وأرسلته ، وبذلك أزحت عنى بعض ما شعرت به من هم .

« ثم مرت أيام كانت أطول من سنين تبينت خلالها من شواهد لمحتها من بعيد أن ظنى صدق وأن الأمر فوق ما قدرت .

« عدت من جديد أستعرض الأحداث كلها . . . ماذا قلت؟ وفيم تحدثت؟ ثم ماذا كتبت ؟

« لعلى أهتدى من وراء ذلك إلى مأخذ أو أدرك سببا واضحاً وتعليلا صحيحاً لهذا التحول المفاجىء ، ولكن أنى لى هذا فقد أعوزتنى الحيلة ؟

« دارت برأسى أسئلة كثيرة وتعاقبت خواطر مختلفة .

« أترانى لم أحسن الاعتذار كما أخطأت فى بواعثه ؟ لقد كان من الممكن ألا أخطىء ، وكان ميسوراً ألا أسيء ولكنه الحظ العاثر . . .

« وما الدافع الى كل هذا الاهتمام وذلك التفكير ؟ وماذا يعنيك من أمر فلان هذا ؟

« أيهمك أن يتصل حبل المودة وأن تقوى رابطة الصداقة ، فأنت تشفق من القطيعة ؟

« أترجو فلاناً هذا فيهمك رضاه ويؤذيك سخطه ؟ وهل تفكر فى منفعة عاجلة أو آجلة فأنت تخاف أن تفوتك ؟ أم هل تتوقع أن تراه بين آن وآن فأنت تخشى هذا اللقاء ويزعجك أن ينصرف عنك أو يتجهم لك ؟

« لست ممن يحرصون على التحدث عن الصداقات والفخر بالتعرف إلى فلان أو فلان . ثم إن مقابلتكما كانت عارضة وبعدها فرقة قد تكون إلى الأبد . . . لقد التقيتما مصادفة وجمعت بينكما ظروف طارئة ، ومن المحقق أنه إذا قدر لقاء فى المستقبل القريب أو البعيد فلن يكون إلا مصادفة أيضا فلا يجمع بينكما بلد ولا وطن . . . الأقطار متباعدة والأسباب تكاد تكون منقطعة . . .

« فما هذا الأسى الذى يعتريك ؟ ولم ترهق أعصابك بالتفكير فيما لعله أن يكون بدر منك ؟ هل أتيت ذنباً ينكر او شيئاً يعاب ؟

« وماذا عليك لو أرحت نفسك وأعفيتها مما يعنيها ؟

« أليس الأولى بك أن تنسى صفحة ما كادت تنشر حتى طويت ؟

« ولكن لا . . . ليس ذلك من طبعي ولا هو من عادتي، فالضمير والخلق يفرضان على أن أحسن لا أن أسيء . ومن الواجب وقد لقيت إنساناً على خير حال أن افارقه كذلك على الود فلا أرضى لنفسي أن يقترن عنده اسمي بذكريات سيئة لو جرى على لسانه او مر بخاطره فكيف السبيل ؟ وما العمل لتنقية الجو من أدرانه ؟ ثم أسدل الستار على هذه النهاية الأليمة !

« فلأشرع في تحسس الجو ، وقد أتيحت لى الفرصة . . . على أني ما كدت أنذ العزم حتى لمحت من خلال الأفق حجاباً صفيقاً وهدوءاً هو بالعاصفة أشبه ، وتبينت ، من بعض الملابسات ، أن الأمر إلى فساد ليس بعده صلاح .

« لم ؟ وكيف ؟ وما السبب فى اضطراب الجو وتسممه ؟ لا أدرى ! .

« استعرضت من جديد ما بقى عالقاً بالذاكرة من أحاديثى ، وما يمكن أن يتصور من اتجاهاته أو يحتمل التأويل من عباراته . . .

« أكانت الأحاديث هى السبب ؟ لقد كانوا إذاً ملائكة . . . فهل بهرنى نورهم فعميت من ذلك الضرام المستعر وهذه النار المشتعلة ؟فلم أر إلا إشراقها وسنا ضوئها !

« أكانت الرسالة أس البلاء ومصدره ؟ فماذا كتبت ؟ وهل أخطأت التعبير ؟ أم ماذا بين السطور ؟

« لا أذكر نص الرسالة وإن لم أنس موضوعها . . . فما زادت على ان تكون كلمة اعتذار وشكر .

« كتبتها فى ساعة حيرة وقلق ، ولا شك أنى ما أردت إلا الخير فكيف انقلبت الأوضاع؟

« لو كنت أفضيت بذات نفسى إلى إنسان لعدت إليه أستوضحه لعله يرشدنى ويهدينى السبيل .

« ولكن أنى لى هذا ؟ فأنا السائل وأنا المجيب .

« وهكذا أضنانى الفكر فأنا أقضى الأيام أحاول التعليل والتأويل وأراجع الحساب . . . ولا أزال . . .

« فأى ذنب جنيت وأى درس أفدت ؟

« لقد مر فى نفسى —ولو إلى حين— أن الثقة بالناس وهم باطل وأن الاطمئنان المطلق إلى الأشخاص حمق وضلال .

« كنت أقيس شعور الناس بشعورى ، وأزن الأمور بميزانى الذى نصبه لى العقل أو الهوى ، أمنح ودى صافياً لمن توسمت فيه نقاء الضمير وصدق الطوية ، وإن لم يطل عهدى بصداقته ، فلم أكن أدخل الزمن فى حسابى لتقويم الصداقات أو تقديسها .

« ولم أكن أعرف النفاق ولا أحبه ، أوثر الصراحة وأخدع بمن يدعيها ، ولكنى كنت أتحمل نتائجها . وهكذا ترانى أخلق لنفسى الهم وأكتوى بناره ، فأنا أعيش فى جو قاتم حافل بصنوف العذاب والألم التى صنعتها أنا ، على سلامة ضميرى وصفاء نفسى .

« لقد أضنانى الضمير القلق والنفس الحائرة ، فأنا مع الناس ولست منهم . ولو عرفت ألا أبالى بشىء ولا أهتم لمخلوق لكنت فى حياة رغدة وعيش هنىء ، ولكن هكذا قدر أن أكون . »

هذه قصة الصديق ، يا سيدى الدكتور . أفلا ترى معى أنه واحد من هؤلاء المعذبين

فى الأرض ؟ فهو وإن لم يزعجه فقدان الكسرة والمبيت على الطوى ، وإن لم يضنه الحرمان ، فقد فقد ما هو أعز وأغلى ، إنه فقد نفسه ولم يهتد إليها ، فهو معذب يشكو بؤس الحياة الروحية وما أقساه !

أو ليس أمثال هذا أشد بؤسا وشقاء ممن فقدوا متعة الجسد وحرموا المنفعة المادية ، فهم على نعمتهم الظاهرة وسعادتهم الملحوظة فى عذاب أليم وشقاء دائم ؟

أليس هؤلاء أحق بالرحمة من سواهم ، لأن لهم « قلوباً تشعر ونفوساً تحس وضمائر تستحي ؟ »

لقد تضحك — يا سيدى — من سخفهم ، كما تألمت لغيرهم حين رأيتهم كثرة هائلة . ولكن هذا الضحك لن يغير من الواقع شيئاً ، ولن يرد عليهم هدوءهم الذى فقدوه ، ولا ظمأ نياتهم التى يبحثون عنها فلا يظفرون بها .

فهلا حدثتنا عنهم ؟ وهل عندك الدواء لذلك الداء العياء ؟

[بيروت]　　　　　　عبد العزيز احمد

٢

لا أجهل أن وقتك ثمين ، وأنه أثمن من أن يصرف بعضه فى قراءة كلتى هذه التى أبعثها إليك مشفوعة منى بتجلتى وإكبارى . لكن حافزاً فى قلبى نزع بى إلى أن أكتب إليك ، حافزاً ملحا شديداً أشعر بثقل عبئه على قلبى إن بقى فيه مكبوتاً ولم يخرج من فمى ألفاظاً تتنفس بها نفسى وتأخذ روحى بعض راحتها وسلوانها .

أكتب إليك ومجلة « الكاتب المصرى » بين يدى ، هذه المجلة التى آثر لطفك وظرفك أن تكون مجلة القارىء لا مجلتك ، ليجد فيها كل ما يتلمسه فى دنيا العلم والثقافة من معرفة ومتعة . هاهى ذى أمامى بعددها الأخير ، أقرأ فيها القصة المحزنة التى دبجها يراعك الصناع ، القصة التى قلت عنها إنها ليست بقصة بل هى حديث سردته . وهل كانت قصص الحياة وعبرها وآلامها إلا أحاديث يرويها التاريخ بفم الدهر ، وإذ أصيب الدهر من قديم بالخرس والعى كنتم أنتم يا أدباءه ونوابغه الألسنة الناطقة المعبرة عن حب الانسانية وبغضها وآلامها وهناءتها . هذه القصة التى قدمتها إلى الذين يحرقهم الشوق إلى العدل ، وإلى الذين يؤرقهم الخوف من العدل . وهل كان هذا الشرق العريض الفسيح إلا أمة انقسمت على نفسها إلى معسكرين كبيرين متنافرين ، فهؤلاء ظالمون وأولئك مظلومون ، وما فتىء المظلوم يتحرق إلى حقه حتى يجد المثوبة على صبر بذله ونفس استنزفها ، وما فتىء الظالم مؤرق الجفن خشية من نقمة العدل وثورة الموتور . وحديث الشرق والظلم فى الشرق والجهل ووأد الحريات وقتل القابليات وحكم المحسوبيات وسلطانها حديث أخشى عليك مما يسوقه إليك من حزن وألم ومرارة وإن كنت أنت أعلم منى بأدوائه ، وأشفق عليه من أهله وأبنائه .

قصتك هذه يا دكتور قصة الشرق عامة ، وقصتنا نحن العرب المسلمين خاصة ، قصة أخذت لها من فنك وبيانك ريشة الرسام البارع وليقته فجلوت منها صورة شرقية عربية صادقة تصور

الجيل الحاضر وللأجيال المقبلة ما كان عليه الشرق وما هو على بعضه اليوم من ظلم اجتماعي يسوغ وجود الطبقات ويجوز تسخير البشر واسترقاقه ويصور ما فيه من ضحول في الرحمة وجدب في الفضيلة وقسوة تكفي لأن تنسى الغني ما يلاقيه أخوه الفقير وجاره ذو المتربة . ثم هي تصور ما كان عليه الشرق في فترته المظلمة وما هو على بعضه اليوم من جهل مستحكم ورشوة فاشية وسوء تربية وعقم تعليم زيادة على ما تصوره من سوء فهم للدين وتحريف للشرعة وتسخيرها حسب الهوى والمصلحة الفردية . فهل قصتك يا سيدي بعد كل هذا الذي تضمنته تبقى قصة صالح وأمين والحاج علي وخديجة وسعيد وحدهم ، أم هي قصتي وقصتك وقصة الشرق كله بلا استثناء ؟

إنها حقيقتنا نحن جميعاً ، حقيقتنا التي أنكرتها نفوسنا يوم أخذتها العزة بالاثم ، ولكنك أظهرتها بكامل ما فيها من محاسن وقبائح ، ولو عريت من حسن فضحتنا ؛ ولو جاءت كلها محاسن لكانت تلفيقاً وخيالا ورد تهمة واقعة ، ولكنها وسط بين هذا وذاك وإن تكن إلى القبح أميل منها إلى الحسن ، وهل أقبح من الظلم وإزهاق الحقوق واستباحة العرف !

وإني إذ أكتب إليك أشعر بشفقة يحس قلبي بدفئها فترتاح لها نفسي ، شفقة تدفعني إلى الرحمة بهؤلاء المساكين المعذبين بالارض . وعجيب مني أن أشعر بمثل هذا الشعور وأن احمل هذه العواطف الحزينة والأحاسيس الدامعة ، حتى لكأني قد لاقيت ما لاقوه وعذبت بما عذبوا به من سقم وعدم وظلم وأنا المنعم بلهنية الحياة ونعيمها والحمد للرازق المنعم . والطير الطليق في روضه لا يعلم ما يعانيه قعيد الاقفاص حبيسها ، ولكني وإن كنت أبديت العجب من نفسي ، لن أتبجح فأعد ذلك مني فضيلة أنفخها في الناس دعوى عريضة ما دمت أشعر في نفسي بأني إنسان ذو عاطفة وقلب وضمير . وإذ تختلج نفسي بكل هذه الأحاسيس والعواطف وحب الخير ، أود أن ألفت أنظار المصلحين في هذا الشرق إلى نقطة جوهرية هي أننا معاشر الشرقيين لم نزل نحمل في (طينتنا) بقية من خير ، ولم تزل طبائعنا تحمل بعض الميل إلى العدل والانصاف . فلننتهز وجود هذه الخلة ، ولنبارك فينا هذه الفطرة ، ولنعمل مخلصين قاسطين في إنمائها ونشرها والدعوة إليها ؛ فلعلها تكون اللبنة الأولى التي سيبنى عليها عالم الغد حائط عدله الاجتماعي ، ويقيم عليها دستور الحرية والعدل والمساواة بين الناس .

وإذ يتفضل الأستاذ الكبير فيتقبل مني هذه الكلمة الخالصة يكون لي الشرف بأني أرفع إليه عميم امتناني ووافر تقديري وشكري لما أسداه إلى من جميل .

عطاء حمدي

[بغداد]

شهرية العلم

ثورة الفيتامينات

ولدت فكرة الفيتامينات مع الحرب العالمية الماضية ، وبدأت ثورتها وسط عالم مضطرب لم تنسه الأطماع والاضطرابات ركن المعمل المقدس ، فعكف علماؤه على البحث والاستقصاء حتى أخرجوا للعالم هذا الكشف فتحولت إليه الأنظار وتطلع الناس إليه وعرفته الجماهير ، فتحمس العلماء والباحثون وأخرجوا للعالم أنواعا جديدة من الفيتامينات زادت من تعلق الجمهور بها ، فصاروا يعالجون بها كل داء وأصبح وجودها فى صيدليات المنازل حدثا عاديا .

وقبل أن ندخل فى التفاصيل المعقدة يحسن أن نرجع القهقرى إلى سجلات التاريخ لنتفهم معاً كيف جاء هذا الكشف فى مجال الانسان الفكرى ، وكيف تبلور وتطور حتى اكتمل نموه على النمط الذى نراه فى عام ١٩٤٥ ، فمنذ تقدمت الصناعة البحرية لدرجة سمحت بالقيام برحلات بحرية طويلة تستغرق الشهور والأعوام فطن الانسان إلى علاقة هذه الرحلات بانتشار داء الاسقربوط — وهو مرض نزفى يتسبب عن نقص الفيتامين ح — ومنذ عام ١٦٠٠ بعد الميلاد استعمل عصير الليمون للوقاية والعلاج من هذا المرض الخطير .

وقد ذكر «لند» فى كتاب عن الاسقربوط نشره عام ١٥٧٣ أن مفعول عصير الليمون كعلاج واق أكيد لاشك فيه ، وأن استعمال الخضر المجففة لا يؤدى إلى الغرض ، ولا بد أن تكون الفواكه أو الخضر طازجة لتقى آكلها من هذا الداء الوبيل .

وتباطأ القوم كعادتهم فى الأخذ بكل جديد ، فمضت أربعون سنة قبل أن تقرر وزارة البحرية البريطانية صرف جراية خاصة من عصير الليمون لبحارة الأسطول ، وكان ذلك فى عام ١٧٩٥ ؛ فلم يمض عامان حتى اختفى هذا المرض وانتفى عهده البغيض الذى فتك فيه ببنى البشر فتكا ذريعا .

وهنا أسطورة أخرى لا تقل طرافة عن هذه ، وهى قصة «البرى برى» Beri-beri وهو مرض انتشر بالشرق الأقصى فى سرعة مخيفة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، حتى إن أربعين فى المئة من موظفى البحرية اليابانية أصيبوا به بين عامى ١٨٧٨ ، ١٨٨٢ . والسبب فى هذا الانتشار الفجائى أنه تصادف مع دخول الأوربيين هذه البلاد أن أتوا معهم بآلات تصقل الأرز وتزيل غلافه ، وكان أهل تلك البلاد يأكلونه قبل ذلك كما هو فيتمتعون بما فى غلافه من الفيتامين ب — وهو الذى يقى من هذا المرض . وقد أثبت العالم ايجكمان فى عام ١٨٩٠ أن اعطاء الدجاج أرزاً مقشوراً يولد لديها التهابا فى الأعصاب شبيها بالذى يحدث فى مرض البرى برى ، وأمكن شفاؤها باعطائها قشور الأرز . فثبت بهذا أن هذه القشور التى نحتقرها لتفاهتها تحوى المادة التى أصبحت الآن موضع اهتمام الخاص والعام والتى يعتبرها الكثيرون إكسير الحياة وأقصد بها الفيتامين ب .

وتطور البحث وتشعب ، وأجريت التجارب على الحيوانات لاكتشاف الحلقة المفقودة .

وأخيراً تمكن هوبكنز وبكلهارنج من أن يعلنا للملأ أن هناك مواد فى غذاء الانسان لم تكتشف بعد غير الزلال والسكر والدهن والأملاح ، ولا بد من وجودها لينمو الانسان نمواً طبيعيا . وفى عام ١٩١٢ أطلق فنك على هذه المواد المجهولة اسم الفيتامين . ثم أخذ الكشف يتلو الكشف حتى أدت البحوث إلى اكتشاف ثلاثة فيتامينات هى الحجر الأساسى لهذا الحدث العظيم الذى منح البشر خيراً عميما ، وأطلقوا على الفيتامينات الثلاثة ا ، ب ، ح ثم مالبثت هذه أن تفرعت وتشعبت واكتشفت بجانبها فيتامينات أخرى . ولا يكاد يمضى وقت دون أن يظهر فى المجلات العلميــة بحث جديد عن نوع من الفيتامينات . ولا يمر عام — وخاصة فى العشر السنوات الأخيرة — دون أن يهتدى باحث مدقق إلى كشف فيتامين جديد وخاصة مما يمت إلى الفيتامين ب بصلة . وقد اكتشف منه حتى الآن تسعة أنواع .

وتطور البحث إلى تحضير هذه الفيتامينات كيميائيا —أى من غير مصادرها الطبيعية— فقلت نفقات العلاج وهبطت أسعار مستحضرات الفيتامينات هبوطا ملحوظا فى السنين الأخيرة ولنضرب لذلك مثلا الفيتامين ب ١ ، فمنذ سنوات قلائل كان يجب أن يستهلك من الخميرة ماقيمته مائتا جنيه لنستخلص ما زنته جرام واحد من الفيتامين ب ١ ، أما الآن فان تكاليف التحضير بالطريقة الكيمائية لا تتعدى العشرين قرشاً للجرام الواحد .

وليس استعمال الفيتامينات مقصوراً على علاج الأمراض الصريحة التى تنتج عن نقصها مثل الأسقربوط والبرى برى والبلاجرا ولين العظام ، بل إن هناك درجات متفاوتة من هذا النقص لا تصل أعراضها إلى الدرجة التى يحسها المريض أو الطبيب . ولعلى أتمكن فى سياق الكلام من تبيان ما يخفى ويغمض من هذه الأعراض .

فاذا بدأنا بالفيتامين ا فأول ما نقوله عنه إنه يمت إلى فصيلة الكاروتينودات — نسبة إلى الكاروتين أى الصبغة الموجودة فى نبـات الجزر ، والتى يمكن أن تتحول فى الجسم إلى فيتامين ا . وتوجد هذه المادة بكثرة فى اللبن والزبد والبيض والكبد والخضر والجزر ويحتاج الانسان منها إلى ٥٠ وحـدة ويمكنه أن يجدها فى كوب من اللبن أو بيضة أو خمسة وعشرين جراما من الزبدة أو فى كمية معتدلة من الخضر والجزر . ويجرى تحويل الكاروتين إلى فيتامين ا فى خلايا الكبد ، ولذا كانت أمراض الكبد من أهم أسباب نقص هذا الفيتامين . وكذلك مرض البول السكرى فان مقدرة الكبد على هذا التحويل تقل كثيراً فترتفع نسبة الكاروتين فى الدم ويصفر جلد المريض بدرجة ملحوظة .

ويحتاج الجسم لكميات أكبر فى حالات الحمل والارضاع والاصابة بأحد الأمراض المعدية .

وأول علامات نقص هذا الفيتامين هى عدم القدرة على الرؤية فى ظلام الليل . وقد شوهدت هذه الظاهرة بكثرة فى البلدان المتحاربة حيث أدى نقص جراية الزبد المقررة للفرد الواحد إلى قلة الفيتامين ا فى الغذاء ، وكذلك ساعدت سياسة الاظلام التام على إظهار هذا العيب فى كثير من الناس لم يكونوا ليفطنوا إليه فى عهد النور والسلام . وكم من طيار وجد نفسه عاجزاً عن مواصلة الطيران فى ظلام الليل فاضطر إلى العـودة إلى قاعدته دون إتمام المهمة التى كلف بها ، وكانت نتائج العلاج بالفيتامين ا سريعة ووافية بالغرض .

ووجد كذلك أن لهذا الفيتامين علاقة أكيدة بحيوية الأغشية المخاطية فى الأجهزة التنفسية والهضمية والبولية . ومتى جفت خلاياها وماتت أصبحت عرضة للعدوى بمختلف الجراثيم لأنها تفقد قدرتها على مقاومة العـدو الخارجى . ولهذا السبب تكثر الالتهابات الرئوية والشعبية

والمعوية والبولية . وإذا امتدت الاصابة إلى القرنية (أى سواد العين) فانها تؤثر فى قوة الابصار تأثيراً بالغاً .

ويحوى زيت السمك على ٦٠٠ وحدة من الفيتامين ا فى الجرام الواحد وإعطاء ملعقة صغيرة ثلاث مرات فى اليوم يفى بالغرض . وقد ابتدعت أثناء الحرب طريقة إعطاء حقنة واحدة فى العضل تحوى مائة ألف وحدة من الفيتامين كملاج سريع للطيارين الذين يفقدون قدرتهم على الابصار فى الليل . وقد استعمل الفيتامين ا أخيراً كملاج لضغط الدم وتصلب الشرايين . ويعطون منه كميات كبيرة تبلغ حوالى ثلاثمائة مليون وحدة فى اليوم الواحد لمدة أسابيع أو شهور حتى يحدث التأثير المطلوب ، وعندها يقلل عدد الوحدات إلى خمسة وعشرين ألفا أو مائة ألف وحدة فى اليوم حسب الحالة . ويمكن وقف العلاج تدريجياً دون خوف من من رجوع الأعراض . وقد أجريت التجارب على مائة مريض فتحسن الضغط تحسناً واضحاً فى خمس وعشرين حالة ، وكان التحسن جزئيا فى خمسين حالة ، ومعدوما فى الخمس والعشرين الباقية .

وبدأت الباء بسيطة خالية من المظاهر لايؤنسها فى وحدتها إلا نقطتها التقليدية الرابضة فى مكانها السفلى المتواضع . وتمتعنا نحن الأطباء بوجود ساحر قدير اسمه الفيتامين ب يشفى مرضاً خطيراً اسمه البرى برى ، من أهم أعراضه شلل الأعصاب وارتشاح عام فى الجسم . ثم مرت الأعوام وتشعبت البـاء المتيدة وأصبح الجذع شجرة عديدة أغصانها ، إذ بلغت حتى اليوم تسعة لايزال معظمها فى دور التجربة . وأشهر هذه المجموعة ثلاثة : التيامين أو فيتامين ب ١ والريبوفلاڤين وحمض النيكوتنك وهما عضوان من أسرة الفيتامين ب ٢ التى تضم أيضاً عضوين مازالا فى سبيل النضج وهما فيتامين ب ٦ وحمض البانتوتنك . أما الفيتامين ب ١ أو التيامين أو الفيتامين المضاد لالتهاب الأعصاب فيحتاج الجسم منه إلى مامقداره اثنان من المليجرامات فى اليوم . وفى حالة نقص هذا الفيتامين لا يتيسر لخلايا الجسم تمثيل المواد السكرية والاستفادة منها فيتأثر القلب وتلتهب الأعصاب بدرجات متفاوتة حسب درجة النقص . وقد شاع استعمال هذا الفيتامين فى الأمراض العصبية دون تمييز ولا روية . والواقع أن فائدته مقصورة على علاج التهاب الأعصاب الناتج عن نقص غذائى أو تأثير الكحول أو مرض البول السكرى ، وقد يفيد أيضاً فى حالات الارتشاح التى لاتكون مصحوبة بهبوط القلب أو التهاب الكليتين . وغنى عن القول أن تضخم القلب والارتشاح العـام اللذين يصحبان مرض البرى برى يختفيان بسرعة تحت تأثير مفعول الفيتامين ب ١ . ومن المعلوم أن فقدان الشهية من علامات نقص هذا الفيتامين ، ولذا جرت العادة أن يصفه الطبيب فى هذه الحالات .

ويوجد الفيتامين ب ١ بكثرة فى خميرة البيرة والخبز الأسمر والبقول والكبد والبيض ، ولكن نسبته فى اللبن ضئيلة .

أما حمض النيكوتنك Nicotinic acid فقد ثبتت فائدته كملاج لمرض البلاجرا منذ عام ١٩٣٧ . ويلاحظ تحسن حالة الجلد والتهاب الفم بعد أيام قلائل من تعاطى الدواء ، أما الأعراض العصبية فقد تستغرق أسبوعين قبل أن يلاحظ عليها أى تحسن . ولهذا العلاج تأثير السحر فى اختفاء أعراض هذا المرض الذى حير العلماء سنين طويلة . وقد أدت تجربته فى مصر إلى نتائج باهرة ، يكفى إعطاء المريض ٥٠٠ وحدة فى اليوم لتختفى الأعراض تماما ، ثم

يقلل عدد الوحدات تدريجياً . وقد استعمل هذا الفيتامين أخيراً فى علاج التهابات الفم الحادة عند ما شوهد تأثيره السحرى فى التهاب الفم الذى يصحب البلاجرا . وكذلك جرب استعماله فى علاج تصلب شرايين المخ والقلب وما يصحبهما من أعراض ؛ لأن حمض النيكوتنك من طبيعته إحداث تمدد فى الأوعية الدموية يساعد على تنشيط الدورة الدموية فى المخ والقلب فتتحسن الاعراض .

أما الريبوفلاڤين فانه يوجد فى الخميرة واللبن والبيض ، وقد أمكن تحضيره صناعيا فى عام ١٩٣٥ ومن علامات نقص هذا الفيتامين ظهور التهاب حول الأنف والفم يصحبه تشقق يبدأ فى الشفتين ، ثم لا يلبث أن يمتد إلى الجلد وتحمر الشفتان بشكل واضح ، وفى بعض الحالات تلتهب القرنية فيضعف البصر وتشتد الحساسية للضوء . وتختفى كل هذه الأعراض بسرعة إذا تعاطى المريض من خمسة إلى خمسة عشر ملليجرامات من الريبوفلاڤين يومياً . وقد سبق القول أن نقص الفيتامين ا يؤدى إلى ضعف الابصار فى الليل ، أما مع نقص الريبوفلاڤين فان المريض يفقد قوة الابصار عند الغسق أى فى الفترة التى تمضى بين غروب الشمس وسواد الليل .

أما حمض الباتتوثنك فقد أمكن تحضيره صناعيا فى عام ١٩٤٠ . ويوجد بكثرة فى نفس المواد الغذائية التى توجد فيها بقية أفراد أسرة الفيتامين ب ٢ — وخاصة فى خميرة البيرة . ويحاولون فى الوقت الحاضر إيجاد صلة وثيقة بينه وبين الصلع وسقوط الشعر والشيب المبكر . وقد أجريت بحوث عدة وخاصة فى صدد الشيب حتى إنهم أصبحوا يطلقون عليه الآن اسم الفيتامين المضاد للمشيب .

وقد تبدو أسماء أعضاء أسرة الفيتامين ب معقدة نوعا ما ، ولكننا إذا أمسكنا بزجاجة لأحد مستحضراته وجدنا هذه الأسماء جميعا مكتوبة فى شكل مسلسل جميل يساعدنا على تذكرها وخاصة أن لكل منها فوائد خاصة به تضفى عليه شخصية مستقلة .

ولننتقل بعد هذا إلى الفيتامين حـ ويسمونه أيضاً حمض الاسكوربيك ، وقد حضر صناعيا فى سنة ١٩٣٣ ، ومنذ ذلك الحين رخص ثمنه وأصبح فى متناول الجميع يستفيدون من مزاياه الكثيرة . وهو موجود بكثرة فى البرتقال والليمون والجريب فروت والطماطم والكرنب . وهو حساس جداً لا يتحمل عملية الطبخ والتخزين . فاذا غلينا الكرنب فى وعاء مكشوف كان هذا كافياً لازالة عنصر الفيتامين حـ منه . ويلزم الفرد منه مالا يقل عن خمسين ملليجراما فى اليوم . ويحوى عصير البرتقال الطازج خمسين ملليجراما فى كل مائة جرام ، ويوجد فى مستحضرات حمض الأسكوربيك ما يغنى عن عصير الفاكهة إذا لم يكن متيسراً ، فيعطى من الأقراص ما يعادل مائة إلى مائتى ملليجرام فى اليوم على هيئة أقراص صغيرة سهلة الابتلاع ، أو الاذابة فى الماء . ومما لا شك فيـه أن نقص الفيتامين حـ يقلل من مناعة الشخص ضد الأمراض ، ويعوق سرعة التحام الجروح والكسور ، ولكن لم يثبت حتى الآن أنه يزيد هذه المناعة فى الشخص الذى يتناول غذاء صحياً يحوى جميع العناصر اللازمة . ولا يمنع هذا من إعطائه فى مختلف الأمراض كالحميات وأمراض الصدر ؛ إذ يؤدى تحديد الغذاء إلى نقص نسبى فى الفيتامينات . كذلك لا بأس من إعطائه فى حالات الحمل والرضاعة .

أما الفيتامين د فقد اكتشف منه حتى الآن أحد عشر نوعا ، ولكن اثنان منهما فقط لهما قيمة عملية وهما : الفيتامين د ٢ ، والفيتامين د ٣ . وأولهما من أصل نباتى ، ويوجد فى

الخميرة والطحالب المائية على هيئة ارجوسترول ، ولا بد من تعريضه للأشعة فوق البنفسجية ليتحول إلى فيتامين د فعال يمكنه وقاية الطفل من الكساح . أما ثانيهما ، أى الفيتامين د ٣ ، فمن أصل حيوانى ، ويوجد فى زيت السمك وصفار البيض واللبن والزبد . وتحتوى البيضة الواحدة على اربعين وحدة ، ويحتوى نصف اللتر من اللبن على عشرين . ويحتاج الطفل فى اليوم الواحد إلى أربعمائة وحدة ، والشخص البالغ إلى خمسمائة . وهو يوجد أيضاً فى الطبقة الدهنية تحت جلد الانسان على هيئة أرجوسترول لايصبح فعالا إلا بتعريض الجسم لأشعة الشمس ، وهذا من أهم المصادر التى يستمد منها الجسم حاجته من الفيتامين د . ويساعد الفيتامين د على امتصاص أملاح الجير من الأمعاء وترسيبها فى العظام والأسنان . ونقطة الضعف الأساسية فى لين العظام هى عدم قدرة الطفل على ترسيب أملاح الجير فى عظامه ، فتكون النتيجة عظاماً بلا جير لا تلبث أن تلتوى تحت ثقل الجسم محدثة تشوهات ظاهرة وقد تتكسر فى أكثر من موضع . فاذا أعطينا الطفل أحد مستحضرات الفيتامين د كزيت السمك مثلا ترسبت أملاح الجير وعادت للعظام صلابتها . وإنى أشبه الطفل الكسيح دائماً بطفل غارق فى بركة مركزة بأملاح الجير وهو عاجز عن الارتشاف من المنهل العذب حتى نقدم له الفيتامين د وهو بمثابة الدلو الذى يغترف به ليملأ الكؤوس الفارغة فى أطراف عظامه .

وفى حالات لين العظام يكفى إعطاء ملعقة صغيرة من زيت السمك ثلاث مرات يومياً لمدة شهرين على الأقل ، وخمس نقط من مستحضراته المركزة مثل : الفيجانتول والڤيوسترول والكالسفيرول ، ثلاث مرات يومياً . ويبدأ التحسن ، كما يبدو من صورة الأشعة وارتفاع مستوى الجير والفسفور فى الدم ، حوالى اليوم الثانى عشر من بدء العلاج ويتم العلاج من ستة إلى ثمانية أسابيع . وقد ابتدعت أخيراً طريقة لعلاج لين العظام باعطاء جرعة واحدة مركزة من الفيتامين د مقدارها ٦٠٠ ألف وحدة تعطى دفعة واحدة فى العضل أو عن طريق الفم ، وهذه نعمة كبرى على الأم والطفل ، فهى تغنيهما عن قيام معركة الدواء بضع مرات فى اليوم لبضعة أسابيع أو شهور . وقد أثبت الفحص بالأشعة السينية أن ترسيب أملاح الجير فى العظام يبدأ من الأسبوع الثانى ويتم الشفاء فى ستة أسابيع بعد تناول الجرعة .

ثم يأتى بعد هذا أفراد من أسرة الفيتامينات فى طريقها إلى الظهور ، مثل الفيتامين هـ وهو الذى ينسبون إليه علاقة هامة بالعقم والاجهاض ويعطونه بنجاح للحوامل اللاتى اعتدن الاجهاض أو الولادة قبل الأوان . وهناك نوع أخير وهو الفيتامين ك أو الفيتامين المضاد للنزف ، ويعطى بنجاح كبير فى نزف الطفل حديث الولادة والنزف الذى يصحب حالات احتباس الصفرة « اليرقان » وأمراض الكبد عامة . وذلك لأن لهذا الفيتامين علاقة بمادة البروترومبين التى تصنع فى خلايا الكبد والتى لها علاقة بكثافة الدم ، فاذا نقص هذا الفيتامين عن مستواه الطبيعى حدثت أنزفة مختلفة الشدة من الجلد والأغشية المخاطية كالأنف والفم والأمعاء والرئتين . والويل للمريض إذا كان النزف فى مكان دقيق كالمخ مثلا .

وهناك أنواع أخرى قد يبدو نفعها عندما يحين الأوان ، فلنتركها فى عهدة مبدأ البقاء للأصلح حتى تثبت كفايتها وتجتاز اختبار الزمان .

دكتور مصطفى الديوانى

شهرية السياسة الدولية

سجل الشهر المنقضى فى كتاب السياسة الدولية بعض الحوادث الجسام : فقد حلت خلاله عصبة الأمم ، وعقـدت دورة من دورات مجلس الأمن العـالمى لهيئة الأمم المتحدة تميزت بمضاعفات لم يسبق لها مثيل ، وأعلنت معاهدة شرق الأردن مع بريتانيا العظمى ، وتم جلاء الجنود الأجنبية عن الأراضى السورية ، وبدأت المفاوضات فى القاهرة قصد « إعادة النظر » فى المعاهدة المصرية الانجليزية .

حل عصبة الأمم

وقد أعلن حل عصبة الأمم فى الساعة الرابعة والدقيقة الثالثة والأربعين بعد ظهر الخميس الثامن عشر من ابريل لسنة ١٩٤٦ بمقرها العتيد فى جنيف ، مشيعة من ممثلى دولها تشييعا جميلا ذكر فيه الذاكرون فضائلها ، وقرروا ما كان فى إمكانها عمله فى سبيل الحيلولة دون وقوع الحرب الأخيرة لو أن الحكومات المشتركة فيها اظهرت ولاءها للعصبة ومبادئها ، مخففوا بهذا العرفان من قسوة الحملة التى كانت قد وجهت إليها ، دون مبرر ، خلال الخطب التى ألقيت فى الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة لمناسبة افتتاح دورتها الأولى بلندن فى العاشر من شهر يناير الماضى .

والحق أن العصبة كمنشأة دولية قد أدت لحكومات العالم ولشعوبه ما لا يستطيع منصف أن ينكره من الخدم ، خلال مكتب العمل ومختلف لجانها الاقتصادية والصحية والاجتماعية . وفى اجتماعات العصبة بل بين أضابير وزارات الخارجية فى العـالم . وفى مجموعات الاتفاقيات ما يدل دلالة واضحة قاطعة على مدى النشاط الذى بدا من العصبة فى سبيل التنظيم العـالمى . أما ما أصاب العصبة فى الميدان السياسى البحت من إخفاق فانما يرجع إلى ذبذبة الحكومات وضعفها وجبنها أو ريائها وخداعها دون دخل مباشر لأداة العمل والتوجيه فى جنيف .

وقد كانت دورة العصبة الأخيرة — وهى الدورة الحادية والعشرون — دورة تصفية وتحويل إلى هيئة الأمم المتحدة الجديدة . وكان بين ما انتقـل إلى هذه الهيئة من مخلفات اختصاص الاشراف على إدارة الدول صاحبات الانتداب . ولم يكن مستطاعا إبقـاء هذا الاختصاص والعصبة ذاتها يعلن حلها ، ولا السكوت عنه وهيئة الوصاية التى ينص عليها ميثاق الأمم المتحدة لم تؤلف بعد . فتقرر إبقاء الانتداب بأيدى الدول المنتدبة دون إشراف عليها من هيئة معينة حتى توجد هيئة الوصاية الجديدة فينتقل إليها الاشراف الموقوف .

وقد كان لمندوب مصر فى هذا الصـدد موقف ، إذ امتنع عن التصويت على آخر قرار أصدرته العصبة وقد شاءت أن تعبر به عن رضاها عن الطريقة التى قامت بها الدول المنتـدبة بالعمل الموكول إليها ، فأراد هو أن يلاحظ أن ذلك لم يكن الشأن فيما يختص بفلسطين وقد وقفت بها الهيئة عند نظام الانتداب حتى الآن فى حين قد تمشت الأجزاء العثمانيـة المنفصلة

الأخرى — وفلسطين لا تقل عنها حالا — إلى الاستقلال الذى حظيت به العراق وسوريا ولبنان وشرق الأردن .

حكاية ايران

وإنها حقاً لحكاية ! خلاف قام بين الحكومتين الايرانية والسوفيتية ، أخذ الطرفان فى معالجته بالوسائل الدبلوماسية ، ثم أذيع فى دهاليز الأمم المتحدة فى لندن أنه سيعرض على مجلس الأمن لمعالجته . ثم ساد الجو شىء من التردد ، ثم خرج الوفد الايرانى من تردده ورفع الأمر إلى الهيئة . وما إن تم هذا الاجراء حتى سقطت الحكومة فى طهران وبعثت الحكومة الجديدة للوفد الايرانى فى لندن بعدم إمعان السير لدى مجلس الأمن وبالاتجاه شطر التفاهم مع الوفد السوفيتى على إجراءات استمرار المفاوضات الثنائية بين الدولتين . وجرى العمل على هذا المنوال ولاح فى الأفق بادرة من بوادر خيبة الأمل عند الانجلوسكسونيين . ثم جاءت الدورة الثانية وقيل إن المجلس سينظر فى الخلاف ، وطلب مندوب الاتحاد السوفيتى إرجاء النظر إلى اليوم العاشر من شهر أبريل ، إذ يحسب اتفاقا سيعقد بين الطرفين قبل هذا التاريخ فيوفر على المجلس عناءه . لكن المجلس لم يقبل العرض ، فانسحب المندوب السوفيتى ولم يتمكن المجلس من إصدار قرار فى الخلاف . وقبل أن يجىء اليوم العاشر من ابريل أعلنت طهران وأعلنت موسكو أحكام اتفاق تم بينهما ، ومن أهم موضوعاته تأسيس شركة روسية إيرانية لاستخراج البترول فى إحدى المناطق الايرانية الشمالية . وأعلنت روسيا أنها ستجلو عن كل ما تحتله من إيران قبل اليوم السادس من شهر مايو وطلب مندوبها عدم النظر فى الخلاف الروسى الايرانى لأنه قد سوى بما عقد بين الطرفين من اتفاق جديد . لكن المجلس أصر على إبقاء الخلاف فى جدول الأعمال . وتقدم المندوب الايرانى الأول الذى كان المجلس قد استمع إليه طويلا حين كان يدلى بمؤاخذات إيران للاتحاد السوفيتى ، تقدم هو ذاته بطلب سحب الشكوى الايرانية من حظيرة مجلس الأمن لأن إيران واثقة الثقة كلها من احترام روسيا لوعدها الخاص بتمام الجلاء فى الموعد الذى ضربته . لكن المجلس يأبى إلا أن تكون أمامه شكوى ويريد أن يحتفظ بالأمر حتى يتم الجلاء فعلا ، وحتى تطلعه الحكومتان على تفصيل ما تم بينهما من اتفاق ، وهو الاتفاق على البترول . . . وهو بيت القصيد !

فرانكو

وأمام المجلس مشكلة مستعصية أخرى . وهى مشكلة فرانكو وما يفرضه على أسبانيا من نظام فاشى . وقد ضجت فرنسا — وهى جارة لأسبانيا — وناجت بريتانيا العظمى والولايات المتحدة حتى تقطعا علاقاتهما بأسبانيا الفاشية ، فتلكأتا . أما روسيا فقاطعة علاقاتها من قبل الحرب العالمية الثانية . فلما ضاق صدر فرنسا طلبت إلى الحليفتين الانجلوسكسونيتين أن ترفعا معها الأمر إلى هيئة الأمم المتحدة . فمالتا إلى القول بعدم اختصاص هذه الهيئة ؛ لأن نظام فرانكو الداخلى لا يهدد السلم العالمى بخطر . فجاءت بولونيا — وهى واحدة من أعضاء مجلس الأمن — تعلن أن لديها من الأدلة ما يقطع بأن الجنرال فرانكو يؤوى فى

أسبانيا جماعة من العلماء الألمان ويهيء لهم أسباب العمل فى سبيل القنبلة الذرية ، فأسمع هذا الدوى الولايات المتحدة وأمالها بعض الشيء إلى ضرورة النظر فى أمر هذا الخطر . وعقد المجلس جلسته وتقدمت بولونيا بطلبها . وبدأت المناقشات فى الاجراءات : هل يعرض الأمر أو لا يعرض ؟ ووضح موقف الاتحاد السوفيتى وفرنسا والمكسيك وهو موقف تأييد لبولونيا ، ووضح موقف الولايات المتحدة وبريتانيا العظمى وهولندا والبرازيل مؤيدة لرفض الطلب البولونى ، وقيل إن الصين قد تميل مع الأولين وإن استراليا قد تميل مع الآخرين ، وإذن فسيكون صوت مصر الذى لم يبد ولن يبدى إلا آخر الأمر لاحتلال صاحبه منصب الرياسة فى هذه الدورة هو المرجح بين الاتجاهين .

ومهما يكن من أمر ما سيكون من قرار مجلس الأمن بخصوص الموقف من الاتفاق الروسى الايرانى وبخصوص الموقف من الخلاف البولونى الأسبانى ، فان الواضح أن المواقف كلها تخفى وراءها نزاعاً كامناً بين السلافيين والانجلوسكسونيين . وهما الكتلتان اللتان تقتسمان النفوذ الآن فى العالم .

معاهدة شرق الاردن

كان مستر بيفن وزير الخارجية البريتانية قد أعلن حين عرض لسياسة دولته بشأن الانتدابات فى خطابه الافتتاحى بهيئة الأمم المتحدة أن شرق الأردن سيحظى قريباً بسيادته واستقلاله . وقد أعلن خلال الشهر المنقضى نبأ معاهدة عقدت بين الأمير عبد الله والحكومة الانجليزية ونبأ ملاحق لهذه المعاهدة بخاصة .

وقد أعلن فى المعاهدة مبدأ استقلال شرق الأردن وسيادته ، ومبدأ تحالف عسكرى يقوم بين الدولة المستقلة الجديدة وبريتانيا العظمى العتيدة . وتنطق نصوص التحالف وأحكام الملحقات بأنها تجعل من شرق الأردن مستودعاً للقوات البريتانية وللأسلحة البريتانية فى الشرق الأوسط . والمقول أن الحركة البريتانية منطوية على استخلاص شرق الأردن من مشاكل الانتداب والوصاية المعقدة باعلانه مستقلا عن فلسطين حتى يخلو الجو دون مراقبة أحد ودون مساهمة شريك . وقد قوبلت المعاهدة الأردنية بشيء من الوجوم فى البلاد العربية وبصريح الاحتجاج من الحكومة اللبنانية التى طالبت جامعة الدول العربية بمشاركتها فى هذا الاحتجاج .

الجلاء عن سوريا

وتم جلاء الجنود الأجنبية عن سوريا دون أن تكون مقيدة بأحكام انتداب أو وصاية أو معاهدة ودون أن تكون خاضعة لغير التزامات ميثاق هيئة الأمم المتحدة ، فحظيت بالاستقلال الصحيح والسيادة غير المشوبة . فنالت ما تستحقه رجولتها وتستأهله حكمة قادتها وقد عرفوا أن يصمدوا للمغريات وعرفوا أن يفيدوا من تقابل التيارات الدولية وتلاطم أمواجها ، فخاضوا لججها ولم يتهيبوا أن يصيبهم منها بلل . واستطاعوا باقدامهم وحنكتهم أن يجعلوا المسألة السورية من المسائل التى كانت موضع بحث اجتماع الأقطاب فى بوتسدام .

المفاوضات فى مصر

وقد وصلت هيئة المفاوضة البريطانية — ما عدا رئيسها مستر ايدن وزير الخارجية — إلى مصر قصد التفاوض مع الحكومة المصرية فى سبيل إعادة النظر فى المعاهدة المصرية الانجليزية المعقودة بين الطرفين فى سنة ١٩٣٦ .

ونؤثر ألا نسبق الحوادث فنستبق التعليق على هذه المفاوضات إلى الشهرية المقبلة .

محمود عزمى

شهرية الفن

الصالون السادس والعشرون للقاهرة

يجدر بى أن أبادر فأقول إن الذى يزور الصالون السادس والعشرين للقاهرة سيخيب أمله إن كان قد ذهب إليه وفى نفسه أمل كبير أو حتى مجرد استعداد حسن . وإذا استثنينا بعض الآثار النادرة جداً فان البقية فى مجموعها رديئة رداءة مؤلمة . فإلام ترجع هذه الرداءة ؟ أليس فى مصر فنانون مجيدون ؟ بلى ! فان ذلك يبدو فى وضوح فى الآثار القليلة التى أشير إليها فيما بعد ، وفى المعارض الفردية ، وفنانو هذه المعارض الأخيرة لم يمثلوا جميعا فى الصالون . فهل كان هذا الاغفال من قبلهم أو من قبل لجنة الاختيار ؟ وإذ أفكر فى المصورين الذين لم تعرض لهم آثار يتجه ذهنى إلى أحمد صبرى ، وبيبى مارتان ، ولوسيين إيرون ، وحامد عبد الله . ثم لماذا لم يمثل عبد القادر رزق بين المثالين العارضين فى الصالون ؟ وهذا الأمر من دواعى الأسف الشديد ، سواء أكان ذلك بالقياس إلى الجمهور الذى لايتاح له الاطلاع اطلاعاً تاماً — فى حدود المستطاع — على حالة الفن فى مصر ، أم بالقياس إلى الفنانين أنفسهم . فانه (وأنا خجلى من تكرار مثل هذا الفكرة الدارجة) إذا كان من المرغوب فيه أن يأوى الفنان إلى العزلة لمصلحة فنه ، فان نتيجة هذه العزلة ينبغى على العكس من ذلك أن تعرض على ذوق الجمهور الذى تختلف درجة ثقافته الفنية زيادة أو نقصاناً ، وقد تكون ، مع الأسف ، أقرب إلى النقصان . وإذا كان للجنة أن تختار بين الآثار فيجب على الأقل أن يكون هناك مجال للاختيار .

والآن لنصل إلى الآثار المعروضة . والرداءة البادية ترجع فيما يخيل إلىّ إلى عوامل متعددة ، ولابادر بذكر أقبح هذه العوامل حتى أخلص منه ، وهو الادعاء ، هذا العيب المحبب إلى كثير من سكان بلادنا الشرقية ، والذى يزين لكل واحد مقدرة فائقة فى نفسه . هذا إلى أنه كثيراً ما تخلو الآثار من فكرة ، أعنى بذلك أنه يجب أن يكون وراء كل أثر شئ من الالهام والحب اللذين يدفعانه إلى أن يولد ، ثم إلى الصناعة العلمية الفنية التى تسمح

له بأن يوجد ، وعلى الفكرة التى تجعله يحيا . أما فى معظم الآثار المعروضة فان وجدت صناعة فنية فليس فيها إلهام أو روح ، وإذا وجد الروح . . . وأظن أنك قد فهمت عنى ما أريد . ثم إن بعض هذه الآثار لا تشتمل على واحد من هذه الخصال الأربع . فما الداعى إذن إلى التصوير والحفر ؟ وما الذى يدعو إلى أن تمس الفن أيد لا تدين له بالاجلال ؟ ثم لماذا تفرض على الجمهور هذه المناظر الرديئة الكريهة ؟ وإذا كانت هناك بيئة ينبغى أن تقصى عنها الرداءة فهى بلا شك بيئة الفن أكثر من سواها .

وهذه بعض الانطباعات الشخصية البحتة عن تلك الآثار ، عرضتها متتبعة ترقيم الفهرس : أبدأ برسمين لعبد العزيز درويش ، وهما « طاحنة الحبوب » و « منظر » (رقم ٤ و ٥) وهو عمل واضح مضئ يبدو فيه الاجتهاد ، كما ينبعث من هذه الخطوط شعور بتنفس هادئ وجهد فى غير عناء وصناعة متقنة . ومن دواعى الابتهاج أن نلقى أخيراً منظراً مصرياً لا تصدم فيه الألوان العنيفة التى كثيراً ما تنسب إلى جونا وإلى ضوئه الناصع ، وهو فى لوحة الآنسة جاكلين جيناند «عاصفة على بولاق» تنبعث منها عذوبة مجهدة . ولوحة مسيو جوليان «الميناء» غاية فى النقاء وفى التوازن ، وهى بدقتها الجلية الواضحة تستوقف الزائر أمام الأحجام المتينة الرصينة التى تبدو على سفنه ، تلك السفن التى يشعر الانسان مع ذلك بأنها تكاد تنشط . و« المنظر اللبنانى » الذى تعرضه تحية وهبه يعيد إلينا ذكريات حلوة للعطلات الصيفية التى قضيناها فى لبنان . ولكن فيها شيئاً من الضعف ، فهى ابتسامة هافتة تريد التعبير عن الضحكة العريضة المزدهرة للأرض الحمراء بين أشجار الصنوبر السوداء . وواضح أن رسوم السيدة سالا رسوتا تبين عن مقدرة كبيرة فى الصناعة الفنية ، ولكن لماذا لا نشعر بأى جاذبية ، بأى شئ يستهوينا فى هذه الآثار ذات الصناعة الماهرة ؟

رسوم كاريكاتورية من نوع جديد لطاهر العمرى . أهى ظريفة حقاً ؟ ثم إنى أعترف بأن بعض الجراءة دفعنى إلى التردد : أأبتسم للآثار المعروضة ، أم لعنواناتها التى تشبه أن تكون أحكاما مقررة ؟ ولينظر القارئ : « مهندس ذو مستقبل » (رقم ٣١٨) ، « مصور سينما قدير » (رقم ٣٠٣) ، « سياسى ممتاز يشرف بلاده » .

أما فى الحفر فهناك قطعة بديعة لمدام أنا بارفيس بالساماديجيڤا : « صدى » محفورة على الخشب . فالمادة التى استعملتها غاية فى الروعة (ولماذا لا يحفر فنانونا على الخشب أكثر مما تعودوا إلى الآن ؟) هذا إلى أن القطعة فتنتنا واسترعت اهتمامنا لوقت طويل : يالها من رشاقة ، ومن قوة دفينة ، ومن موهبة رفيعة !

وقد عرضت فى الطابق الأول بعض آثار لطلبة مدرسة الفنون الجميلة العليا ولطالبات معهد الفنون الجميلة للبنات . ولن يستطيع إلا الفنيون الاخصائيون أن يحكموا حكما صحيحا على القيمة المستقبلة لكل من هذه الآثار التى كثيراً ما ينعكس فيها نفس النموذج . وأظن أنى لن أغضب أحداً إن أخذت بعض الشئ على هذه الآثار طابعها الأكاديمى . على أن هناك استثناء : فقد استرعت نظرى ، ثم اجتذبتنى مجموعة من ثلاثة صور صغيرة (وأظنها خالية من التوقيع) كانت من قوة الايحاء بحيث دفعتنى إلى أن أقول : « إنما هذا تصوير لوقائع كتاب الأيام » . وحين قرأت بعد ذلك النص الذى يصحب كل صورة استوثقت من صحة المصدر الذى أوحى بها . ولم أستطع ، كما ذكرت ، أن أتبين اسم هذه الفتاة الناشئة التى يرجع إليها الايحاء الممتع بفضل هذه الصور الجميلة الثلاث للملأى بالفكاهة الباسمة الخفيفة ، والشعور العميق

بل (ولعلى لم أخطئ فى تقديرى) والاحترام . وإنى واثقة أن هذه الحاسة المدركة ستتحول على أثر العمل والجهد إلى مقدرة رائعة .

ولا يسعنى إلا أن أبدى أسفى من أنى لم أدون هنا إلا مآخذ أخشى ان أكون قد تشددت فيها بعض الشئ . على أنى واثقة من أنه لن ينظر إليها إلا على أنها تعبير عما تجد فتاة مصرية من الرغبة الصادقة الشديدة فى أن يظهر ما لمواطنيها من مزايا فنية لاشك فيها .

معرض صور الرسام حامد عبد الله
(قاعة فريدمان)

[الفن هو اللغز الأبدى . إن سعيت إليه
حله ، وإلا افترسك .]

انطوان برودين

العمل ، والبحث ، والمشاكل التى تعرض باستمرار أمام الذهن القلق الفنان ، والحل لهذه المشاكل الذى يجىء مستحيياً وجلا بادئ الأمر ، ثم يتثبت ، وقد يطرحه الفنان جانباً بعد ذلك ، هذه هى الانطباعات التى توحيها لأول وهلة الآثار الفنية التى يعرضها الأستاذ حامد عبد الله . ثم إذ نأخذ فى تعمق هذا الفن شيئاً فشيئاً لا تلبث أن تقوم فينا رويداً رويداً ألوان شتى من الانفعال والتفكير والرضا بل الامتاع . تظهر هذه المشاعر متوالية ، كأنها تتتابع فى انتظام .

على أن هذه الآثار الفنية ليست كلها هدوءاً وصفاء (ولو كانت كذلك لما وجد فن) . وليست هى من ناحية أخرى ذلك القلق المسرف الذى يوجده الاضطراب ، ولا هى التوازن والتناسق البالغين حد الكمال . إنما هى طريق تتخللها بعض نترات حلوة جذابة ، وكثيراً ما يكون مسلكها شاقاً وعراً ، ولكنها تشعر الانسان أنها تسمو فى عزم نحو تحقيق غرض معين ، فهل أصبح اللغز وشيك الحل ؟

أن يكون العمل والجهد بل الاخفاق من الضرورات اللازمة للفنان ، هذا كلام مألوف نعيده معتذرين . ولكنه يصور بصفة خاصة حقيقة تبدو بشكل جلى واضح فى آثار حامد عبدالله . والذين أتيح لهم أن يتتبعوا جهود هذا الرسام المصرى الشاب لابد أن يكونوا تبينوا فيها رغبته فى التقدم بفنه ، وبخاصة فى معظم الأحيان فى تحقيق هذه الرغبة . وهذا التقدم لا يدل على أنه تنقل بين مذاهب مختلفة فى الفن ، بل يشعر على العكس من ذلك أنه عاون على تثبيت شخصيته وتأكيدها .

وحامد عبد الله فيما أعلم من الرسامين الذين وفقوا فى محاولاتهم لتفهم الاقليم المصرى وتصويره ، سواء انظرنا إلى الناحية المحسوسة لوطننا أم إلى الناحية المعنوية . على أن هذه المحاولات موضع تأملات هذا الرسام وبحوثه . ولأوضح ذلك بعض الشئ سأعرض بعض آرائه . فهو يرى أن فى الجو المصرى عنصرين من شأنهما أن يضعفا حدود الأشياء

وهما الضوء الوهاج والغبار . فالضوء لا يقتصر على أن يسطع ، وكأنه متأجج ، حول صور الأجسام ، ولكنه يشع أيضاً من هذه الأجسام نفسها ، فيكون بذلك عند الحدود التي ترسمها خطوطها شيئاً يشبه الهالة . ويحاول حامد عبد الله أن يعبر عن تألق هذه الهالة ، عن طريق إطار أبيض يديره حول الأجسام التي يصورها . ويتغلب الضوء دائماً على الظل في الصراع الذي يقع بينهما . وتغلبه من القوة والاطلاق بحيث إن التباين في الألوان الذي كثيراً ما يلاحظ في البلاد الأخرى لا يوجد في مصر . ثم يضيف حامد عبد الله إلى ذلك أن الظل الذي صار من جراء ذلك شفافاً إلى حد بعيد ، تزداد رقته فضلا عن ذلك بسبب انعكاس الضوء . ينتج من هذه الظروف الجوية أن المناظر تبدو لنا في أجرامها على بعدين لا على ثلاثة أبعاد . أما البعد الثالث فان حامد عبد الله يعبر عنه بالتشدد في رسم حدود الأجسام ، وهذا التشدد هو الذي سيميز دون غيره بين قيم الأشياء . ومن الخواص التي تتميز بها مصر في رأي هذا الرسام تنقل الضوء تنقلا من شأنه أن يوجد بريقاً في المناظر الطبيعية ، مع احتفاظ هذه المناظر على الرغم من ذلك بشيء من الاستقرار الأبدي . وهذا الاهتزاز الخفيف في السماء البيضاء أو الرمادية ، والتي لا تبدو في الواقع زرقاء على الاطلاق ، هذا الاهتزاز الذي يسعى أصحاب المذهب الانطباعي إلى تصويره عن طريق الوسائل المشهورة عنهم ، يحاول الرسام المصري الشاب أن يصوره في لوحة سماها « الصهد » ، وقد لجأ في ذلك إلى وسيلة تشبه أن تكون تجزئة للون الفولاذي للسماء الذي يضمحل في لونه الأبيض . وعلى ذلك ، فاذا استثنينا ساعات النسق التي صور الرسامون الفرنسيون تدرج ألوانها في براعة ودقة فائقتين ، فان الموضوع في نظر حامد عبد الله يتصل بالضوء أكثر من اتصاله باللون . فاللون ، وقد استعمله في شح على قطعة من الورق تميل إلى الرمادية — كما هي الحال في اللوحة المسماة « نساء أسوان » — هذا اللون سيعطى إضاءة كافية ، وهذا ينتهي بي إلى الآثار التي استرعت إعجابي بصفة خاصة ، وأعني بها الرسوم بالقلم . وهذه الرسوم كثيرة ، يكفي عددها ليشعر النظارة بما يغلب على هذا المعرض ، وهو الاحساس بالعمل الخصب المنتج . ولكنها معروضة بشكل حي لائق لا يراد به جلب النظر . فنحن في معرض ولسنا في مصنع الفنان ، وتعرض فيه آثار هذا الفنان لا مسوداته كما حدث ذلك أحياناً . والعناصر الأساسية التي يتألف منها النص (فان هذه الرسوم ناطقة ، وهي بليغة العبارة ، مؤثرة شديدة التأثير) مرسومة في خط متصل دون أن تضطر التفاصيل الدقيقة ، وقد اقتصر على الضروري منها ، إلى العودة بالقلم فيما رسم . ومما استرعى اهتمامي بصفة خاصة بين اللوحات المتعددة تلك المرقمة ٧٥ . وهي تصور رجلا من سكان أسوان . بدا مظهره ، وهو أظهر من شأنه ، بسبب الطول الذي يمتد به والحيز الذي يشغله في المستطيل الأبيض ، حافظاً لصاحبه كرامة قد يفقده إياها البؤس الأليم الذي حل به والذي صوره الرسام عن طريق شيء من الانحراف في الحركة والمشية . وهناك لوحة أخرى تصور لنا هذه التعاسة التي تضني شعبنا تصويراً مراً ممضاً ، فهي تصور امرأتين يرتسم شكلهما وقد قصفتا ، في منظر طبيعي تصفت فيه المنازل أيضاً بل قصف المسجد نفسه على نفس الهيئة .

ولكن على أن أختتم حديثي وأترك القارئ يستكشف بنفسه هذه الطريق المتعددة المناظر التي أشرت إليها آنفاً . ومن هذه التجربة المستمرة الناشئة من جهة وبصفة خاصة من صلة هذا الرسام بأرض وطنه ، ومن جهة أخرى من اتصاله بأعلام الفن في العالم ، هذا

الاتصال الذى لا ينبغى مطلقاً أن يطغى على نضوج الشخصية المصرية ، وقد يوجد فيما بعد — بسبب هذا الفنان — اتجاه يطلق عليه فى يوم من الأيام اسم «المدرسة المصرية» . ولعل هذا الرسام إذ يستبدل بلفظ « تشيكى » لفظ « مصرى » يكون أجاب دون أن يدرى النداء الذى توجه به بورديل فى نهاية المحاضرة التى ألقاها بتاريخ أول مارس سنة ١٩٠٩ فى النادى الأهلى ببراج حيث قال : « ... أيها الفنانون ، أصدقائى ! زملائى ! كونوا تشيكيين وابقوا تشيكيين فى آثاركم . فنظر زوجاتكن يبتسمن لكم وأخواتكم يسعين إليكم ، أروع من كل المشاهد المألوفة التى تلمتموها . أيها الفنانون الشباب ، معركتكم أنتم ، إلى جانب مشرعيكم وإلى جانب علمائكم ، هى البحث عن الحقيقة . وعليكم فى هذا أن تنحتوا روح شعبكم . . . »

أمينة طه حسين

شهرية المسرح

سلاح اليوم

ليس الأستاذ نجيب الريحانى فى حاجة إلى أن يعرف إلى الناس ولا إلى أن يهدى إليه الثناء ، فقد عرفه الناس كأحسن ما يعرف الفنان البارع ، وأهدى إليه الثناء حتى لم يدر ماذا يصنع به . ولست أكتب هذه الكلمة وأنا على جناح سفر إلا لأسجل إعجابى الذى لا حد له بالقصة الأخيرة التى يعرضها الأستاذ نجيب الريحانى على النظارة فى هـذه الأيام . فسلاح اليوم قصة طريفة حقاً . والغريب أن طرافتها تأتى من أنها لا تعرض على الناس شيئاً مبتكراً وإنما تعرض عليهم حياتهم التى يحيونها فى كل يوم . وهى من هذه الناحية درس من أقوم الدروس التى تلقى على الناس ، لا فى الأخلاق وحدها ، بل فى تصوير الحياة الاجتماعية وما تشتمل عليه من عناصر الفساد التى لا سبيل معها إلى بقاء أو إلى استقرار . فسلاح اليوم فى قصة الأستاذ الريحانى ليس جداً ، ولا جهداً ، ولا كفاية ، ولا عملا خصباً منتجاً ، ولا صدقاً فى القول ، ولا إخلاصاً فى العمل ، ولا وفاء للصـديق ، ولا اعترافاً للجميل ، وإنما هو كل ما يناقض هذه الخصال من الأخلاق . وهو ليس سلاحاً يصطنعه فريق من الناس دون فريق ولا طبقة منهم دون طبقة ، وإنما هو سلاح شائع يصطنعه كل من قدر عليه ، والناس جميعاً يحرصون على أن يقدروا عليه ويصطنعوه ، لأنهم جميعاً يريدون أن يغـيروا من حالهم ويخرجوا عن أطوارهم وينزلوا منازل أرقى من المنازل التى قدرت لهم . يريدون أن يصلوا ، ولا يترددون فى سلوك السبيل التى تنتهى بهم إلى ما يريدون مهما تكن شائكة ومعوجة ، بل هم يسلكون السبل الشائكة المعوجة لأنها وحدها التى توصل فى سرعة إلى ما يريد الوصوليون . فالصديق وهو من الطبقة الدنيـا يتملق صديقه الموظف فى أحد المصارف حتى يجد له عملا فى المصرف الذى هو موظف فيـه . ثم لا يلبث أن يخونه فى صراحة ووقاحة لا حد لها ، وهو يأخـذ عمله ، ويستهوى صديقته ، ولا يزال يرقى من خداع إلى خداع ومن كيد إلى كيد ، ويرقى مع ذلك من درجة إلى درجة ومن خيـانة إلى خيانة حتى يخون مدير المصرف ، ويشترى

منه مصرفه بثمن بخس ، وقد رشا أعضاء مجلس الادارة جميعاً . فهو يعبث ما شاء أن يعبث ويفسد ما وجد إلى الفساد سبيلا ، وينعم من أجل ذلك بلذات الحياة كلها لا يستثنى منها شيئاً لأنه لا يهمل من وسائلها شيئا . وهو فى أثناء ذلك لا يجد من الناس إلا ثناء وحمداً . فاذا استكشف أحـد بعض أوزاره وهم أن يعرضها على مجلس الادارة لم يجد من يسمع له أو يحفل به ، وإنما وجد الاعراض والازدراء والتهديد بالوقوف أمام القضاء . وليس هذا إلا رسما يسيراً قصيراً مقارباً للموضوع الذى تدور القصة حوله ؛ فبراعة القصص عند الأستاذ الريحانى لا تأتى من الموضوع وحده ، وإنما تأتى من الحوار الذى يصور العقل المصرى على اختلاف طبقات المصريين أدق تصوير وأصدقه ، ومن التمثيل الذى يخلب النظارة منذ المنظر الأول ، ومن أصوات الممثلين ونغاتهم حين يتكلمون ، ومن أشياء كثيرة لا سبيل إلى تصويرها فى هذا الحديث القصير . والأستاذ الريحانى معلم يلقى دروسه الاجتماعية والخلقية على المصريين منذ أكثر من ربع قرن ، وهو فى الوقت نفسه صاحب فكاهة رائعة حلوة مرة فى وقت واحد ، يسلى المصريين عن همومهم وأحزانهم العامة والخاصة منـذ أكثر من ربع قرن أيضاً . فليعرف المصريون له ذلك وليقدروه قدره وما أراهم يفعلون . وإنه لمن المؤلم حقاً أن ينفق الأستاذ الريحانى حياته كلها معلماً للمصريين ومسلياً لهم عن الهموم والأحزان ، وأن يؤثر المصريون أنفسهم بدروســه وفكاهته دون أن يجد من الدولة عناية أو تشجيعاً . والغريب أن الدولة تفكر فى إنشاء جامعة شعبية . ولتعذرنى الدولة إذا قلت إن مسرح الأستاذ الريحانى هو خير قسم من أقسام هذه الجامعة الشعبية .

طه حسين

تاج المرأة تأليف ألكسندر دوماس الابن (١)

لسنا ندرى لمـاذا كانت الفرقة المصرية فى اختيارها للأدب المسرحى الغربى مشغوفة بالمسرحيات العتيقة التى لا يقبل عليها شباب اليوم المثقف ، غير حافلة بالأدب المسرحى الحديث مع غناه وملاءمته للعقليـة الحاضرة ومشكلات عصرنا . ويبدو لمن يقرأ برامجها أن المسرح الفرنسى مثلا لا يقدم إلا هذه القصص القديمة التى نسيها الناس فى فرنسا مما كتب ألكسندر دوماس أو فكتور هوجو أو كازمير دلاڤينى . لعل الفرقة ترمى إلى النجاح السهل المضمون الذى لا يتطلب عناء أو يكلف مجهوداً بتقديم مسرحيات تلائم ذوق الجمهور المصرى . ولكن هل واجب الفرقة المصرية أن تخضع لذوق الجماهير وتنزل بفنهـا إلى حيث ترضيــه ؟ أليس من واجبها أن تنهض بتربية ذوق النظارة فتتخذ من المسرح أداة للتثقيف المحبب الذى لا يخلو من الترفيه والتسلية ؟

أين نحن اليوم من مسرح ألكسندر دوماس ، هذا المسرح الذى بلى وأصبحت موضوعاته عتيقة لا يحفل بها المعاصرون ؟ أو لا تزال قضية المرأة من الخطورة بحيث رآها ألكســندر دوماس بل بحيث رآها قاسم أمين بعدما ظفرت المرأة بما ظفرت من الحقوق الاجتماعية فى أكثر أقطار الأرض ، ومن الحقوق السياسية فى كثير جداً من هذه الأقطار ؟ أو لا تزال نحن فى

(١) Alexandre Dumas fils, *Denise.*

حاجة إلى أن ندرس الآن مشكلة امرأة غرر بها شاب ثم غدر بها ؟ إن أى إنسان متمدن يعطف على هؤلاء النسوة اللاتى أخطأن لا بدافع الرذيلة ولكن لأن آثماً غرر بهن بعد أن وعدهن بالزواج . وإذا كانت الفرقة المصرية قد شعرت بأن المجتمع المصرى فى حاجة إلى مثل هذه الدراسات الأخلاقية ، فقد كان عليها أن تختار مسرحية أخرى غير مملة كالتى اختارتها . فنصيب الحوادث فى تلك المسرحية ضئيل جداً ؛ لأن المؤلف أراد أن يجعل منها دفاعاً عن المرأة ، فجاءت فصولها الأربعة نقاشاً متصلا ومنازعات بين الأشخاص على هذه المرأة التى زلت . وقد كان الجدال قيما عند نظارة القرن الماضى ؛ أما الآن فانه يعرض علينا بديهيات نرى الاطالة فيها لغواً لا حاجة إليه .

ولعل ما يحبب الفرقة المصرية فى هذه الروايات أنها لا تكلف عناء كبيراً فى الاخراج . فهى لا تتطلب كالمسرحيات الحديثة ابتكاراً وتجديداً يحتاجان إلى اطلاع متصل وثقافة واسعة ، وإنما يكفى أن يرجع المخرج إلى ما نشر من مذكرات عن المسرح فيها من البيانات عن الاخراج والتمثيل ما يغنى عن الابتكار والتجديد .

فاذا كانت الفرقة المصرية تريد أن تنهض بالمسرح والموسيقا — وهذا على ما يبدو هو غرضها الأول — فيجب عليها أن تخلع هذا الثوب الرث الذى تحرص على ارتدائه وأن تمعن النظر فى اختيار مسرحياتها ومخرجيها وممثليها ، وأن يكون بين أولئك وهؤلاء تعاون متين أساسه خدمة الفن . ففى ذلك النفع كل النفع للفرقة خاصة ولمصر عامة .

ومهما يكن من أمر فان الفرقة المصرية لها حسنات أخرى تستحق الثناء عليها ؛ لأنها أنقذت الجمهور من روايات مسرحية دامية لا ترتاح إليها نفوسنا ، ومن تمثيل لا يستسيغه الذوق . وقد يكون فى تمثيل بعض أعضاء الفرقة المصرية تكلف فى الايماء وعنف فى التعبير ، إلا أن البعض الآخر يلازم أسلوباً رفيعاً فى أداء أدوارهم وخاصة فى مسرحية تاج المرأة . ونذكر من هؤلاء الأستاذ سراج منير والسيدة إحسان شريف .

أما عن الترجمة فجاءت سهلة يسيرة ، ليس فى الأسلوب ما يعجز النظارة عن تتبع حوادث المسرحية .

س. ك.

شهرية السينما

الماضى المجهول (شركة أفلام نفرتيتى)

إن فى عالم السينما فى مصر أناسا يتخيلون أن فى مقدورهم الجمع بين التاليف والاخراج والتمثيل . والجمع بين هذه الأمور الثلاثة يتطلب عبقرية ومواهب قلما تجتمع لواحد من الناس ولا سيما فى بلد كمصر ما زال حديث عهد بهذا الفن . ومع ذلك رأينا فى الموسم الأخير مؤلفين يخرجون قصصهم ويمثلونها . ومن هؤلاء نذكر الأستاذ احمد سالم مؤلف ومخرج وممثل فيلم « الماضى المجهول » . ولقد غالى أحمد سالم فى تقدير مواهبه وعبقريته حينما قام بهذه الأدوار الثلاثة معا ، فلم يبلغ ما أراد من الفوز .

ولنلاحظ أولا ان أحمد سالم قد أساء إلى الفن وإلى المهنة فى وقت واحد . فهو لم يبتكر قصته وإنما أغار على فيلم أمريكى غير فيه بعض الشىء فأفسده ثم أضافه إلى نفسه ، فتورط بذلك فى خطيئة مضاعفة . ولست أدرى متى يشعر هذا المؤلف وأمثاله بأن للفن وللمهنة وللجمهور حقوقاً يجب أن تحترم وكرامة يجب أن ترعى .

والفيلم الذى اغتصبه أحمد سالم وشوهه وسماه « الماضى المجهول » هو «عودة الأسير» . وهو فيلم لم ينسه الجمهور المصرى بعد ، وقد لقى نجاحا كبيراً . وقد لقى أيضاً فيلم «الماضى المجهول» نجاحا كبيراً ، ولكن عند طبقة من المشاهدين تنقصهم الثقافة الكافية ليتبينوا الصالح من الفاسد والجيد من الردىء . وما نؤاخذ القصة به من الاضطراب والاحالة نجمله فيما يلى :

١ — يعود الأسير فى الفيلم الأمريكى وقد فقد الذاكرة بالفعل . أما مريض هذه القصة فلم يفقدها ، ولكن الطبيب يتنبأ له بفقدها قبل أن يتبين حاله بالضبط ويتحقق من أعراض المرض . وفى الأطباء قوم مهرة بارعون ، ولكن الطب شىء والكهانة واختراق حجب الغيب شىء آخر .

٢ — لا يكاد هذا المصاب يدخل المستشفى حتى تكلف به إحدى الممرضات كلفاً شديداً . وقد أهمل المؤلف أن يرينا متى نشأ هذا الحب وكيف نشأ ، وهل كان هذا الحب فى بادىء الأمر شفقة ثم تطورت هذه الشفقة إلى هذا الكلف الشديد أم هل نشأ حباً من أول الأمر ؟ ولنلاحظ أن الفتاة فى الفيلم الأمريكى لا تحبه إلا بعد أن تعنى به عناية متصلة وتألفه إلفاً طويلا . فالمنير المصرى يسبق الحوادث هنا كما سبقها فى الملاحظة الأولى وهو بسبق الحوادث هنا يخالف طبيعة الأشياء ويفسد الفيلم الأمريكى .

٣ — عند ما شفى هذا المصاب وعادت إليه ذاكرته رجع إلى منزله . ودبر له عمه مؤامرة ليزوجه ابنته . ومن الغريب أن أحمد سالم يخفق فى تدبير مثل هذه المؤامرات ! دخلت ابنة العم غرفة الشاب وخلعت ثوبها وأخذت تنظفه ، وبينما كانت فى هذا الوضع نادت الشاب . وما كاد يدخل الغرفة حتى تظاهرت بالسقوط فأسرع إليها وأسندها . وفى اللحظة نفسها دخل أبو الفتاة ورأى ابنته فى أحضان ابن عمها ، فغضب ، وثار ثم عاوده الهدوء فجأة والتمس للشابين عذراً وهو أنهما متحابان بلا شك على غير علم منه ، وخرج منتبطاً ليهيىء حفلة العرس . كل هذا والشاب لم يحاول أن يدافع عن موقفه أو يفسره ، وقبل أن يتزوج من فتاة لا يحبها دون أن يدفعه إلى ذلك أى دافع منطقى .

٤ — أظهر المؤلف الأسرة المصرية فى صورة غير كريمة وغير مطابقة للواقع لحسن حظ المصريين : فالفتاة المصرية لعوب ، والأب المصرى متهاون يدفع ابنته إلى الرذيلة ، والعم سفيه لا يأنف من تبديد أموال ابن أخيه .

ولم يكن الاخراج بأحسن من التأليف . وكيف لا يكون كذلك والمؤلف والمخرج هما شخص واحد ! فأحمد سالم المخرج يضع مكتب باشكاتب الدائرة فى بهو الفيلا الأنيقة التى يقطنها بطل القصة . وهذا ينافى الذوق السليم ولا يمكن أن يرى فى منزل راق محترم . ومما يدعو إلى الدهشة أن تغنى ممرضة فى عنبر العمليات مع وجود مرضى فى حالة خطيرة . وقد أراد المخرج أيضاً أن يظهر لنا دقته التى لا تفوقها دقة فى الاخراج ، فاستبقى منظر عملية جراحية أكثر من خمس عشرة دقيقة مع أن هذه العملية ليست بذات شأن فى حوادث القصة .

وقد شغل الاخراج أحمد سالم عن العناية بتمثيله وتمثيل من عاونوه فى هذا الشريط اللهم إلا اثنين أعتقد أنهما فى غنى عن إرشادات أحمد سالم التمثيلية ، وهما بشارة واكيم الممثل

الموهوب الذى اشتهر فى الأدوار المضحكة على المسرح وفى السينما ؛ والثانى محمد كامل ، وقد اعتدنا أن نراه فى أدوار الخادم أو البواب السودانى .

هذا هو الفيلم الذى يعرض منذ ثلاثة أسابيع على جمهور مشغوف به لسذاجته ، مع أنه فى أشد الاحتياج إلى من يرشده ويثقفه ويرتفع به إلى حيث يستطيع المراقبة والنقد لا إلى من يستغل جهله وسذاجته ليظفر منه بهذا النجاح الرخيص الذى يضر أكثر مما ينفع .

امرأة سقطت (اتحاد الأفلام الفرنسية)(١)

كثر إنتاج الأفلام فى هذا الوقت حتى هبط مستواها وقيمتها هبوطاً ملموسا . ونرى هذه الظاهرة واضحة فى الأفلام المصرية والفرنسية والأمريكية على السواء . فالسينما الفرنسية مثلا لم تعرض علينا إلا فيلمين لهما قيمة فنية ، وهما « العودة الأبدية » و « البارون الشبح » ، وأفلامها الأخرى مثل « حمى » أو « الخليلة الكاذبة » أو « امرأة سقطت » لا تدانى هذين الفيلمين تأليفاً وإخراجا وتمثيلا . ومن الانصاف أن نذكر أن الاخير كان أحسنها تمثيلا ، ولو أن قصته ذات حوادث ملفقة لا يستسيغها العقل . ولا عجب فى ذلك ما دام مؤلفها هو ألفريد ماشار الكاتب الفرنسى الذى اشتهر بنوع من الأدب لا ترتاح إليه النفوس السليمة .

وفيلم « امرأة سقطت » يسوق إلينا قصة فتاة اسمها مارى ، أحبت فتى يدعى جان يسكن حانة القرية . كانا يتقابلان أيام الآحاد فى الحانة ويمضيان هذا اليوم منفردين يبنيان قصوراً من الأمل . وفى ذات يوم أنبأت الفتاة عشيقها أنها حامل . ففرح جان لهذا الخبر ووعدها بالزواج بعد عودته من رحلة كانت ستقوم بها الباخرة التى يعمل عليها بحاراً . وما كادت الفتاة تنصرف حتى اضطر جان إلى السفر سريعاً لأن السفينة بكرت بالرحيل . ولم ينس أن يترك لمحبوبته خطابا مع خادمة الحانة ينبئها فيه بما حدث . وكانت خادمة الحانة هذه تهيم بالشاب هياماً شديداً ، فأخفت الخطاب كما أخفت سائر الرسائل التى بعث بها جان إلى مارى أثناء رحلته الطويلة . ولما رأت مارى أن عشيقها تركها دون أن يبدى لها سببا ، وأنه لم يرسل إليها أى كتاب اعتقدت أنه غدر بها . فلما حان موعد وضعها تركت منزل أمها وهربت .

عاد جان إلى قريته ، وبحث فى غير طائل عن مارى فلم يجدها ؛ لأنها كانت قد سافرت إلى باريس حيث تزوجت من رجل ثرى كان يعطف عليها وعلى ابنتها عطفاً شديداً . وجاءت الحرب فاشترك فيها الزوج . وعند الهدنة عاد إلى منزله ومعه رفيق قد أنقذه من موت محقق أثناء إحدى المعارك ، ولم يكن هذا الرفيق سوى جان . التقى العاشقان بعد هذا الفراق الطويل ، فاذا بحبهما على عنفه . لقد شاءت الظروف أن تصفو الأمور بينهما ويتحقق كل منهما أنه لم يغدر بمن أحب . ولكن ما الحل ومارى متزوجة وسعيدة بهذا الزواج ؟ لاشىء سوى التضحية بحبهما .

---

(١) La Femme Perdue (*Consortium du film français*)

والقصة كما هو واضح تافهة جداً ، وظروفها ملفقة . ولولا أن ممثلى الفيلم أجادوا تمثيله لأخفق إخفاقا تاما . قامت مدام رينيه سان سير بدور مارى فأتقنته كل الاتقان ، كانت السعادة تغمرها وهى ذاهبة لمقابلة جان قبيل سفره ، فالابتسامة لا تترك شفتيها والسعادة تبدو فى نبرات صوتها . وسافر جان فانقلبت هذه السعادة بؤساً يفصح عنه وجهها الحزين وعيناها المنكسرتان . وها هى ذى تلتقى معه أخيرا فتنتابها رعدة خفيفة عند رؤيته ويظهر فى ايماءتها الاضطراب ما كانت معه ، وأخيراً هاهى ذى مستسلمة للأقدار راضية بالتضحية فى سبيل زوجها وابنتها . ولم يكن مسيو روجيه دوشين ومسيو جان مورات أقل منهـا إتقاناً فى التمثيل . غير أن أدوارهما بقصرها لم تتح لهم فرصة التجويد مثل ما أتيحت لها .

وما نؤاخذ الشريط به هو رداءة تسجيل الصوت إذ كان أحيانا لا يبـدو واضحا مسموعا . وكذلك كان الأمر فى التصوير .

رشدى كامل

جائزة الكاتب المصرى للقصة

تعتذر دار الكاتب المصرى لعدم استطاعتها نشر نتيجـة مسابقة القصة فى الشهرين القادمين وذلك لسفر الدكتور طه حسين بك إلى الخارج . وستعلن النتيجة فى هذه المسابقة عند عودته .

من كتب الشرق والغرب

شارلوت برونتى وقصة « شيرلى »

[هذا المقـال كتب خاصة للمجلة ، كتبه الأستاذ بونامى دوبريه من أكبر الأدباء الناقدين فى انجلترا ، وقد شغل منصب أستاذ الآداب الانجليزية عدة سنوات بجامعة فؤاد الأول فى عهدها الزاهر .]

يظهر الكتاب المخلصون لفنهم — وشارلوت برونتى كانت مخلصة فى كل عرق من جسدها — فيما يخلقونه من أشخاص خياليين ، تلك الصفة فى بنى البشر التى يعجبون بها أكثر من غيرها من الصفات أو التى يظنون أنها أهم الصفات . لذلك نجد فى قصص شارلوت برونتى شخصاً أو أكثر من الأشخاص فيه من صفة الاحتمال مايكاد يزيد عن مقدور البشر ، وعادة يكون هذا الاحتمال من النوع الصامت ؛ فهم يستطيعون أن يثبتوا لأشد المصـائب مرارة دون أن يتململوا ، إذ يندمجون فيما لهم من فلسفة قاتمة . ونرى مثلا لذلك فى جين إيير فى القصة التى تحمل هذا الاسم ، ولوسى ستو فى قصة « ڤيليت » . على أن الكتاب الذين ارتبطوا إلى عجلة الحياة لسبب ما ارتباطاً لا يسعهم معـه أن يفصلوا بين فنهم وبين تجاربهم ، لا يستطيعون إلا أن يرددوا لحنا واحداً ؛ لذلك نرى أن شارلوت برونتى (وأختها آن كذلك) تكرر دائما قصة المربية المهملة ، أو كما سميت فكرة قصة سندريلا وذلك ما نلاحظه فى « جين إيير » و« ڤيليت » . وفى هذين الكتابين فضلا عن ذلك نجد صفة أخرى من صفات الكتاب الذين لم يروا إلا القليل من التيارات الأساسية فى الحياة شأن آل برونتى . وأقصد بذلك ابتعاد القصة عما يشغل الانسانية بوجه عام ، عن مصالحها ومصادماتها الدنيوية . والسير فى هذا الابتعاد قد يبلغ مدى بعيداً ، فيصير كأنه منظار نستبين به الحقيقة كما فى رواية « مرتفعات وذرنج » لاميلى برونتى . ولكن الأمر يحتاج إلى فن كبير يبلغ مبلغ فن إميلى برونتى حتى يمكن بناء عالم صلب ومفهوم من مجرد اندفاع العاطفة حيث نجد الحياة الجسمانية إنما هى إلا رمز للحياة النفسية ، وليس الجسد إلا غلافا زائلا للروح . ولم تقارب شارلوت هذا المستوى إلا فى قصة « ڤيليت » . على أن هذا الكتاب يحتوى على الكثير مما تنطوى عليه نفسها الدنيوية ، والكثير من الخيال البعيد الذى حاولت به أن تعوض عن الحياة التى جعلت منها سندريلا قلقة لا تتهر وظلت كذلك إلى نهاية حياتها تقريباً .

إن قصة الأخوات برونتى هى من أكبر القصص المؤثرة فى العالم ، وهى تحتوى فوق ذلك على آلام المأساة كما أنها تحمل معها الشعور الحقيقى فى المآسى : وهو أن شيئاً عظيما تغلب عليه شئ شرير أو بليد أو غير صالح . ولكننا نريد أن نتكلم هنا عن كتب شارلوت ولا نريد أن نتعرض لقصتها إلا بقدر ما تلقى ضوءا على كتبها لاسيما قصة « شيرلى » التى تختلف بعض الاختلاف عن كتابيها العظيمين (اماقصة « الأستاذ » فانها لم تبلغ هذه المرتبة) . فمما يسترعى الانظار أولا فى

هذه القصة أنها القصة الوحيدة التي لم تكتبها شارلوت برونتي بضمير المتكلم ، وكأنها تضع كتابا في ترجمة حياتها ، وهذا مما يجعل فارقا بين المؤلف والقصة ويجعل موضوعها أكثر اتساعا . لذلك نجد في شيرلي اتصالا مع عالم الأعمال الخارجي . وهذا الاتصال معدوم أو يكاد يكون معدوما في بقية كتبها حيث نجد مظاهر النشاط الأخرى أو طرق الحياة والعاطفة قائمة في الملف لا تكاد تستبين . أما في هذا الكتاب فإن مشاغل الحياة الدنيا تلعب دورها وتؤثر في حياة الناس الذين يقومون بهذا الدور . فالثورة الصناعية لا تقتصر على أن يظهر دخانها القاتم على قطعة من القماش يقف أمامها المثلون . وليست همهمتها وضجيج آلاتها ، واجتماع العمال المتعطلين الذي يتضورون جوعاً في منتصف الليل ، ونداءات أبواق الجند ، ليست هذه مجرد مناظر مصاحبة . ولكننا نجد البطل هو رجل مشترك فعلا في هذا النضال ، وأن مصير أشخاص آخرين يرتبط ارتباطا كبيراً بما يقع له من حوادث .

وليس معنى ذلك أن الصفات الخاصة بشارلوت برونتي قد أقصيت ، لا ! هذا غير صحيح . إن هذه الصفات قد انمحت في شيء أكثر اتساعا ، وهذا ما يجعل رواية «شيرلي» أسهل في الفهم وأكثر اتصالا بمناظر الحياة عن الروايات الأخرى . فقصة «شيرلي» وحدها بين كتب برونتي التي ينطبق عليها كل الانطباق اسم القصة التي من عملها أن ترسم الهيئة الاجتماعيـة لنفسها وتطلعها على ما تقوم به . ومع ذلك ففيها جميع الصفات الأخرى ، ففي « كارولينا هلستون » قوة الاحتمال الروحية ، وفي «شيرلي» قوة الاحتمال الجسدية ، فهي مثل إميلي برونتي في الحياة تكوي جرحها دون تردد ، إذ يعضها كلب قد يكون مريضاً ، بمكواة من الحديد المحمي بالنار . ونجد في صورة كارولين الفكرة التي قامت عليها قصة سندريللا بعـد أن غيرت شيئاً ما ، ونجد هذه الفكرة وقد نقلت إلى الجنس الخشن في صورة لويس مور ، ونجد فوق ذلك مرة بعـد أخرى ذلك التعارض ، الذي لا تستطيع شارلوت إلا أن ترسمه ، بين الحياة المادية والحياة الروحية . ففي ذلك المنظر الذي رسمته في سواد الليل حين يتجادل مور وهلستون واللوذيون فيما بينهم عن « المال والطعام والحياة » نجد شيرلي وكارولين تنظران إلى ما فوقهما « وحيدتين مع الليل الصديق ونجومه الصامتة وأشجاره الهامسة » . ونرى في صفحات الكتاب ، كما في سائر كتب شارلوت ، تلك الصرخة اليائسة من أجل الحب — لا الحب المخيف الذي نجده في قصة « مرتفعات وذرنج » ، ولكن الحب الذي هو « فضيلة إلهية » ، وهو « نار حية أتى بها من مذبح مقدس » وهو على أنه « أصدق وأبقى وأحلى . . . الأشياء التي نعرفها » هو أيضاً « أمرها مذاقا » .

لسنا منكرين أن مؤلفات شارلوت برونتي تحتوي على درجة من التعمل العاطفي ، وعلى شيء من الاغراق في الحزن والفرح ، ولـكن لا خطر في ذلك الأمر الأخير ما دام التدفق الطبيعي يدفعـه ، وليس الغرض منه مجرد قشعريرة أبداننا . وإن ما يضايقنا شيئاً ما في شارلوت برونتي هو المصادفات الغريبة المباغتة التي نفاجأ بها ، كما في شيرلي حين تتضايق لأن مسز برايور ظهرت على الصورة التي ظهرت بها أخيراً . وليس ثمة خطر من العاطفة عند ما تكون صادرة عن شعور صادق وموضوع العاطفة جديراً بها . ولـكن إذا كان القصد منها تحريك مشاعرنا بغير ضرورة ، وإذا كان لا علاقة لها بالقصة ، بل هي تحول دون وضع تأثرنا في موضعه الحقيقي ، فإن التذرع بإثارة العاطفة لهو خطأ يدعو للأسف . وقد فرضت علينا الـكاتبة مثل هذه العاطفة الطائشة حين طلبت إلينا أن نذرف الدمع على موت جسي يورك قبل

ذلك بسنوات ، على حين كنا نحن فى تلك اللحظه على استعداد لمشاركة كارولين هلستون فى شكوكها المؤلمة فى أمر روبرت أهو سيأتى أم لا ؟

لقد ارتكبت شارلوت برونتى هذه الخطيئة ، خطيئة العاطفة المتصنعة ، أكثر من مرة ، ومع ذلك نراها تحذر الوقوع فيها . ولسنا نشعر أنها كانت تأتى هذا الخطأ عن عمد إرضاء لذوق الجمهور — وهو ما يقول به أكثر المفسرين — وقد نشعر بأن تحذيرها لقرائها بألا ينتظروا مواقف « غرام أو عاطفة أو شعر أو خيال » ولا مواقف « شهوة وتأثر واندفاعات قوية » إنما هو تحذير لنفسها بأن تبتعد عن كتابة هذه الأشياء بقدر ما هو تحذير لقرائها بألا يحاولوا البحث عن هذه الأشياء فى كتبها . ولقد كانت شارلوت فى حياتها صلبة تحاول أن تجرد نفسها من الأحلام الزائفة فى السعادة كما هو شأن لوسى سنو فى قصة « ڤيليت » ولكن الخيال الذى يأبى إلا أن يكون عوضاً عن هذا النزول لايزال يبرز فى كتبها ، فاذا لم تكن هنالك مواقف الغرام لم يبق غير اليأس . لذلك نجد فى كتبها غراما وعاطفة وشعراً ، وكل الأشياء التى قالت لقرائها فى أول كتابها إنها لن تكتب عنها . إننا كنا نعجب كيف تحتمل الحياة الواقعة وهى تكتب هذا الكتاب لو لم ينطو كتابها على هذه الأشياء . ففى هذه الفترة مات أخوها برانول الذى كان عزيزا عليها ولكنه غير ناجح فى الحياة ، وماتت أختها إميلى التى كانت تعبدها ، وماتت آن التى كانت تحبها حبا عميقاً ، فالعالم الذى كانت تعيش وتناضل فى بطولة من أجله انهار من حولها ، ولكنها ظلت تسعى فى طريقها .

فليس من المستغرب إذن أن يكون هذا الكتاب أقل مرحاً فى نهايته منه فى مبدئه ، بل الواقع أنه ليس فى الكتاب من عبارات مرحة مثل العبارة التى ابتدىء بها : « لقد تساقط على شمال فرنسا فى السنوات الأخيرة مطر من القسس حتى كادوا يغطون سفوح التلال . . . » ومع ذلك ففى القصة حتى نهايتها شىء من الفكاهة سواء فى مجرى حوادثها المتقن أو فى نقدها الاجتماعى ؛ وهذا ما يجعل « شيرلى » قصة تشابه القصص العادية ؛ فقد كان القصصى ترولوب يستطيع أن يرسم حوادث آل يورك ولكنه ما كان ليستطيع أن يسير بها كما فعلت شارلوت . ولقد تعلم أكثر من كاتب بعدها أو منها كيف يصور القسس الثقلاء ومسز سيمسون المكروهة . ليست صورة روبرت مور مما يبعد عن متناول القصصيين ؛ فان أخطاءه نتيجة للضعف الانسانى العادى لا نتيجة للقوة كما هو شأن مسيو پول فى قصة « ڤيليت » ، ولا هى نتيجة لقوة العاطفة كما هى فى روتشيستر فى قصة « چين إيير » . ولعل فى لويس مور من حسن الصورة ما يجعلها غير حقيقية . ولعل صورة شيرلى نفسها التى صورت فيها إميلى برونتى فى ظروف أسعد من ظروفها هى أقرب إلى صور المجامع الفنية منها إلى صورة مخلوق ذى لحم ودم ، غير أن مجموع الأشخاص فى تلك القصة اللذيذة المؤثرة سواء أرأينا مثلا لهم فى روايات الآخرين أم كانوا من خصائص تصوير برونتى يعيشون بقوة وصفات هى خاصة بهم . ومهما كان رأينا فى مؤلفات شارلوت برونتى إذ نمدحها لسمو خيالها أو نرتعش لعمق تفكيرها أو لما تفتحه لنا من آفاق فيما وراء نظرنا العادى ، أو مهما أسفنا من جهة أخرى على ما فيها من نقائص ومن سقطات أحياناً أو إهمال للمشاعر اليومية فى الحياة ، فلا يمكن لأى إنسان أن ينكر ما فيها من موهبة أساسية ، بغيرها تكون جميع المزايا تافهة ، وهى التى تغطى على كثير من الأخطاء ، وهى موهبة الحيوية الكبيرة .

نقلها عن الانجليزية مبارك ابراهيم　　　　　　　　　　بونامى دوبريه

من وراء البحار

انجلترا والتجارة العالمية

يرى مستر هنرى كلاى الذى ظل عشر سنوات مستشاراً اقتصاديا لبنك انجلترا ، وكان أستاذاً للاقتصاد فى جامعة مانشستر ، وهو الآن مراقب فى كلية نوفليد بأوكسفورد ، أن الدور الذى تقوم به انجلترا فى التجارة العالمية آخذ فى الاضمحلال . وقد شرح هذا الرأى فى مقال كتبه بمجلة الشؤون الخارجية الأمريكية (عدد أبريل سنة ١٩٤٦) وفيه بسط مركز انجلترا فى تجارة العالم قبل الحرب العالمية الاولى ، حيث اتخذ هذا المركز دليلا على ما أصاب هذه التجارة من نقصان . فقد كان مركز انجلترا قبل تلك الحرب من حيث سياستها الاقتصادية وتنظيمها فى السنوات العشرين السابقة على سنة ١٩١٤ فريداً فى بابه ليس له مثيل فى عصر آخر أو فى بلد آخر . فأولا كانت حرية التجارة مطلقة ونقل الأموال حراً ، وكان احتياطى الذهب يتراوح بين ثلاثين وأربعين مليونا من الجنيهات الانجليزية فقط ، ومع ذلك كانت الثقة فى الأسواق لا تتزعزع ، ومثل هذه الحرية دليل على التوازن فى العلاقات التجارية والمالية بين أهم بلاد العالم .

وكانت العلاقات الخارجية تعكس صورة الصناعة البريطانية فى الداخل ؛ فقد كانت قائمة على التخصص الكبير فى الصناعة من أجل الاصدار والتجارة الدولية . وكان أهم الصناعات المنسوجات والفحم والآلات الهندسية وبناء السفن . وكان الغرض الأساسى الذى تعمل له هذه الصناعات هو الاصدار أولا وآخراً . وأدى هذا التوسع إلى خاصة أخرى من خصائص انجلترا هى أنها أهملت الزراعة ، فكان عدد المشتغلين بها ٧ ٪ فقط . فكانت انجلترا أكبر دولة تجارية فى العالم وهى مركز نشاط اقتصادى دولى لم يكن له مثيل فى التاريخ بعد الامبراطورية الرومانية .

ثم قامت الحرب العالمية الأولى ، ولسنا نعرف حتى الآن مدى تأثيرها . ومن الطبيعى أن انجلترا لم تكن لتستطيع أن تحتفظ طويلا بمركزها الممتاز حتى لو لم تقم الحرب . على أن من أوائل آثار الحرب أنها تقف النشاط فى التجارة وتقطع من أوصالها ، وتحول دون المرونة فى التغير تبعاً لظروف الأحوال . لذلك وجدت الصناعة البريطانية نفسها فى سنة ١٩٢١ أمام تغير فى الأسواق استمر ست سنوات ، واضطرت إلى أن تعمل على التحول بحيث تلائم هذه التغيرات ، مع وجود ضعف فى التجارة .

على أن بريطانيا لم تعن عناية جدية بهذا التغير ، وظلت عشر سنوات تظن ان السبب فى الأزمة هو الانخفاض الدورى فى التجارة ، وفى هذه الاثناء صار التحول ثابتاً . ولم يعد فى الامكان اكتساب بعض ما فقد بالرغم من إصرار الانجليز على التطلع لما قبل الحرب .

ثم قامت الحرب العالمية الثانية . ولننظر قليلا إلى ما ينتظر أن يكون عليه موقف انجلترا فى التجارة : هل هنالك من شك فى أن موقفها سيكون مثله فى الحرب العالمية الأولى ، بل على الغالب أسوأ حالا ؟ لقد عرفت الأسواق الخارجية كيف تقوم بحاجاتها ، وشجعت

انجلترا نفسها على ذلك ، فالهند الآن لها صناعة قطنية تزيد على صناعة لنكشير . وهى قادرة على اكتساب كثير من الأسواق الخارجية القليلة التى بقيت للنكشير ، وفى أستراليا صناعة صلب أرخص فى جهات كثيرة عن الصناعة الانجليزية . وفى الهند واستراليا صناعة تعدين وهندسة أوجدتها الحرب . ولا شك فى أن ذلك سيسبب قيام مشكلة حادة فى انجلترا بالنسبة للبطالة فيما بعد الحرب . ومن المحتمل أن تعمل الحكومة الانجليزية على تشجيع السوق الداخلية ، فيقوم الاقتصاد الوطنى على حماية السوق الوطنية بدلا من الاصدار الخارجى ، أجل ! إن انجلترا ستظل دولة تجارية عظيمة ، ولكن لن تكون مركز الصناعة القائمة على الاصدار للخارج .

قد يعترض بأن اهتمام انجلترا بالاصدار ليس بنتيجة اختيار وإنما هو نتيجة اضطرار . فتعدادها سبعة وأربعون مليونا ، وهى لا تستطيع أن تطعم نفسها ولا أن تمون صناعاتها بالمواد الأولية إلا بالاستيراد الواسع النطاق ، وإذن فلا بد لها من الاصدار . ومن الأمور القاطعة أن انجلترا لا تستطيع أن تستقل بمواردها عن العالم .

على أن انكماش الصناعة فى انجلترا لم يؤد إلى نزول فى مستوى المعيشة لدى السكان ، بل تحسن هذا المستوى . ولا نقول إن نقص الصادرات كان سبباً فى هذا التحسن ، بل الأصح أن نقول إن الأمرين قد يسيران معاً .

ثم إنه لوحظ أن انجلترا تستطيع أن تكيف نفسها فى الحرب بحسب الأحوال . فقد خفضت وارداتها إلى النصف ، وزادت فى إنتاج طعامها محليا نحو ثلاثين فى المائة وزادت صناعتها فى التسليح زيادة عظيمة ، وذلك يدل على مرونة فى التكيف بحسب الظروف . وإذا كان من المحتمل أن تصير التجارة الخارجية أقل شأناً ، فأنه ليس فى استطاعة انجلترا أن تقلل مما تدفعه فى الخارج ، وقد تستطيع أن تسد هذه الهوة بالاستدانة مؤقتاً ، ولكنها لا تستطيع أن تستمر على ذلك طويلا .

كتاب فرنسى جديد

ظهر فى عالم الكتب بفرنسا كتاب جديد قابله النقاد مقابلة حماسية وأثنوا عليه ، وهو كتاب « قصص غير مثالية » من تأليف فرنسوا ڤرنيه .

والمؤلف شاب فرنسى توفى بمعتقل داشاو ، وهو المعتقل الألمانى الشهير ، فى ٢٦ مارس سنة ١٩٤٥ إذ أصيب بحمى التيفوس فانتهت حياته وهو فى السابعة والعشرين من عمره . وكان معروفا فى أوساط المقاومة باسم سنتير ، وقد سجن قبل نقله إلى المعتقل الألمانى فى غرفة صغيرة بسجن فرين فخط على حوائط غرفته ستين قصيدة من الشعر ستنشر قريباً فى ديوان مستقل .

وقد نشر أول كتاب له وهو فى التاسعة عشرة من عمره ، واسمه «ذلك الوقت السعيد» . ونشر له فى باريس فى سنة ١٩٤٤ كتاب اسمه « لن تموت » نقله أحد الفرنسيين فى حقيبته إلى معتقل داشاو ، ولكنه لسوء الحظ وصل متأخراً إذ كان المؤلف قد دخل فى دور النزع .

وكتاب القصص غير المثالية عبارة عن مجموعة من ست قصص كتبها فى تلك الأيام التعسة

التى مرت بفرنسا ، فوصف رجال فرنسا ووقع الاحتـلال الأجنبي فى نفوسهم وما يجول بخواطرهم من آلام وآمال .

وقد أطلق على أشخاص القصص أسماء رمزية استعارها أحيانا من الأساطير القديمة ، وأحيانا من الأسماء التى تطلق على الصور فى أوراق اللعب ، فما الأشخاص فى ذلك الزمن التعس إلا لعبة للأقدار . ولقد فهم قرنيه ما فى موقف رجال فرنسا حين ذاك من روح صناعية ، وشعر بما فى هذه السنوات من هذه الروح ووصفها بعين شاعر . ولقـد صدق حين جعل أحد أشخاص قصة من قصصه يقول : « إن هنالك شيئاً واحدا يحملك على ان تعشق الحرية إلى الأبد ، وهو أن تكون قد خضعت مرة لسلطان الظلم » .

جومون واختراعاته السينمائية

اخترع مسيو ليون جومون المخترع السينمائى الشهير ، وهو الآن فى الثالثة والثمانين من عمره ، اختراعاً جديدا كما تروى نشرة الأخبار الفرنسية .

فهو يعيش فى ضيعـة بجهة توريل على مقربة من بلدة سانت مكسيم بفرنسا ، يعيش وحيداً بعيداً عن معمله ، ومع ذلك أخذ يضع القواعد لفكرة جديدة لا بد أن يكون لها تأثير فى العادات ، ولا بد أن تحدث ثورة فى الحياة العملية ، وهـذا الاختراع هو أقرب إلى الأساطير والتكهنات منه إلى الحقيقة ؛ فهو عبارة عن « المراسلة الحية بواسطة السينما » وذلك بأن تعد ورقة بسيطة من أوراق المراسلة إعداداً خاصاً حتى يمكن عليها تسجيل صوت المرسل وصورته . فينشأ عن ذلك أن المرسل إليه ، بواسطة طريقة مشابهة للوحة الحساسة ، يسمع صوت المرسل ويرى صورته .

وليس تحضير ورقة الرسائل مشابهاً لما فى التصوير الشمسى ، الذى يكون بواسطة الحمام المحتوى على الأملاح ، وإنما يكون تحضيرها بواسطة عملية غازية .

ولا شك أن عالم السينما يذكر مسيو ليون جومون بما له من اختراعات عدة ، أهمها « الكرونوفون » الذى قدمه لأكاديمية العلوم بفرنسا فى سـنة ١٩١٠ ، وفيه وافق بين الصورة والصوت ، وكان هو أول من أخرج شريطاً بالألوان فى سنة ١٩١٩ اسمه « موكب النصر » .

المجلس البريطانى ونشاطه

فى يولية سنة ١٩٤٥ أى على أثر نهاية الحرب العالمية الثانية ، كان المجلس البريطانى — كما جاء فى تقريره عن سنة (١٩٤٤ — ١٩٤٥) — قد بلغ عشر سنوات من نشاطه . إذ أنشىء هذا المجلس بقصر سان جيمس فى يولية سنة ١٩٣٥ . وفى هذه السنوات العشر تداول رياسته أربعة من رجال انجلترا البارزين ، وهم لورد تيرل ، ولورد استاس بيرسى ولورد لويد ، والسير ما لكولم روبرتسون ، وارتفعت الاعانة التى خصصت له من خمسة آلاف جنيه عند إنشائه إلى مليونين وستمائة ألف فى نهاية هذه السنوات العشر ، لما بدا من نفعه ، إذ أصبح عاملا مهماً فى العلاقات بين بريطانيا والبلاد الأخرى .

ويتبين من هـذا التقرير أن نشاطه امتد إلى إحدى وثلاثين دولة أجنبية أو مستعمرة بريطانية ، وله ممثلون فيها يمثل هذا العـدد . وقد أنشأ تسعة وتسعين معهداً بريطانيا فى البلدان المختلفة ، كما امتد نشاطه إلى اليونان ويوغسلافيا وإيطاليا وإلى البلاد المحتلة من ألمانيا فى ربيع سنة ١٩٤٥ . وزاد عدد الجمعيات الثقافية التابعة للمجلس فى أمريكا الجنوبية من ٢٧ جمعية فى سنة ١٩٤١ إلى ٤٦ جمعية فى سنة ١٩٤٥ .

وفى مارس سنة ١٩٤٥ كان المجلس يدرس اللغة الانجليزية لأكثر من عشرة آلاف طالب فى تركيا .

وعين بفضـل مجهودات المجلس ٣٧ أستاذاً بريطانيا فى الجامعات الأجنبية ومعاهد التربية العليا ، وأرسل ١٦١ من متخرجى الجامعـات الأجنبية إلى بريطانيا ليتزودوا من العلم فيها .

وفى سنة ١٩٤٠ كان المجلس قد بدأ يطبع سلسلة من النشرات باللغة الانجليزية ، وبلغت هذه السلاسل فى سنة ١٩٤٥ ستا وعدد اللغات تسعا ، وأخرج المجلس فى هذه الفترة ثمانين شريطاً سينمائياً وزع فى أربع وثمانين جبهة ، وقد استعمل فى شرحها اثنتان وعشرون لغة .

وقد حدث فى السنين الأخيرة تطوران هامان فى تنظيم المجلس : أولهما إنشاء لجنة استشارية للدراسات الأدبية ، وثانيهما إنشاء قسم زراعى تابع للقسم العلمى .

ومن البلاد التى يشملها نشاط المجلس غـير البلاد التابعة للامبراطورية البريطانية أو الداخلة البلجيك ، وليس بها معهد تابع للمجلس للآن ، وإنمـا أظهر المجلس نشاطاً فيها وأرسل أساتذة عديدين لتعليم اللغـة الانجليزية ، وعين مستر بليك ممثلا للمجلس فى تشيكوسلوفاكيا ، وأخذ المجلس فى تعيين ممثل فى فنلندة .

وفى فرنسا كان المجلس قدافتتح داراً سنة ١٩٣٩ فى الشانزليزيه فعاد رجاله إليها كما أعيد افتتاح المعهد البريطانى فى شارع السربون حيث وجدت مكتبته سليمة بفضل موظفيها من الفرنسيين وحماية جامعة باريس .

وفى اليونان عاد المجلس إلى نشاطه الذى ابتدأه قبل الحرب . وبدأ المجلس نشاطا جديداً فى ايسلاندا ، كما بدأ نشاطا جديداً فى إيطاليا وفى هولاندا . وفى البرتغال نظم المجلس فى عاصمتها زيارات ومعارض ومسرحيات وحفلات موسيقية ، وأمدها بالـكتب الانجليزية والمدرسين . وفى أسبانيا ثلاثة معاهد بريطانية ، يبلغ عدد طلبتها نحو خمسة آلاف . وبدأ المجلس منذ ثلاث سنوات نشاطاً فى السويد ، وتألفت إدارات للاستعـلامات عن المسائل الانجليزية ، وأبدى نشاطاً فى خدمة الفنون والآداب . وفى تركيا يتزايد الاقبال على منشآت المجلس ومعاهده ومكتباته . وفى أثيوبيا افتتح عدة معاهد فى مدن تلك الدولة . وفى العراق توجد خمسة معاهد ومدرسة لتربية الأطفال ، وفى إيران توجد أربعة معاهد فى مدن مختلفة ، وكان نشاط المجلس عظيما .

وللمجلس أيضا نشاط عظيم فى الأرجنتين والبرازيل وشيلى وكولومبيا وكوبا والمكسيك وبيرو واكوادور وباراجواى ويوروجواى وفينزويلا وخمس من دول أمريكا الوسطى . وله نشاط عظيم فى أرجاء الصين .

ولسنافى حاجة إلى ذكر مجهودات المجلس فى أنحاء القطر المصرى . ولا ريب فى أن هذا التقرير مفيد جداً لمن يريد أن يطلع على نشاط الثقافة الانجليزية فى أنحاء العالم .

الدعاية فى أواسط إفريقية

فى المجلة الجغرافية الانجليزية (عدد مارس ١٩٤٦) بحث شيق فى تجربة قامت بها الدعاية الانجليزية فى إفريقية لتثقيف جماهير الافريقيين من الذين يعيشون عيشة بدائية فى أواسط تلك القارة وشرقيها . وقد كتب هـذا البحث مستر أليك دكسون ألذى أشرف على هـذه التجربة ، ولم يكن الغرض منها إلا الدعاية للحرب .

ابتدأت التجربة أولا تحت ضغط الحاجة إلى المتطوعين فى قيادة شرق إفريقية ، فقد ذهب الزمن الذى كان يتقاطر فيه أهل البلاد للخدمة العسكرية البريطانية فى جميع أنحاء تلك الجهات .

ويروى مستر ديكسون أن بعض أهل البلاد كانوا يقدرون موقف بريطانيا ، وقد كتب طالب فى إحدى المدارس يقول : « إن الرق ليس غريباً عن الأفريقيين ولـكنهم يضارون بالألمان أكثر من غيرهم ، إذ أن هتلر يعتبرهم من القرود . »

هذا ما كتبه الطالب ، ولكن كثرة الأفريقيين من المتعلمين أو أنصاف المتعلمين على قول مستر ديكسون يفكرون تفكيراً آخر ، فهم يقولون : « لقد أقنعنا الأوربيون بأن نعدل عن الحروب ، وهاهم أولاء يتقاتلون » أو هم يرون « أن الـكثير من الأمم الأوربية لا تفهم كيف تؤثر فيها الحرب ولذلك بقيت على الحياد ، إذن كيف يفهم الأفريقيون أن الحرب تؤثر فيهم ؟» ثم إنه كانت هنالك دعايات أخرى انتشرت بينهم لاسيما فى بوجندا، إذ أخذ الناس يزعمون أن الحقن التى تعطى للجنود قبل رحيلهم تسبب العقم . ولا ريب فى أن الدعاية الألمانية كانت قد بلغتهم . ولعل أكبر أنواع تلك الدعاية كانت الانتصارات الـكبيرة التى تردد صداها فى أنحاء العالم . فلقد سمع أحد رجال الدعاية الانجليزية رجلا من أهل تلك الجهات يسأل عند ما رأى شريطاً سينمائياً يمثل الدبابات الانجليزية : « عجباً ! هل لدى الانجليز دبابات أيضاً ! »

رأت القيادة البريطانية فى تلك الجهات أن تعالج هذا الأمر ، فقر رأيها على أن تعتمد على فريق من العساكر المدربين الذين يمثلون خير أبناء تلك الجهة ، لـكى يشرحوا لمواطنيهم الحرب والغرض منها. وكانت هذه الفرقة تنتقل فى أرجاء تلك البلاد الواسعة ، وقد قطعت مايزيد على ثلاثين ألف ميل وحضر العرض أكثر من مليون من الأنفس .

وكان أساس هذا العرض قائماً على التمرينات الرياضية ، فان عرض الأسلحة لدى هؤلاء الشعوب قد يكون خطراً ، وقد يكون مخيفاً . أما التمرينات الرياضية فانها تؤثر فيهم عند مايرون أبناء جلدتهم وهم يقومون بها . ولقد كتبت إحدى الوطنيات تصف تأثير هذا العرض فيها تقول : « إنهم حمل بعضهم بعضاً كالقردة ، وتسلق بعضهم فوق بعض كالملائكة ! » ووصفت أخرى قفزاتهم السريعة بأنها شبيهة بنور البرق فى العاصفة .

وقد استعملت مكبرات الصوت فى وصف العرض ولـكن كثيراً ماكان تأثيرها فى بعض القبائل مغايراً لما أراد العارضون .

وكان من المناظر المؤثرة فى الأهالى عرض الجنود الأفريقيين فى أزياء قديمة ثم فى أزيائهم الحديثة التى يرتديها الجنود الآن .

ويرى مستر ديكسون أنه من المستطاع الاستمرار فى تثقيف الجمهور الافريقى فى زمن السلم ، على أن يعهد فى ذلك لوحدة من وحدات الجيش ، وأن يكون العمل تحت إمرة الجيش .

ظهر حديثا

جنة على نهر العاصى تأليف موريس بارس عضو المجمع اللغوى الفرنسى وترجمة الأستاذين محمد عبد الحميد عنبر وعبد المجيد عابدين (دار الكاتب المصرى)

عند ما كتب هنرى بريمون العضو فى الأكاديمية الفرنسية مقاله الرائع عن موريس بارس فى مجلة « كوريسبوندان » الفرنسية على أثر وفاة ذلك المؤلف الكبير ، ذكر فى هذا المقال كيف قوبلت قصة « جنة على نهر العاصى » عند ما نشرت لأول مرة ، وما دار حولها من جدل عندئذ ، وكيف تكلم عنها النقاد فوصفها بعضهم بأنها قصة ناعمة ، يقصدون بذلك الاشارة إلى أنها تافهة ، وتساءل بعضهم ألم يحن الوقت لنبذ الخيالات والاغراق فيها . وذكر بريمون فى ثنايا هذا المقال كيف جاءه بارس زائراً فى مدينة بو فى ربيع سنة ١٩٢١ وقال : « إنى أحمل إليك عصفوراً صغيراً » ، وكان يبدو عليه شىء من التردد الحقيقى ، وكان ما يحمله هو تلك القصة . لقد وجد من اللذة فى كتابتها مالم يجد فى أكثر مؤلفاته الأخرى ولكنه لم يكن على ثقة من نجاحه فيها . وقد ترك المخطوط لصديقه بريمون لبضع ساعات كى يطلع عليه ويبدى رأيه فيه ، وكان بادى الرغبة فى أن يتعرف هذا الرأى وبادى القلق . ويقول بريمون إنه لم يتردد لحظة فى الحكم لهذه القصة ، لا لأنها سحرته ، فهو يفضل العشرات من مؤلفات بارس عليها ، وهو يعتقد أن محبى بارس يوافقونه على هذا الرأى ؛ غير أن هذا لم يحمله على التردد فى الاشارة بنشرها .

إذا كان الناقدون عندئذ لم يحسنوا استقبال هذه القصة ، فان شباب الأدباء تحمسوا لها تحمساً كبيراً . ويرى بريمون أن هـذه القصة إذا لم تكن من خير قصص الأديب الكبير فهى على الأقل فى المرتبة الأولى من مؤلفاته وأنه بدأها بوصف رائع : « تلك الجلسة على نهر العاصى ، وتلك السواقى التى تتابع دورانها ليل نهار » .

والواقع أننا إذا أردنا أن نتبين أسباب هذه الحملة من النقاد ، فاننا نجد أهمها فى تطور ذلك العصر ، منه فى القصة نفسها ؛ فقد كانت أرض الأدب مهيأة عندئذ لبروست وامثاله من زعماء الأدب الواقعى ، وقد أخذ الناس يتحولون عن الأدب القائم على الخيال عندئذ . ولا شك فى أن بارس ، وهو فى هذه القصة بالذات ، من أكبر ممثلى هذا النوع الأخير من الأدب .

أما الآن فان القراء قد عادوا بعد أهوال الحرب العالمية ينزعون إلى الاقبال على الأدب الخيالى ، ليريحوا أنفسهم قليلا من الهموم التى عرفوها والمشكلات التى تنتظرهم .

لذلك كان من حسن الاختيار أن وفق الأديبان الأستاذ محمد عبد الحميد عنبر والأستاذ عبد المجيد عابدين إلى نقل هذه القصة للغة العربية ، وقد تشارك الأستاذان أولهما بما له من مقدرة فى اللغة الفرنسية ، والآخر بماله من اطلاع واسع فى الآداب العربية ، على إظهار هذه

القصة فى ثوبها الوطنى ، إذ أن حوادثها تقع فى بلد عربى وتعبق صفحاتها بعبيق شرقى .
ولست أحب أن أختتم هـذه التقدمة دون الاشارة إلى ما رأيته فى إخراجها من جمال فى فن الطباعة . ولا ريب فى أن دار الكاتب المصرى ، قد وضعت مستوى عالياً فى جمال الطباعة مما يبشر بنهضة عامة فى هذا الفن الجميل ومما يجعل الكتاب يأملون فى المستقبل القريب فى أن يروا مؤلفاتهم وقد ظهرت فى تلك الطبعات الخاصة الأنيقة التى يعرفها هواة الكتب ، وترفع شأن الكتاب والأدباء .

الملاك ديوان شعر من نظم الأستاذ محمود حسن اسماعيل (شركة فن الطباعة)

الأستاذ محمود حسن اسماعيل شاعر مطبوع عرف الناس أناشيده فى التربة وعرفوه فى أغانى الكوخ ، ولمسوا فيهـا تلك الروح التى ترسل الشعر على سجيتها فتفيض بكامن الاحساسات دون تعمل . فالشعر فى هذه الحالة يعبر عن عاطفة صادقة .
وهو فى هذا الديوان قد انتقل إلى الحضر ، وتطلعت عيناه إلى أكبر مظاهره ، فأجاد وعبر أيضاً عن شعور صادق . انظر إلى قوله من قصيدة بعنوان « لما رآك الحيارى » :

خلوا هوانا يذيع الوجـد أحيانا	فما وهبنا سوى التغريد سلوانا
نمشى على الكون اطياراً ، فان سكنت	بنا الأغانى مشينا فيـه عيدانا
وما لنـا فى فضاء الله أجنحة	حتى نطـير إذا لم تصغ دنيانا
لكنه قدر فينـا يسيرنا	شجوا ، وشدوا ، وأوتارا ، وألحانا
نحن الأغانى وما الأشباح غير صدى	مجسد ظنـه الراءون أبدانا
أشباه إنس . . . وفينا كل بارقة	من السماء ترد السحر حيرانا
لا تعذلونا إذا ما الشعر أذهلنـا	فهكذا هوله الجبـار سوانا
مثى الربيع إلى تلى فقلت له	لا أعرف الحسن أزهاراً وأغصانا

إلى أن يقول :

تلفت اليوم فى الوادى تجد ملكا	هو الربيـع خميـلات وأفنانا
إذا مشى أينعت أفنـان خطوته	ظلا ونبعاً وأثمـاراً وريحانا
وإن تلفت ألقى نور لفتتـه	فجراً رطيباً على الأرواح ريانا
وإن أشار فمن إيمـاء أصبعه	يفئ شئ دعاه النـاس إيمانا
وإن تحرك منه أى جارحة	فمصر تدفعهـا هفا واسكانا
وإن تـكلم أجرى النيـل منطقه	بعزة كم جرى فيهـا قدامانا

واقرأ قصائده عن ركاب عيسى ، ويوم الفقير ، وهذى فلسطين ، ومن ذلك الفارس ، تجد فيها أمثلة من ديوان كله من الشعر الرصين .

تاريخ التعليم فى مصر من نهاية حكم محمد على الى أوائل حكم توفيق

(١٨٤٨ — ١٨٨٢) للدكتور أحمد عزت عبد الكريم (مطبعة النصر) الجزء الاول : عصر عباس وسعيد .

أراد الدكتور أحمد عزت عبد الكريم أن يتابع البحث فى تاريخ التعليم فى مصر ، أو بالحرى فى سياسة التعليم فى مصر ، وكان قد وضع منذ سنوات كتابه الاول « تاريخ التعليم فى عصر محمد على » حيث بحث سياسة ذلك الرجل الكبير الذى رأى بذهنه الثاقب أن يدخل الأساليب الأوربية فى التعليم لينهض بالبلاد التى اختارته للجلوس على عرشها .

وهو فى هذه المجلدات الأربعة الضخمة يتابع هذا البحث ، فيرسم لنا عصر عباس الاول حين يتراجع الاهتمام بالتعليم الحديث وتنتر الهمم فى السير بالاصلاح . ثم يأتى عصر سعيد (١٨٥٤ — ١٨٦٣) فيحاول أن يستأنف النهضة ولكنه أراد أن يبنى بناء جديداً بدلا من أن يتابع البناء على الأسس التى أقامها أبوه ، فلم يمهله الزمن .

وفى الجزء الثانى الذى يقع فى مجلدين عالج المؤلف سياسة التعليم فى عهد إسماعيل الذى عمل بهمة على أن يجعل بلاده قطعة من أوربا ، فكانت عنايته بالتعليم بالغة ونهضته موفقة ، ثم قدر أن تعصف بها الظروف والخطوب فتحول دون استمرارها .

وهذه المجلدات الثلاثة تدل على مقدار الجهد الذى بذله المؤلف فى البحث والاستقصاء فى كل ما يتعلق بسياسة التعليم . فترى كيف أنه زرع أرضاً بكراً لم تكد تمسها الأيدى من قبل إلا مساً خفيفاً فجاء بحصاد كبير .

وقد جمع فى الجزء الرابع طائفة جليلة من الوثائق التى يحتاج إليها كل باحث فى تلك الفترة من الزمن .

فهذا الكتاب بلا ريب يدل على مجهود كبير جدير بالحمد والتقدير .

وقد نشر هذا السفر القيم على نفقة وزارة المعارف وكتب له الأستاذ محمد شفيق غربال بك مقدمة بما له من الاطلاع الغزير على تاريخ مصر الحديث .

حسن محمود

الأحلام للدكتور توفيق الطويل (مطبعة التوكل بالقاهرة)

لقيت الدكتور توفيق الطويل اول مالقيته فى ليلة من ليالى رمضان منذ بضع سنين فى دار صديق كريم ، واستمعت إليه أول ما استمعت وهو يتحدث عن الغيب ، والوحى ، والالهام ، والرؤيا ، والايمان المطلق بالعقل ، وتحدثت إليه قبل أن أعرفه واستمع إلى ، ثم افترقنا ، وأحسبنى لم ألقه بعدها قط ، أو لعلى لقيته ولا أذكر ، ولكنى لا أزال منذ تلك الليلة البعيدة من ليالى رمضان ، كلما عرض اسمه أو ذكره وثبت إلى نفسى صورته ورن فى مسمعى صدى حديثه ذاك فى تلك الليلة ، عن الغيب ، والوحى ، والالهام ، والرؤيا ، والايمان المطلق بالعقل . وها هو ذاك يتراءى لى اليوم فى صورته التى أعرفها ولا أعرف غيرها ، فى

كتابه هذا الذى عقده عن « الأحلام » وعرض فيه للحديث عن الغيب ، والوحى ، والالهام ، والرؤيا ، والايمان المطلق بالعقل ، فلا اكاد أفرغ من كتابه ومن الحديث الذى عرض له فيه حتى يعود بى القهقرى ، فاذا نحن فى ليلة من ليالى رمضان ، يدور فيها حديث من نوع هذا الحديث الذى فرغت من قراءته منذ لحظات ، وإذا صورته اليوم هى صورته بالأمس ، وإذا رنين حديثه هو ذلك الرنين ، فكأنما كان ذلك اللقاء البعيد وذاك الحديث المتقطع هو « رؤيا » صادقة أجد تعبيرها بعد بضع سنين ، ولكن الدكتور توفيق الطويل مع ذلك يكاد يكفر بالرؤيا الصادقة !

كتاب الأحلام هذا هو دراسة عقلية لموضوع « الأحلام » كما يتراءى للباحث الذى يؤمن بعلم النفس الحديث إيمانا يحمله على أن يرد إليه كل مظهر من مظاهر الحركة العقلية فى الحس الظاهر أو فى الوعى الباطن . وقد بدأ المؤلف نهجه فى البحث بدراسة شاملة للمذاهب الاسلامية المختلفة على توالى العصور ، بين فلسفية وصوفية ودينية ، مع تتبع هذه المذاهب إلى منابعها فى الدين والتراث اليونانى والشرق القديم ، وبيان ما يقابلها عند المحدثين من علماء النفس . وانتهى من بحثه إلى ترجيح عدم اعتبار الرؤيا وحيا إلهيا ، لم يقطع فى ذلك برأى سلبى ولا إيجابى على كثرة ماجهد فى البحث والاستقصاء والتحرى ؛ إذ لم يجد فى كل ماوصل إليه من أسباب هذا البحث مايحمله على يقين جازم « لأن طبيعة الموضوع ، مع تصور أدوات المعرفة التى توصل إليها حتى أيامنا الراهنة ، تجعل الحكم الحاسم إسرافا لا يبيحه منهج البحث العلمى » و « لأن العلم لم يقل كلمته الأخيرة فى هذا الموضوع ، ولعله لن يقولها أبداً ... ومن الخير ألا يزعم القدرة على إعلانها ! »

هو إذن كتاب من تلك الكتب القليلة التى يكتبها كاتبوها مؤمنين بالعلم ، وهو إلى ذلك كتاب جديد فى بابه ، قريب إلى كل نفس بموضوعه . فما أحرى كل ذى نفس بأن ينظر فيه نظرة يفيد منها علما بنفسه ، وبما يتراءى له فى يقظته أو منامه من رؤى صادقة أو من أضغاث أحلام ، فهو وإن كان بمذهب مؤلفه وطرائقه فى البحث « كتابا خاصا » فان فى موضوعه معنى « العموم » الذى يعنى كل قارئ وإن لم يكن من ذوى الاختصاص فى الفلسفة وعلم النفس وتاريخ المعقولات الانسانية .

ايليا أبو ماضى للاستاذ نجدة فتحى صفوة (مطبعة الحكومة — بغداد)

إيليا أبو ماضى : شاعر من شعراء المهجر — كما يريد المعاصرون أن يسموه — نشأ فى لبنان وعاش فترة غير قصيرة من عمره فى مصر ، ثم شد رحاله إلى أمريكا منذ بضع وثلاثين سنة ، فطاب له العيش كما طاب من قبله لآلاف المهاجرين من أبناء العربية ، فاستوطنوا واطمأنت بهم الحياة ، على أن وطنهم هذا الجديد لم يقطع ما بينهم وبين وطنهم العربى من أسباب ، فعاشوا هنالك عرباً ، لساناً ودماً وعاطفة !

ولأول مرة منذ انحسرت موجة الفتح العربى ، وانحصر العرب فى داخل حدود بلادهم — سمعنا صوتاً عربياً يتردد صداه فى الآفاق آتياً من وراء البحار ، وكان ذلك صوت المهاجرين العرب فى أمريكا يؤذنون أبناء عمومتهم فى المشرق أنهم لا يزالون هنالك عرباً لهم مكارم

وكيانهم ولسانهم ، ومنهم الكاتب والشاعر وصاحب الرأى والجاه . وكان من بين الأدباء الذين ذاع لهم صيت ونبه ذكر : إيليا أبو ماضى الذى أخرج الأستاذ مجدة فتحى هذا الكتيب للتعريف به وبيان مذهبه فى الشعر وطرائق البيان .

هو كتيب لا يزيد على بضع وتسعين صفحة صغيرة . يبدأ بمقدمة للاستاذ رفائيل بطى صاحب جريدة « البلاد » التى تصدر فى بغداد ، يعيب فيها على الأدباء عدم عنايتهم بالأدب المعاصر وإغفالهم دراسة الأدباء المعاصرين ، إلا قليلا من الكتب لقليل من الكتاب . وهى مقدمة طويلة تشغل من صفحات هذا الكتيب أكثر من ثلثه ؛ على حين تشغل بعض الصفحات الأخيرة قصيدة طويلة من شعر إيليا أبى ماضى أوردها المؤلف فى الخاتمة لتكون نموذجاً ، أو شاهداً على بعض ما تقدم من الحكم . وفيما بين المقدمة والخاتمة بضع وخمسون صفحة شغلها المؤلف بالحديث عن إيليا أبى ماضى ، وعن أدب المهجر ، وأسباب الهجرة التى هيأت لهؤلاء العرب أن يهاجروا ، وأن يستوطنوا ذلك المهجر البعيد ، وأن ينشئوا أدباً يتميز بخصائصه ويعرف بطابعه

ويبدو أن الأستاذ مجدة لم يكن يقصد حين بدأ هذه الدراسة أن ينشىء كتابا ، وإنما طلب إليه الأستاذ رفائيل بطى أن يعد « لمة من أدب أبى ماضى وشخصيته الشعرية » ليقدمه لقراء « البلاد » لمناسبة ظهور « الخمائل » الديوان الرابع للشاعر ، فكان هذا الكتيب هو جواب هذا الطلب الذى طلبه إليه صديقه محرر « البلاد » . ثم كان فراغ المؤلف من هذه الدراسة على هذا الوجه حافزاً له على أن يصدر « سلسلة الشعراء المعاصرين » فى كتب صغيرة متتابعة ، كان أولها هذا الكتاب ، يتلوه كتاب آخر عن « المازنى شاعراً » .

على أن هذه الدراسة على وجازتها وضيق حيزها حافلة بكل ما يعنى المعجبين بالشاعر إيليا أبى ماضى أن يعرفوه ، فهى حقيقة بأن تكون نموذجاً جيداً لما يحاوله بعض الكتاب من « مختصرات التعريف » ببعض أهل الأدب ؛ فان فيها غناء وفائدة ومذهباً سديداً فى النقد والتحليل .

كيف تفهم الناس للدكتور إبراهيم ناجى (دار المكتب الثقافى الدولى بالقاهرة)

وهذا كتاب يتصل اتصالا ما بعلم الاجتماع ، وهو مجموعة دراسات نفسية مبسطة تتيح لكل ذى نفس أن يدرس نفسه دراسة تعينه على فهم الناس ، ومن هنا كان عنوان الكتاب .

والدكتور ابراهيم ناجى طبيب وشاعر ، وهو بهاتين الصفتين حقيق بأن يدرك من حقائق النفس وحقائق الجسد ما يستطيع به أن يكون باحثاً نفسياً له رأى . وأحسبه فى هذا الكتاب قد بلغ شيئاً من هذه المنزلة وإن كان لم يظهر بوضوح بخصائصه الذاتية فيما لخص من أقوال علماء النفس فى هذه الفصول ، وتوارى خلف غيره من علماء هذا الفن ، فيما عدا لمحات ضئيلة لا تدل دلالة واضحة على مقدار ما يملك من الأهلية للانتاج الذاتى فى هذا الباب ؛ فجاء كتابه هذا أشبه بالملخصات المدرسية منه بالكتاب الذى كان ينتظره القارىء من الطبيب الشاعر المرهف الوجدان ابراهيم ناجى ، ولكنه على كل حال كتاب جديد فى موضوعه بالنسبة للغرض الذى أنشىء من أجله وللقارىء الذى قدم إليه !

محمد سعيد العريان

فى مجلات الشرق

تاريخ المسرح التونسى

فى العدد الحادى والعشرين من « مجلة المباحث » التى تصدر فى تونس ، بحث ضاف بهذا العنوان كتبه الأستاذ عثمان الكعاك ، نقتبس منه ما يلى :

« إن المسرح عندنا مشروع فنى للتأثيين به ، ومادة سلوة وموضوع اعتبار للمتفرجين فيه . أما عند القدماء فقد كان المسرح مؤسسة دولية ومشروعا حكوميا ، فالتمثيل لا يقم إلا من بعيد إلى بعيد وفى مناسبات معينة وتحت ظل ديانة رسمية وبرياسة أهل الحل والعقد وبمحضر جميع السكان ... بحيث إن الرجل الوثنى الجدير بهذه الصفة ما كان ليتخلف قط عن حضور المشاهد حتى لو كان ذلك مفضياً به إلى الكلل والملل ؛ لأن فى تخلفه اعتداء على الطقوس وسوء أدب نحو الحاكين .

« على أن الأفارقة لم يكونوا فى حاجة قط إلى مزيد تحريض ، فقد كانوا مولعين بالمشاهد إلى درجة الجنون ، يدلك على ذلك العدد العديد من المنقوشات الحجرية المرسومة باللغة اللاتينية والمعثور عليها بالتراب التونسى ... الخ »

حكومة اليمن

وفى « مجلة المنتدى » التى تصدر فى فلسطين (العدد الثالث من المجلد الأول) حديث عنوانه « مشاهداتى فى اليمن » بقلم هارولد أنجرامز حاكم عدن السابق ، جاء فيه ما يأتى :

« الحكم فى اليمن فى يد الامام والأسياد ، ومركز الامام يجمع بين السلطتين الدينية والمدنية ، والامام ينتخبه جماعة العلماء ، وهم من طبقة الأسياد ، والذى يتقدم لهذا المنصب ينبغى له أن يتوافر لديه ١٤ شرطاً ، ومتى تم انتخابه أصبح ملكا يتمتع بكل سلطة الملوك ورئيساً دينياً له كل ما للبابا من سلطة دينية بين أتباعه . وإذا ذكرنا هذه الحقيقة المهمة سهل علينا أن نفهم كثيراً من الظواهر الغامضة فى حياة اليمن : فالامام مثلا لم ير البحر فى حياته . وسبب ذلك أنه لا يستطيع أن يغادر بلاده ، فهى مرتبطة به ارتباطاً وثيقاً ، حكومة وديناً . . .

« ومن القوانين الأساسية فى البلاد أن الأجانب لا يجوز لهم ان يملكوا شيئاً فى اليمن ، وإذا هاجر اليمنى من وطنه استولت الحكومة على كل أملاكه ، وهذا القانون ينطبق على المسلمين كما ينطبق على اليهود . ومع أن جلالة الامام يعتقد أن سلطته حق مشروع إلا أنه يقر بصعوبة الاحتفاظ بهذا النوع من الحكومة فى العهد الحاضر ، وهو لذلك لا يرحب بالنفوذ الأجنبى والمؤثرات الغربية مهما كان نوعها . والمستشارون الأجانب فى اليمن لا سلطة

لهم ؛ فرؤساء الدوائر كلهم من الأسياد وهم الذين يقررون ما يفعله الزراعيون أو الأطباء أو للهندسون الأجانب . وجلالة الامام مقتصد للغاية ولا يرضى بالتقدم السريع . »

الشعوبية والشيوعية

وفى مجلد العددين الرابع والخامس فى مجلة « عالم الغد » التى تصدر فى بغداد مقال بقلم الأستاذ سعيد أبو الحسن المحامى بدمشق ، عنوانه « العرب بين شعوبية القرون الوسطى وأممية القرن العشرين » يحاول فيه أن يبرز نوعا من التشابه بين دعوة الشعوبية التى ظهرت فى وقت ما فى الدولة الاسلامية فآلت بها إلى التفكك والانحلال وجعلتها آخر الأمر تسلم أمرها إلى الأعاجم فاستبدوا بالسلطان وأقصوا العرب عن مراكز الحكم — وبين الأممية التى تدعو إليها وتمثلها بعض المذاهب السياسية اليوم ، داعية إلى إغفال القوميات الخاصة والتهوين من شأن الروابط العنصرية التى تجمع أبناء الوطن الواحد على فكرة وعاطفة ، ويرى فى أوجه الشبه بين تلك الشعوبية وهذه الأممية ما يحمله على أن يجزم بأن هذه الدعوة ليست إلا لونا جديداً من الشعوبية التى قوضت ملك العرب فيما غبر من تاريخهم . فنراه يقول بعد أن يورد من أوجه الشبه بين هاتين الدعوتين ما يؤيد به رأيه :

« فالقومية التى ندين بها والتى ندعو إليها تجديدية تحررية تدين بالمساواة وتعترف لكل أمة بحقها فى الحياة ، ولكنها إلى ذلك تقرر من الوجهة الفكرية والعلمية أن لكل أمة شخصية خاصة وعبقرية خاصة لا يمكن أن تشابه سواها من الأمم ... »

الفكرة القومية فى مراحل تطورها الحديث

وفى عدد أبريل من مجلة « الأديب » البيروتية مقال للمحرر بهذا العنوان يحاول فيه أن يتحدث عن الصلة بين الاسلام والقومية العربية ، فنراه ينكر أن يكون هذا الدين من مشخصات القومية العربية أو من عناصر وجودها ، وإنما هو — فيما يراه — مظهر من مظاهر يقظتها وتعبير عن قوة الوعى فيها فى فترة ما من التاريخ ، فيقول :

« والحقيقة التى تتبدى على البحث المجرد الدقيق أن الدين لم يكن إلا « تعبير اليقظة » فى إحساس الطبيعة العربية التى شعرت بالمخاض ، فلا بدع إذا اشتقت عباراتها وانتحت جملها ومقاطعها المعبرة من أعمق المسيرات المعنوية للكائن الحى يومذاك ، فجاء الدين تعبيراً قومياً متسقاً مع الاعتبارات القصوى التى كانت تهيمن وتسيطر وتدفع صعداً فى خط الاتجاه ، كما سبق لهذه الطبيعة أنها استخدمت أساليب أخرى من التعبير عن الذات والخصائص الثابتة ، كالفروسية حيناً وتوسيع المجال الحيوى حيناً آخر .

« ففى مفهومنا أن الدين بازاء القومية العربية لم يكن إلا « كحادث الأثر » ، أما « حادث السبب » فليس إلا القومية التى شعت وشاعت فيها يقظة الخصائص . . . ولهذا الذى تقرره معنى واضح ليس يسمح بريب أو تخوف ، كما ليس يسمح بتزويد أو افتيات . »

علامات الجمال

وفى العدد نفسه من مجلة « الأديب » مقال ممتع بقلم الآنسة روز غريب بهذا العنوان ، تقول فيه :

« والتوازن لازم فى الطبيعة كما فى الفن ، لازم لراحة الشئ واستقرار وضعه وراحة الناظر إليه ؛ لأن الاخلال بالتوازن تقلقل واضطراب . ولهذا نرى الباحث « الآن » يحدد الجمال بقوله إنه الهدوء والانضباط حتى فى مواقف العنف والهياج . إن اضطراب الأعصاب وعدم التوازن دليل الضعف والمرض ، وهياج الأهواء العنيفة كالغضب والحسد والحقد والهوى المذيب ، كل هذه أعداء الجمال ؛ لأنها تترك فى الوجه والجسم علامات القلق واختلال التوازن وتشوه محاسنها . والجسم الجميل حقا هو المتزن الحركات . والرشاقة مهولة فى الحركة أساسها التوازن واعتدال الشكل . والوجه الجميل هو الهادئ المنبسط الأسارير الذى تنعكس فيه نفس صافية متزنة لا تؤثر فى هدوئها أعاصير الحياة . لهذا يندر الجمال عند الشعوب الفطرية المتوحشة لاتصافها بانطلاق الغرائز ، ويكثر عند الشعوب العريقة بالتمدن الموصوفة بالانضباط ، ومن هنا كانت الثقافة أحد مصادر الجمال . »

بعد سقوط الأندلس

وفى عدد نوفبر سنة ١٩٤٥ من مجلة « الثريا » التى تصدر فى تونس بحث طريف عنوانه « حجاج الأندلس بعد سقوطها » للأستاذ عثمان الكعاك ، تدرج فيه إلى الحديث عن اللغة فى الأندلس قبل سقوطها وبعده ، ثم إلى شئون أخرى ، فقال :

« كانت اللغة الرسمية فى أسبانيا الاسلامية هى العربية الفحة ، وكان شرطاً أساسيا على كل رئيس دولة أو موظف فيها أن يحسن العربية حواراً وكتابة ؛ فتبارى الرؤساء والوزراء فى حذقها والبراعة فى إنشائها ، حتى كان أكبر الكتاب من الرؤساء والوزراء ... ولكن الناس فى حياتهم اليومية كانوا يتكلمون لهجة دارجة قد خالطها الكثير من المفردات اللاطينية والأسبانية ، وكان إلى جانب ذلك لهجة أسبانية متولدة من اللاطينية الدارجة وهى الأنموذج الأول للغة الأسبانية الحالية . . . ويفسر هذا أن مسلمى الأندلس كانوا يتزوجون بالأسبانيات الأعجميات ، وكان الأسبان الأعاجم يتطوعون أو ينخرطون فى الجيش العربى ... وذكر ابن حزم أن القبائل الضاربة بأحواز قرطبة قد تعاجمت ألسنتها وتطرق إليها الكثير من المفردات والتراكيب الأسبانية حتى بعدت عن العربية بمراحل . . . وقد درس العلامة الأسبانى ريبيرا هذه اللهجة الأسبانية القرطبية فوجدها تمت بسبب إلى البرتغالية القديمة ، أو لغة الجلالقة ، أو اللغة القطلونية التى تشبه لغة سكان جنوب فرنسا . »

أثر الأعياد فى الأدب العربى

وفى مجلة « الاعتدال » التى تصدر فى النجف — العراق ، بحث بهذا العنوان للدكتور السيد مصطفى جواد فصل فيه أثر الأعياد فى الأدب العربى شعراً ونثراً ، ثم يجمل بحثه الضافى فى خلاصة وجيزة يقول فيها :

« وخلاصة القول أن الأعياد أثرت فى الأدب العربى تاثيراً عظيما وأحدثت فيه ثلاثة أنواع جديدة ، أولها « أدب التهانى » بالشعر والنثر ، وقد بلغ من الشيوع أن الانسان قلما تصفح ديوان شعر أو ديوان رسائل ولا يرى فيه جملة من أدب التهانى . وكان الخليفة الناصر لدين الله العباسى (٥٧٥ — ٦٢٢ هـ) قد أحدث للشعراء الكبار سجلا أثبت أسماءهم فيه وسماهم شعراء الديوان وأجرى عليهم جرايات ورواتب ، فتهيأت لأدب التهانى يومئذ حماية من الدولة ورعاية من الخليفة . والنوع الثانى هو أدب الأعياد الفارسية من مهرجان ونيروز وسذق ، وكان لهذا الأدب فضل فى تقدم شعر الطبيعة عند العرب . والثالث الأدب الديرانى وهو أدب جمع بين وصف الطبيعة والجمال والخمر ، وخلف كتبا كثيرة عرفت بالديارات ، كديارات على بن محمد الشابشتى وابن فضل الله العمرى . وهذا النوع الثالث ، وأعنى الأدب الديرانى ، هو الأدب الذى صدقت فيه العواطف وصحت فيه الأوصاف وصور عدة حالات اجتماعية للعرب أبدع تصوير وسجلها أبرع تسجيل ؛ فهو من الأدب الكامل الذى لا تبلى جدته الدهور ، أولا تمل عذوبته الأذواق السليمة على اختلاف العصور . »

الخلود الأدبى

وفى المجلة نفسها مقال بهذا العنوان للأستاذ السيد محمد شرارة يتحدث فيه عن معنى الخلود الأدبى ، ويسائل : « ما رأيك ؟ هل تنكر الخلود الأدبى ؟ وهل تنكر أن فى الأدب آثاراً تعبر عن أدق ما فى الحياة من أحاسيس ؟ » .

ثم يقول :

« هذه الأسئلة التى تلوح شبيهة بالتحدى أكثر من الأسئلة العادية ، يتوقف الجواب عليها على معنى الأدب وأثره فى الحياة . فان كان الأدب « تصويراً » للحياة — وهو ما نؤمن به — فخلوده يدور فى الفلك الذى دارت به الحياة ... فقد قيل عن قصة « روميو وجوليت » فى الأدب الانكليزى إنها خالدة ، ولكن القصة الانكليزية أحيطت بظروف وعادات وقتية لم يبق لها أثر فى الحياة الانكليزية الحديثة . وإذا كانت العناصر التى استمدت القصة منها روحها قد زالت فى العصر الجديد فكيف يمكن أن يبقى الشىء خالدا وهو معدوم الروح ؟ وقيل عن قصة « قيس وليلى » فى الأدب العربى إنها خالدة ؛ وقصة الحبيبين العربيين كقصة الحبيبين الانكليزيين محاطة بتقاليد بدوية وعنعنات صحراوية أدت إلى الحيلولة بين لقاء

الحبيبين ، ونشأ من ذلك ما نشأ من حرقة ولوعة كان من أثرها ذلك الشعر الحزين الباكى فى الأدب العربى وغيره . وقيل عن قول أبى العلاء :

مل المقـام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحهـا أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

إنه خالد . ولكن هذا الخلود لا مصدر له إلا ما نراه من التشابه بين العصر الذى نعيش فى ظلاله وبين عصر أبى العلاء . . . فاذا كان الرائى يرى فى هذين البيتين خلوداً فليس له مصدر إلا ما ذكرناه . فلو تغيرت الأوضاع وساد العدل — وذلك غير بعيد — لبقيت هذه المعانى سجلا تاريخياً يعبر عن فترة من الفترات التى مرت بها الانسانية لا أكثر . . . »

وينتهى الباحث من مقاله قبل أن يقطع برأى فى معنى خلود الأدب أو يجيب على سؤال ، أو لعله قد قطع برأيه وأجاب جوابه فى جملة ما استطرد إليه من الحديث مشفقا من التصريح بالرأى الذى يؤمن به ، وهو أن خلود الأدب ليس إلا أمنية ليس وراءها حقيقة !

فى زحمة الميدان !

وهذه مجلة جديدة صدر الجزء الأول منها فى أبريل — عن بيروت — اسمها « الأدب الجديد » ينشئها طائفة يسمون أنفسهم « إخوان القلم » يقدمونها إلى القراء بكلمة عنوانها « حقيقتنا » يقولون فيها :

« لقد مل الحرف ترديد اللفظ ، وسئم اللفظ تكرار المعنى ، فبليت الأفكار فى الأقلام ، وأنتنت الأقلام فى المحابر ، حتى جف المداد واصفر الورق !

« جمود وتقليد . . .

« إقطاعية تستثمر الأدب ، وأنانية تحتكر الشهرة .

« مجلات ودور نشر : تهمل قيمة الأدب وتتاجر باسم الأديب !

« لقد شاخ أدباؤنا فشاخ أدبنا ؛ لأن دم الشباب مكبوح الجماح .

« فنحن نريد أن نطلق العـاطفة المكبوتة . . . نريد . . . نريد . . . نريد . . . »

ويختمون هذه المقدمة قائلين :

« هذه ثورة فى الأدب ، غايتها تحطيم الأصنام ، ورفع القيم فوق الأسماء

« إن نضالنا طويل ، فلن ندعى الفوز القريب ، لأننا فى مستهل الطريق . »

أترى هؤلاء الشباب يستطيعون أن يحققوا هذا البرنامج ؟ أم هى ثورة عابرة وفورة من فورات الشـباب الذين يتعجلون الغاية قبل الأوان ؟ أم هى طبعة ثانية من المعركة التى نشبت فى القاهرة منذ قريب بين من سموا أنفسهم « أدباء الشباب » و « أدباء الشيوخ ؟ »

أسئلة ندع الجواب عنها الساعة حتى نرى ماذا يكون « إخوان القلم » فى غد وبأى لون من « الأدب الجديد » يريدون أن يطالعونا فى الأعداد القادمة ، ونأمل لهم التوفيق !

فهرس المجلد الثانى

فبراير — مايو ١٩٤٦

دراسات أدبية

دراسات اجتماعية واقتصادية

* كل مقال أمامه هذه العلامة كتب خاصة للمجلة بقلم كتاب أوربيين أو أمريكيين

(١) Raymond Guérin, *Contre une terreur des faits.*

(٢) Roger Caillois, *Le Pouvoir des mots.*

دراسات تاريخية

دراسات سياسية

دراسات علمية

دراسات الفنون

قصص ومسرحيات

(١) *The Unspoiled Reaction*, by Mary McCarthy.

شعر

من هنا وهناك

شهرية العلم

شهرية السياسة الدولية

شهرية الفن

شهرية المسرح

شهرية السينما

من كتب الشرق والغرب

من وراء البحار

(١) *The Story of Twenty Centuries*, by Frank Tilsley.
(٢) *Charlotte Bronte's Shirley*, by Bonamy Dobrée.

ظهر حديثاً

فى مجلات الشرق

ليون دوديه

كليمنصو وحياته العاصفة

تعريب حسن محمود



الثمن ٣٥ قرشاً
(البريد ٢٤ مليما)



طبعة مزينة بالصور

VALEURS

CAHIERS TRIMESTRIELS DE CRITIQUE ET DE LITTERATURE
PUBLIES AVEC LA COLLABORATION DES ECRIVAINS DE FRANCE
ET DU PROCHE-ORIENT.

Directeur: ETIEMBLE.

SOMMAIRE DU CINQUIÈME CAHIER

GUSTAVE FLAUBERT
LETTRES INEDITES A MAXIME DU CAMP

JULES SUPERVIELLE
ELEMENTS D'UNE POETIQUE

ETIEMBLE
EVOLUTION DE LA POETIQUE CHEZ SUPERVIELLE

ALBERT CAMUS
LA PESTE

EDITH BOISSONAS
POEMES

HENRI CALET
LE DIEU DES FLANDRES

NICOS ENGONOPOULOS
BOLIVAR
(traduction, avec une introduction de R. Levesque)

JEAN GRENIER
POESIE DE L'ESPACE

SAINTE BEUVE
DEUX LETTRES INEDITES

REVUE DES LIVRES FRANÇAIS,
LETTRES ARABES, LETTRES ETRANGERES,
REVUE DES REVUES, NOTULES, BULLETIN.

Dans les numéros 6-8 VALEURS publiera notamment des inédits de:

Charles Baudelaire, Jean Paulhan, Marcel Proust, Alexei Remizov, Théophile Gautier, Georges Bataille, Georges Dumézil, Michel Leiris, Raymond Queneau, Jean Tardieu, etc..



الكاتب المصرى

مجلة ادبية شهرية

تصدرها دار الكاتب المصرى

شركة مساهمة مصرية

وتطبع بمطبعتها

رئيس التحرير

طه حسين

سكرتير التحرير

حسن محمود

ادارة الكاتب المصرى

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة

الاشتراك

يدفع مقدماً باسم « الكاتب المصرى »

١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان

١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو مايعادلها

الثمن بمصر : ١٠ قروش

مطبعة الكاتب المصرى شركة مساهمة مصرية